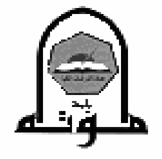


جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين حتى نهاية القرن التاسع الهجري

إعداد الطالبة

سعاد عبد ا   أبو ركب

إشراف

الدكتور فايز القيسي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العلـــيا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجـــــة

الدكتوراه في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2010

الشكر والتقدير

عندما اجتاز شط العمل الدؤوب، لا يسع حروفي إلا أن تمتزج كلمات شكر، وعبارات تقدير إلى الأستاذ الدكتور فايز القيسي، الذي رعى هذا العمل منذ أن كان فكرة إلى أن جاء على هذه الصورة، ولم يتوان لحظة واحدة عن إمداده بكل ما هو مفيد، وإتحافه بكل ما هو جديد، جعل ا خدمته لهذا العمل في موازين حسناته .

كما أتوجه بالشكر الفائق إلى كل من الأستاذ الدكتور رشدي الحسن، والأستاذ الدكتور محمد الشوابكة، والدكتور خليل الرفوع، على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى ما بذلوه من جهد وتحملوه من مشقة في تصويب هفواتها، وإبداء الملحوظات حولها، التي لا شك سوف تضيء لي كثيرا من الجوانب التي لم أتنبه إليها، وتثري قضايا ذات علاقة بها قصر عنها جهدي .

كما أتقدم بالشكر الخالص إلى أساتذتي جميعاً في قسم اللغة العربية وآدابها، الذي أكن لهم كل حب وتقدير وفاء على ما قدموه لي نصح وإرشاد أثناء التحضير لدراسة المساقات المطلوبة .

سعاد عبد ا أبو ركب

فهرس المحتويات

الملخص

جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين حتى نهاية القرن التاسع الهجري

سعاد عبد الله أبو ركب

جامعة مؤتة، 2010

يدرس هذا البحث جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين حتى نهاية القرن التاسع الهجري، فقد حظي المكان باهتمام الرحالة، فكانوا مولعين بتدوين كل ما يرونه فيه، من نواح سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها؛ فجاءت لمساته ظاهرة على أحاسيس الرحالة أثناء وصفهم له .

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة :

تحدثت المقدمة عن سبب اختيار هذا البحث والمنهج المتبع في كتابته .

و ناقش الفصل الأول التنوع في المقاصد والغايات، والامتداد في الأزمنة والأمكنة.

وتناول الفصل الثاني ثنائية الأمكنة المتضادة ، مثل أمكنة البر والبحر، وأمكنة الأنا والآخر، وأمكنة المقدس والمدنس، والمكان الواقعي والمتخيل .

ودرس الفصل الثالث الأمكنة المتداخلة وهي أمكنة الانطلاق وأمكنة العبور وأمكنة الوصول .

وعرض الفصل الرابع أصداء الأمكنة والأزمنة ، فتناول أمكنة التسامح الديني، وأمكنة حوار الأزمنة .

وتحدث الفصل الخامس عن أدبية وصف الأمكنة من خلال الاسترجاع ، والعجائبية والغرائبية ، والتناص بأنواعه المختلفة والإيقاع ، كما تناول شعرية وصف الأمكنة .

وأما الخاتمة فقد تضمنت أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة .

Abstract

Aesthetics of the place in the writing of Moroccan and Andalusians travelers in the end of the ninth century AH

Suad Abdullah Abu rukab

Mu'tah University, 2010

The research will study the aesthetics of place in the codes of travelers Moroccan and Andalusian until the end of the ninth century AH, it was the place with interest the travelers, were fond of the codification of what they see from all aspects such as , political, economical, and religious dimension .the writing reftects their feelings towards what they describe .

The study comes on top of five chapters and a conclusion:

in the introduction discussed about the reason for choosing this research and the approach of the writing.

And discussed the first chapter of diversity in the purposes and goals, the extension in time and space.

The second chapter dealt with two contrasting places, places such as land and sea, and the ego and the other places, and places the sacred and the profane, and where the real and imagined.

And studied Chapter third places a nested places and places of departure, transit and places of arrival.

And presentation of Chapter fourth Echoes places and times, talked about the places of religious tolerance, dialogue and location times.

The fifth chapter talked about the literary description of places through recovery, and the miraculous and the grotesque, intertextuality in its different forms and rhythm, also addressed the poetic description of places.

The conclusion included the most prominent findings of this study.

المقدمة

فهو عز وجل يختص من يشاء برحمته، ويلبس من سبقت له الحسنى أثواب عنايته، ومفضل بعض الخلق بما منحهم من طرائف نعمته، ولطائف منته، ومصرف الأحكام في العبيد، فمن شقي وسعيد، ومقرب وطريد، لا يسأل عما يفعـل، ولا راد لمقتضى ما يعمل، وأزيد الصلاة على سيد أنبيائه، وأولى أوليائه، وصفي صـفوته، محمد المنتخب من أعلى سنام الفجر الأصيل وذروته، وعلى شريف ذريته الطاهرة، وجميع أهل بيته وصحابته وتابعيهم، جعلنا ا من زمرتهم وتابعيهم إلى يوم الدين .

فلقد شاء ا لي أن أوشك على تحقيق حلم كـان يراودنـي منـذ نعومـة أظفاري، وكنت أشد الولع به ألا وهو الحل والترحال !! وكم كنـت أعجـب أشـد العجب بالرحلة والرحالة .. فجاء الطلب محققاً للعجب ..فما كنت أتوقع يومـاً مـن الأيام أن يطلب إلي البحث عن الرحلات ولا الرحالة أو ما يجول عن الرحلة ؛ لذلك عندما سبرت أغوار الدراسات ووصلت لهذه المرحلة، كانت دراسـتي "جماليـات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين " إشباعاً لرغبتي، وتحقيقاً لحلمـي وإمتاعاً لنفسي، حين أجوب هذه العوالم وأتعمق في دراسة هذا الـذي أعـده علمـاً بذاته.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، فتحـدثت فـي الفصل الأول حول المفهوم العام لمدونات الرحالة المغاربة والأندلـسيين، وتنـوع المقاصد والغايات، وتناولت الامتداد في الأزمنة والأمكنة للرحلات .

أما الفصل الثاني فقد ناقشت فيه ثنائية الأمكنة المتضادة، كون المكان دعامة أساسية لكل تصور إنساني، وتناولت فيه أمكنة البر والبحر وأمكنة الأنـا والآخـر، حيث كانت الرحلة الأندلسية والمغربية في مواجهة بين الذات والآخـر، واكتـشاف آفاق الآخر، والتكيف مع قيمها، ورسم ملامح صورتها، كما ناقشت في هذا الفصل التضاد بين أمكنة المقدس والمدنس، وأمكنة الواقعي والمتخيل .

وفي الفصل الثالث كتبت عن الأمكنة المتداخلة، وطرق تناول المكان التـي كانت تختلف من رحالة إلى آخر من حيث الرغبة العلمية والحس الجمالي، ثم أمكنة

الانطلاق وأمكنة العبور الجاذبة والطاردة، ثم أمكنة الوصول حيث المكان المستهدف من الرحلة .

أما أصداء الأمكنة والأزمنة فكان في الفصل الرابع، حيث تناولت فيه أمكنة التسامح في مدونات الرحالة وأمكنة حوار الأزمنة سواء أكانت تاريخية أو دينية .

وقد خصصت الفصل الخامس لأدبية وصف الأمكنة، بينت فيه الاسترجاع الداخلي والخارجي، وذكرت بعض وظائفه، ثم تناولت العجائبية والغرائبية في مدونات الرحالة وقسمته إلى قسمين وهما ما تحقق الرحالة من صحة مروياتهم، أما القسم الثاني فهو مما لم يتحقق فيه الرحالة من صحة مروياتهم .كما ناقشت في هذا الفصل مظاهر التناص وألوانه المختلفة، من تناص ديني وتاريخي وشعري ونثري إلى جانب التناص الرحلي، ثم جاء الحديث عن الإيقاع بنوعيه النفسي (الداخلي)، والخارجي المتمثل في الإيقاع القائم على الفاصلة والإيقاع القائم على التوازي، وانتهى المطاف بهذه الدراسة إلى الحديث عن شعرية وصف الأمكنة الرحلية .

أما الخاتمة فقد تضمنت أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وقد أفادت الدراسة من عدد من الدراسات الحديثة التي تناولت الرحلة عند العرب وفي مقدمتها " الرحلة في الأدب العربي" لشعيب حليفي ، وكتاب "رحالة الغرب الإسلامي"لنواف عبد العزيز الجحمة، وكتاب"أدب الرحلات الأندلسية والمغربية" لنوال الشوابكة .

وقد سلكت هذه الدراسة في معالجة الموضوعات والقضايا التي اشتملت عليها مسلك المنهج العلمي القائم على البحث والتحليل والتعليل، والمستفيد من معطيات المناهج الأخرى، مثل المنهج التاريخي والنفسي وغيرها .

وأخيراً فإنني أرجو من ا العلي القدير أن أكون قد وفقت في ما قدمته من جهد بشيء فيه خدمة التراث العربي الإسلامي في الأندلس والمغرب .

الفصل الأول

مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين

1.1المفهوم :

إذا كان الرحالة هو المتنقل من مكان إلى آخر [1]، بهدف الرحلة نفسها أو لأهداف أخرى؛ فإن مدونات الرحالة تشمل كل ما خطته يدا الرحالة من نصوص أثناء الرحلة أو بعدها، وقد كان لهذه المدونات دورها الكبير في الكشف عن بعـض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في مراحـل متعـددة مـن التاريخ الإسلامي .

فأدب الرحلة هو تشكيل لنص ذاتي شخصي بخصوص الأنا والآخر، ينبني متكيفاً في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة انطلاقاً من خطاب مفصح عنـه فـي البداية، أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات[2].

وقد كان المغاربة والأندلسيون مولعين بالسياحة والتجوال، كما كانوا مولعين بتدوين كل ما يرونه في الأماكن التي يزورونها، حيث التركيـز علـى الجوانـب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية؛ "ولعل مسيرة القوافل إلى مكـة سـنوياً لأداء فريضة الحج هي التي جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار في العالم الإسـلامي وما وراءه من بلدان وشعوب في آسيا وأوربا "[3] .

لذا، كانت زيارة بيت ا سبباً في توجه الرحالة إلى المشرق فـي أغلـب الرحلات، وقد ذكر المقري في نفح الطيب ما يزيد على ثلاثمائة ممن رحلـوا إلـى

---

1 - انظر : نواب، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر مـن مـصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين (دراسة تحليلية مقارنة)، مكتبة الملك فهـد الوطنية، الرياض، 1996م، ص40 .

2 - حليفي، شعيب، الرحلة في الأدب العربـي"التجنيس،آليـات الكتابـة،خطاب المتخيـل"دار القرويين، المغرب، ط2، 2003م، ص 32 .

3 - ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، تاريخ الأدب العربي (عـصر الـدول والإمـارات الأندلس) دار المعارف، القاهرة،ط3، د.ت، 526-527 .

المشرق ثم اعتذر عن عدم قدرته على الإحاطة بهؤلاء الرحالة ذلك " أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، لكننا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الملال واختصار مؤد للملام "[1].

و لم تكن زيارة الأماكن المقدسة هي السبب الرئيس للرحلة، إذ إن طلب العلم والمعرفة يحتل المرتبة الثانية بعد الحج وزيارة المقدسات، فالرغبة في طلب العلم كانت ظاهرة عامة في المجتمع الأندلسي، وغدت عرفاً علمياً إسلامياً، فكثر طلبة العلم من أهل الأندلس الذين كانوا يرحلون من أقاصي المغرب والأندلس إلى العراق والشام ومصر والحجاز؛ لملاقاة العلماء المشهورين في مختلف فروع المعرفة، فإذا انتهوا من ذلك استكملوا الرحلة بأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة .

2.1 التنوع في المقاصد والغايات :

لم تكن غايات الرحالة واحدة، و لم تكن أهدافهم محددة، فكثير من الرحالة مزج بين هدفين أو أكثر، كأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن الشهيرة في المشرق وغيرها، وطلب العلم ولقاء المشايخ الكبار والأخذ عنهم، والحصول على الإجازات العلمية منهم، وهناك الرحلات السياحية التي تهدف إلى جوب الآفاق والتعرف على الأماكن المختلفة وأخلاق أهلها وعاداتهم، وبناء على ذلك يمكننا إجمال أهداف الرحالة الأندلسيين والمغاربة وغاياتهم في ما يلي:

1.2.1 الدافع الديني :

وهو أهم أهداف الرحالة على الإطلاق، إذ إن أغلب الرحلات الأندلسية والمغربية توجهت إلى الديار المقدسة، لأداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة قبر

---

1 - المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1968م،ط1، م2 ص5 .

الحبيب المصطفى صلى ا عليه وسلم، وقبور الصحابة رضوان ا عليهم، حتـى أننا في أغلب الأحيان نجد أن الدافع الديني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدوافع الأخـرى، فقد يكون الدافع الأول للرحالة هو طلب العلم الذي أصبح عرفاً علمياً إسـلامياً أي فريضة ثقافية، لكننا نجده في أثناء ذلك يقوم بزيارة الأماكن المقدسة، مثل معراج الرسول صلى ا عليه وسلم، والمسجد الأقصى ومهد المسيح عليه السلام بالإضافة إلى تأدية مناسك الحج والعمرة في مكة، وأحيانا البقاء في جوار قبر الرسول صلى ا عليه وسلم .[1]

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته " أن رحلة المغاربة كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم .... ومن لم يكن العراق في طـريقهم، فقد اقتصروا على الأخذ من علماء المدينة "[2] .

ولم يكتف بعض الرحالة المغاربة والأندلسيين برحلة واحدة إلى بلاد الحجاز فقد زادت رحلات بعضهم على ثلاث رحلات، كما حدث مع ابن جبير الـذي قـام بثلاث رحلات إلى الحجاز، امتدت أولها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وسـبعة عـشر يوماً، بدأها يوم الخميس في 8 شوال 578هـ، وختمها في 22محرم سنة 581هـ، ولم يدون غيرها، وكانت الرحلة الثانية إلى بيت المقدس، بعد أن فتحها صلاح الدين وحررها من الصليبيين سنة (583هـ)، وفي هذه الرحلة خرج من غرناطـة سـنة 585هـ وعاد إليها سنة 587هـ، ثم قام برحلة حج ثالثة ملتمساً العزاء إثـر وفـاة زوجه، وكانت هذه آخر رحلاته، و جاور بمكة حيناً من الزمن، ثم في بيت المقدس،

---

1 - انظر : القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي (ت 891هـ)، رحلة القلـصادي، دراسـة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م ص 129- 147 .

2 - ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، المقدمة، ضـبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2001م، ص771 .

ثم استقر في الإسكندرية إلى أن وافته المنية عام 614هـ،[1] وكذلك ابن بطوطة[2] الذي حج أكثر من مرة أثناء رحلته، إذ كان حجه الأول عام 726هـ [3]، وكان حجه الثاني عام 727هـ، وجاور بمكة، فحج سنتين متواليتين عامي (728هـ و729هـ)، وحج مرة خامسة عام 732هـ، ثم حج المرة الأخيرة عام 769هـ.[4]

وقد ذكر المقري في نفح الطيب أن سبب رحلة ابن جبير ودافعها الأول هو الحج للتكفير عن الذنب الذي ارتكبه، فقد ذكر أن الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعاه ليكتب له رسالة، وكان في مجلس شرابه، فمد يده له بكأس، فأظهر الانقباض، وقال يا سيدي ما شربتها قط، فقال وا لتشربن منها سبعاً، فلما رأى العزيمة شرب منها سبعة كؤوس، ثم ملأ له الكأس من الدنانير سبع مرات، فحمل هذا المال وأضمر أن يجعله كفارة شربه وذلك بتأدية مناسك الحج بتلك الدنانير .[5]

1 - انظر : ابن جبير، محمد بن جبير الأندلسي،(ت 614هـ)، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، حررها وقدم لها علي أحمد كنعان، دار السويدي للنشر، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2001م، ص 14-15 .

2 -هو أبو عبد ا محمد بن عبد ا اللواتي الطنجي، رحالة مؤرخ، ولد في طنجة سنة 703هـ بالمغرب الأقصى، وخرج منها سنة 725هـ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز و العراق وفارس والهند والصين وبلاد التتر، استغرقت رحلته 27سنة، ترجمت رحلته إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والانجليزية، توفي في مراكش عام 779هـ . انظر ترجمته في : الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين و المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1984م، مج 6 ص 235-236 .

3 - انظر: ابن بطوطة، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن محمد الطنجي ت(779هـ)، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،2ج، اعتنى به درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت،2007م، ج1 ص104 .

4 - انظر : ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، مقدمة المحقق ص 8-9 .

5 - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج2، ص 385 .

وقد أشار الرحالة أنفسهم إلى دوافع رحلاتهم وغاياتها، فرحلة القلصادي[1] كانت ذات أهداف علمية ودينية في الوقت نفسه، كما يشير إلى ذلك في مقدمة رحلته المدونة، إذ يقول :" الحمد الذي جعل طلب العلم واجباً على البعض من المسلمين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، وفرض الحج على المستطيع من المسلمين، وألزمهم التكاليف حجة عليهم ودليلا "[2] .

ويقول حين حنت نفسه إلى الوطن، واشتاق إلى الأهل والأحبة، أنه تأسى بقول الشافعي رضي ا عنه : (الكامل)

"العلم مغرس كُل فَخْرٍ فاجتَهد — أن لا يفوتُك فخْر ذاك المغرس
واعلم بأن العلم ليس ينالُه — من همه في مطْعمٍ أو ملْبس
إلا أخا العلم الذي يعنى به — في حالتيه عارياً أو مكتس
فاجهد ِلتدرك منه حظاً وافراً — واهجر له طولَ الرقادِ وغلس
حتى إذا ما قد حضرتَ بمجالس — فتكون أنت رأس ذاك المجالس
وترى الخلي من العلوم مقامه — عند النعال له لسان أخرس

فاشتغلت بطلب العلم قراءة وإقراء ....."[3]

---

1 - القلصادي :هو أبو الحسن، علي بن محمد القرشي الأندلسي البسطي، ولد في بسطة سنة 815هـ - توفي عام 891هـ، انظر ترجمته في : الرحلة، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص 30-31، و المقري، نفح الطيب، ج2 ص692 .

2 - القلصادي، الرحلة، ص82 .

3 - القلصادي، الرحلة، ص148-149 .وقد وردت هذه الأبيات برواية أخرى في ديوان الشافعي :

العلم مغرس كل فخر فافتخر — واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله — من همه في مطعم أو ملبس
إلا أخو العلم الذي يعنى به — في حالتيه عارياً أو مكتسي
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً — واهجر له طيب الرقاد و عبس
فلعل يوماً إن حضرت بمجلس — كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

إن هذا القول يؤكد أن ملاقاة العلماء المشهورين والأخذ عنهم هو الهـدف الأول، فإذا ما انتهوا من ذلك استكمل الرحالة رحلتهم بأداء فريضة الحج وزيـارة الأماكن المقدسة .

وكذلك كانت رحلة ابن بطوطة تحمل أكثر من دافع، فقد كان دافعها فـي البداية دافعاً دينياً لكنه تحول في أثناء الرحلة إلى أهداف أخرى، حيث يقـول فـي بداية حديثه عن رحلته : " كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يـوم الخمـيس الثاني من ا رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمـدا حـج بيـت ا الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام "[1]، ثم نجد هدفـه يتـسع ليشمل السياحة في الأرض، وذلك بعد لقائه أبي عبد ا المرشدي، حيث يكاشـفه برؤياه فيخبره أنه سيحج وسيزور قبر النبي وسيتجول في بلاد الـيمن والعـراق وبلاد الترك، ويبقى بها مدة طويلة [2].

فابن بطوطة يحمل في داخله حب التجوال والسياحة؛ لذلك نجده سرعان ما أضاف إلى الغاية الدينية غايات أخرى من مثل التعرف على عادات الناس وطرائق عيشهم، و الوقوف على المعالم الأثرية والسياحية ومعرفة كل مجهول لديه .

أما ابن جبير فهو مختلف تماماً عن هـذين الـرجلين، فغايتـه الأولـى والأخيرة هي زيارة الأماكن الدينية وتأدية مناسك الحج والعمرة، وذلك حـسب مـا يشير إليه في بداية الرحلة، إذ يقول في المقدمة: " وكان انفصال أحمد بـن حـسان ومحمد بن جبير من غرناطة، حرسها ا للنيـة الحجازيـة المباركـة، قرنهـا ا بالتيسير والتسهيل " [3] .

=انظر : الشافعي، أبو عبد ا محمد بن إدريس رضي ا عنه ت(150هـ -204هـ)، ديوان الشافعي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، عالم الكتـب، بيـروت ومكتبـة الكليـات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1990م، ص104-105 .

1 - ابن بطوطة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص 11.

2- انظر : ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص 26 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 17 .

ويحصر البلوي[1] أهداف رحلته في بعدين: ديني وعلمـي، حيـث يقـول: "فأقول مستعينا با سبحانه : إني خرجت قاصدا الحج، وطالبا للعلـم مـن بلـدي قتورية"[2]

أما عبد ا بن محمد التجاني[3] فقد خرج في رفقة أمير تونس زكريا بـن أحمد اللحياني [4]" وكان مراده منها بالقصد الأول إنما هو التوجـه لأداء فريـضة الإسلام، التي لا يسع تركها بعد الاستطاعة عليها أحداً من الأنام، بهذا تعلقت آماله، وعليه كان عن الخلافة انفصاله، إلا أن أمر الحج طوى على الناس في هذه الحركة ذكره، وأخفى عنهم أمره وسبب ذلك أنه لما علم في تدبير الرعية من حسن غنائـه،

1 -هو أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي القتوري، ولد بقتورية التـي كـان والده قاضياً بها، وهي بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية، كانت ولادتـه عـام (713هـ ـ) تقريبا، أما وفاته ففي عام 765هـ)، نشأ في أسرة علمية متدينة حيث تلقى تربية صالحة فأخذ عن والده القرآن ومبادئ العربية ثم درس القراءات السبعة عن أثني عشر شيخا، ثم رحل إلـى غرناطة ودرس بها . انظر ترجمته : البلوي، خالد بن عيسى،(ت765هـ) تـاج المفـرق فـي تحلية علماء المشرق،(2ج)، تحقيق الحسن السائح،مطبعة فـضالة،المحمدية، المغـرب، (د.ت) مقدمة المحقق، ج1،18-35، ونفح الطيب، المقري، ج2ص 532-534 .

2 - البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، ص 143.

3 -هو أبو محمد عبد ا التجاني، لا يعرف سنة ميلاده، ووفاته بين (670هـ - 675هـ)، استصفاه كبير الدولة الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني وقرب منزلته منه، ولمـا عـزم هـذا الأمير على تفقد شؤون المملكة ومحاربة الأسبان المغتصبين لجزيرة جربة، عين أبـا محمـد التجاني لمصاحبته وفوض إليه الإشراف على رسائله منتصف 706هـ . انظر : التجاني، أبـو محمد عبد ا بن محمد بن أحمد التجاني(670-675هـ)، رحلة التجاني(تونس-طرابلس)، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م، مقدمة المحقق، ص(ل- لا)، و الزركلي، الأعلام م4 ص 125 .

4 - زكريا بن احمد بن محمد بن يحيى بن أبي حفص اللحياني الهنتاني، مـن ملـوك الدولـة الحفصية بإفريقية،ولد بتونس وقرأ الفقه والعربية، صار إليه الملك سنة 680هـ،توجه للحجـاز للحج عام (709 هـ) . انظر، الزركلي، الأعلام، م3، ص 45-46 .

وما اجتمعت عليه قلوب الجمهور واستتم من محبته وثنائه، لو بين لهـم انطلاقـه، لأبدى كل منهم به اعتلاقه، فصدوه عن حجه، وردوه عما يمم من نهجه "[1].

وهكذا نرى أن الحج من أهم الأسباب التي استحثت همم العلماء والرحالـة، فالحج كان وما يزال رحلة يتشوق إلى أدائها الناس عامة والعلماء والفقهاء خاصة " ونتيجة لذلك فقد اكتسبت رحلة الحج صفة دينية شعبية "[2]، فقد كان الحـج فرضـاً لازم السلوك المغربي في تاريخه الإسلامي، كما أنه يعد البداية الرئيسية للانطلاق في رحلات طلب العلم والتجوال السياحي، والرغبة الذاتية في ملاقاة الـشيوخ مـن العلماء والفقهاء .

وكانت زيارة الأماكن المقدسة تقتضي من الرحالة تدوين كل ما رأوه مـن معالم دينية مختلفة وتوثيقها، مثل الروضة النبويـة المـشرفة و قبـور الـصحابة، وتسجيل المشاهد الدينية الأخرى، مثل يوم عرفة، ووصف مكة المكرمة وجبالهـا، ومنظر الكعبة وما يتميز به من مشاهد تميزه عن غيره من الأماكن، وهذا ما نجـده في جميع الرحلات التي قصدت الأماكن المقدسة، فقد سجل الرحالة كل ما رأوه من مناظر الحجيج يوم عرفة، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة، وغير ذلك من وصف الكعبة والمساجد، وما يتبع ذلك من الدقة في قياس المـساحات وطـول المسافات .

ولم يغفل الرحالة تسجيل انفعالاتهم ومـشاعرهم عنـد زيـارة الأمـاكن المقدسة، أو عند القيام بالمناسك، فقد تركت الأماكن الدينية أثراً كبيراً فـي نفـسية الرحالة عند رؤيتها، أو عند الاستعداد لمغادرتها، وإلى ذلك سنشير بشكل مفـصل في الفصل الثاني من هذا البحث.

---

1 - التجاني، الرحلة، ص4 .

2 - الجحمة،رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العرب العربي، ص 24 .

وتأتي رحلة ابن عربي[1] من الرحلات ذوات الدوافع الدينية، فقد صرح في بداية رحلته إلى أن هدفه زيارة بيت المقدس، والبحث عن أهل الوجود والتحقيـق، وهم كبار المتصوفة الذين أفنوا حياتهم في العرفان[2]، حيث يقول :"خرجت من بلاد الأندلس، أريد بيت المقدس، وسرت على الطريق، أبحث عن أهل الوجود والتحقيق، رجاء أن أُبرز في صدر ذلك الفريق "[3]، فالطريق الذي يسعى إليه ليس هو طريق المتصوفة الكبار فحسب، بل يروم التفوق على أهل الوجود والتحقيق وذلك بأن يقف على معارفهم ومجاهداتهم ويستولي على أساليبهم[4] بقوله :"رجاء أن أُبرز في صدر ذلك الفريق " [5]، فرغبة التفوق والتميز لا تتوقف على هذا القول في رأيي، بل إن من يقرأ الرحلة يجد في طياتها إشارات كثيرة فيها دلائل واضحة جداً لمحاولة ابـن عربي التفرد عن البشر، من مثل قوله :"يقول السالك :ثم أنشأني نشأة أخرى، وتلى :"ثم أرسلنا رسلنا تترى"[6]، وقوله :"وطلبت الخلافة على الأنام "[7]، " قـال : هـي

1 - هو أبو عبد ا محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي، ولـد فـي مرسية عام 560هـ، تعلم القرآن والسنة وله من العمر ثماني سنوات، وبدأ رحلاته خارج حدود الأندلس في أفريقيا حيث تجول كثيراً ثم عاد إلى الأندلس، ثم رحل رحلته الثانية إلى المـشرق عام 597هـ، وقد زار أثناء ذلك القاهرة وبغداد ومكة المكرمة، حيث التقى شخصيات بارزة من المتصوفة، وعندما بلغ الستين من العمر استقر في دمشق منذ عام 620هـ إلـى وفاتـه عـام 638هـ . انظر : ابن عربي،أبو عبد ا محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحـاتمي الأندلسي المتوفى عام (638هـ)، الإسراء إلى مقام الأسرى، تحقيـق سـعاد الحكـيم، دنـدرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988م، ص11-18 .

2 - سرحان، هيثم، رحلة محيي الدين ابن عربي "رموز المكان وتمـثلات الـسرد "، مجلـة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد67، صيف –خريف 2005م، ص117 .

3 - ابن عربي،الإسراء إلى مقام الأسرى، ص57 .

4 - سرحان، رحلة محيي الدين ابن عربي "رموز المكان وتمثلات السرد "، ص118.

5 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص57 .

6 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص128.انظر، سورة المؤمنون، آية 44 .

7 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص136.

لمن سد عن الأنام الخَلة، قلت : أنا ذاك "[1]، كما أنه أشار إلـى مناجاتـه اللـوح الأعلى وكشف له بعد ذلك عن الغيب [2].

2.2.1 الدافع العلمي :

دعا ا عز وجل إلى طلب العلم، وفضل العلماء على غيرهم من البشر في آيات عديدة منها قوله تعالى :" قُلْ هلْ يستَوِي الذِين يعلَمون والذِين لَا يعلَمون ۗ إِنمـا يتَذَكر أُولُو الْأَلْبابِ "[3]، فالعلماء يمتازون عن غيرهم بما منحهم ا من عقل نيـر، وفهم ثاقب، وعلم نافع، وهم ليسوا كغيرهم ممن لا علم عنده ولا معرفة لديه، لـذلك كان لهم قدر كبير ومنزلة رفيعة، كما أكدت على ذلك الآية الكريمة :" يرفَعِ اللـه الذِين آمنُوا مِنْكُم والذِين أُوتُوا الْعِلْم درجاتٍ ۚ والله بِما تَعملُون خَبِير "[4].

كما حث الرسول صلى ا عليه وسلم على طلب العلم في مواطن كثيـرة، منها قوله صلى ا عليه وسلم : " من سلك طريقا يبتغي فيه علمـاً، سـلك ا بـه طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالـب العلـم، وإن العـالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب"[5]، وقوله صلى ا عليه وسلم أيضاً : " طلب العلم فريضة على كل مسلم "[6] .

وقد كان لهذه الآيات والأحاديث الشريفة أثرها في حث الرحالة على طلـب العلم وتحمل المصاعب ومشقة السفر من أجل الحصول عليه، وقد اكتسب المـشرق

---

1 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص136 .

2 - انظر : ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص143 .

3 - سورة الزمر، آية 9.

4 - سورة المجادلة، آية 11 .

5 - القزويني، أبو عبد ا محمد يزيد، ت(275هـ) سنن ابن ماجه، طبعة مخرجة الأحاديـث على باقي الكتب الستة، تخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003م، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم 223 .

6 - القزويني ،سنن ابن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم 220 .

العربي خصوصية عن طريق الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين قدموا إلى المشرق لأداء الفروض والواجبات الدينية، حيث مثّل المشرق العربي مجمعاً علمياً هاماً تواقد عليه العلماء لتحقيق الأهداف الدينية والعلمية والاستكشافية، ثم العودة إلى بلادهم لتدريس العلوم والمعارف التي حصلوها [1].

وقد أظهر رحالة الغرب الإسلامي اهتماماً كبيراً بأخذ العلم والحصول على الإجازات على أيدي أكبر المشايخ وأشهرهم، فكان طلب العلم من بلاد المشرق أمراً متعارفاً عليه لدى طلاب العلم من الأندلس المغرب، وذلك لأن بلاد المشرق هي منبع الرسالة النبوية، وفيها المذاهب الإسلامية الأربعة، عدا عن وجود كبار العلماء، وعند تصفحنا كتب التراجم الأندلسية نجد أسماء عدد كبير من العلماء الذين رحلوا إلى بلاد المشرق في سبيل تحصيل العلم والتمكن من الجوانب العلمية، فابن خلدون يؤكد في مقدمته على أهمية الرحلة في طلب العلم حيث يقول :"فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[2] .

وفي هذا النمط من الرحلة يحتل التعريف بالأساتذة والعلماء ودور العلم المنزلة الأولى لدى الرحالة،" فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"[3]،فجاء توثيق أسماء الشيوخ حتى تكون شاهداً على توثيق المعلومات"[4]. كما نجد أن بعض الرحالة اتجهوا اتجاها آخر وهو الترجمة لحياته الشخصية، والتعريف بنفسه وآبائه وأجداده ثم ذكر من درس على أيديهم، أو التقى بهم من العلماء .

ونجد أن القلصادي يدون رحلته لتقديم الامتنان والشكر لهؤلاء العلماء الذين تلقى على أيديهم العلم، من خلال التعريف بهم وذكر فضائلهم، وهذا هو يقول

---

1 -انظر : سرحان، رحلة محيي الدين ابن عربي، ص115 .

2 -ابن خلدون، المقدمة، ص 745

3- ابن خلدون، المقدمة، ص745 .

4 -العمد، هاني صبحي، كتب البرامج والفهارس الأندلسية (دراسة وتحليل)، الجامعة الأردنية، عمان، ط1، 1993م، ص37 .

مصرحاً بهذا الهدف: " فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون معرفا بأشياخي مـن أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي ا عنهم وأرضاهم، وبرحلتي من بسطة مـسقط رأسي، وموضع أول أنفاسي، مقر الألفة والأنس، من جزيـرة الأنـدلس ....." [1]، وقد جاءت رغبة الطلبة والمريدين والأتباع ومن شاكلهم سبباً مقنعا للقيام بمثل هـذه الأعمال، كما وجدت هذه الدوافع ميلاً في نفوس المؤلفين الذين سرعان ما استجابوا للطلب أو النداء أو الرجاء، فقاموا بمهمة التأليف والتصنيف [2]، وقد أشار ابن جابر الوادي آشي [3] (ت749هـ)إلى أن رغبة المريدين وطلبة العلم هـي الـدافع الأول لتدوين رحلته حيث يقول:" أما بعد، فإن بعض أرباب الرواية، ذا الشغف بها والعناية أحب أن أقيد له أسماء من لقيته من شيوخي الجلة، زمن مقامي بتونس وفي زمنـي الرحلة، وأسمي له ما أخذته عنهم كائناً ما كان، على حسب الوسع والإمكان، ومـن أجازني ممن لقيته وأخذت عنه أو ممن لم آخذ عنه، ...فأجبته لما سأل، وجعلته لـه في جزأين كما أمل "[4]

---

1 -القلصادي،الرحلة، ص82 .

2 - انظر: العمد، كتب البرامج والفهارس الأندلسية، ص37 .

3 - هو شمس الدين أبو عبد ا محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي، رحـل إلـى المشرق فزار بيت المقدس ومصر وبلاد الشام و الحرمين عام (722 هـ)،ثم توجه في رحلـة أخرى إلى الأندلس،ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم ابن لسان الـدين بـن الخطيـب، وابـن خلدون،وقد وصفه ابن خلون بأنه إمام المحدثين بتونس، توفي بالطاعون الجارف الذي اجتـاح البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط سنة (749هـ)، انظر : ابن جابر الوادي آشي،شمس الدين محمد بن جابر التونسي، (ت749هـ) برنامج ابن جابر الوادي آشي(2ج)، تقديم تحقيـق محمد الحبيب الهيلة،البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمـة،1981م، ص 10 - 25.

4 - ابن جابر الوادي آشي، برنامج ابن جابر الوادي آشي، ص 41 .

وعلى الرغم من أن الحج الهدف الرئيس لرحلة العبدري[1]، فإنه قد اهـتم بحال العلم والعلماء في كل بلد مر به، ومن ذلك أنه بعد أن وصف أحوال تلمـسان وذكر جمال مناظرها وفضائلها، قال بعد أن استوعب بعض أوصافها: " أما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدحم على الثماد، فما ظنـك بهـا وهي رسم عفا طلله، ومنهل جف وشله[2] " [3]، ويقول في موضع آخر:" وليس منها فقيهان مشاركان في العلم .." [4]، ويقول في مدينة مليانة[5]:" وما بقي من له بـالعلم أدنى عناية " [6].

ولكن عندما يصل إلى تونس فإنه يعجب بحال العلم والعلماء ويمتدح حـال أهلها، حيث يقول: " وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائماً، ولا مورد من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله وارداً وقائماً، وبها من أهل الرواية والدراية عدد وافر يجلو الفخار بهم عن محيا سافر" [7]، أما طرابلس في نظره " فهي للجهل

1 - هو أبو عبد ا محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري، حاد الطبع، أصـله من بلنسية، وكان من سكان حاحة في المغرب العربي، خرج منها عام 688هـ حاجاً، تـوفي نحو (700هـ) . انظر ترجمته، المقري، نفح الطيب، مج 2 ص 483، ص589، و الزركلي، الأعلام، مج7 ص 32 .

2- الوشَل : بالتحريك الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ويقطر منه قليلا قليلا، لا يتـصل قطره، والجمع أوشال . انظر : ابن منظور ،أبو الفضل جمـال الـدين محمـد بـن مكـرم ، (ت630هـ)، لسان العرب ، تحقيق عبد ا علي الكبير ونخبة من المحققين ، دار المعارف ، بيروت ،(د.ت)، مادة : وشل .

3 - العبدري،أبو عبد ا محمد بن محمد العبدري الحيحي ،(ت700هـ) الرحلـة المغربيـة، تحقيق محمد الفاسي ،وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم ،الرباط ، 1986م، ص11

4 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 13 .

5 - مدينة من أرض المغرب بين تنس والمسيلة، بالقرب من نهر شلف، مدينة رومية فيها آثار، وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء . انظر : الحميري، أبو عبدا محمد عبد المنعم ت(727هـ تقريباً)،الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس،مكتبة لبنان –بيروت، ط2،1984م، ص 547 .

6- العبدري، الرحلة المغربية، ص 24 .

7- العبدري، الرحلة المغربية، ص 42 .

مأتم، وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهراً وباطناً وذمها الخبير بها سائراً وقاطناً "[1]، وكذلك يقول في مدينة غزة :"قد عريت من عـالم أو مـتعلم وأقفـرت مـن فقيـه ومتكلم"[2] .

وهذا ابن رشيد الفهري السبتي[3]، يخرج من سبتة[4] بقصد الحـج، حيـث يقول :"وممن لقيناه بتونس –مقدمي عليها من بلاد المغرب برسم الوجهة الحجازية، يسر ا مرامها، وقرب لياليها وأيامها ...."[5]، إلا إنه في كل مدينة يحل بها كان حريصاً على الاتصال بعلمائها، والأخذ على أشياخها، وكان احتفاله بهذا الجانب في رحلته الطويلة مهيمناً عليه، بحيث لا تجده يصف المعالم والآثار، ولا يتحدث عـن المنازل والديار، إلا لماماً وبقدر الحاجة .[6]

ونلاحظ من خلال الدراسة المتأنية لرحلة أبي حامد الغرنـاطي أن دافعهـا الأول هو الدافع العلمي البحت، يتضح ذلك من خلال تقسيمه لفصول الرحلة ودقـة ملاحظاته، وتسجيله لكل أمر يعرض له في أثناء الرحلة، حتى الروايات على ألسنة العامة، كما يؤكد ذلك تنقله بين أهل العلم ومحبيه، حيث يقول في مقدمة رحلتـه :" ومنذ اغتربت عن المغرب الأقصى شاهدت من الأئمة الكرام ما لا يعد ولا يحصى،

---

1 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 76 .

2 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 233 .

3 -هو أبو عبدا محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، المحدث الخطيـب كبيـر مـشيخة المغرب، المبرز في علوم الرواية والإسناد، ولد بسبتة عام 657هـ، وكانت وفاته في فاس عام (721هـ) . انظر :ابن رشيد الفهري ، ت(721هـ)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبـة فـي الجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، الجزء الثاني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر –تونس، 1982م، الجزء الثاني، مقدمة المحقق، ص 25 .

4 -مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، وتقع سبتة على سبعة أجبل صـغار، وهي مدينة قديمة سكنها الأول، وفيها آثار كثيرة . انظـر : الحميـري، الـروض المعطـار، 1984م، ص303- 304 .

5 - ابن رشيد ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج2،ص 83 .

6 - انظر : ابن رشيد : ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، مقدمة المحقق، ج2 ص32.

وأولاني ا عز وجل على أيديهم من أنواع النعم والإحـسان مـا لا يقـدر علـى إحصائها لسان إنسان، جازاهم ا عني أفضل الجزاء، إنه سميع الدعاء "[1].

كما أن رحلة الإدريسي[2] " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "[3] في القرن السادس الهجري، جاءت بحثاً عن العلم والمعرفة، فقد ذكر في مقدمة مدونتـه أنـه ألّفها بطلب من روجر[4] ملك صقلية، حيث إنه " أحب أن يعرف كيفيـات بـلاده حقيقة، ويقتلها يقيناً وخبرة، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً، وفي أي إقليم هي، وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطـار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليهـا المتكلمـون، وأثبتهـا فـي الـدفاتر النـاقلون والمؤلفون"[5].

---

1 - الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي (ت565هـ)، رحلة الغرناطي تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ورحلة إلى أوروبا وآسيا، حررها وقدم لها قاسم وهـب دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي – الإمارات، ط1، 2003م، ص 22 .

2 - محمد بن محمد بن عبد ا بن إدريس الإدريسي، مؤرخ من أكابر العلماء بالجغرافية، ولد في سبتة ونشأ وتعلم في قرطبة، رحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية . انظر ترجمته فـي : الزركلي، الأعلام، م7، ص24 .

3 - الإدريسي : أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي ت(560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 2مج، عالم الكتب، بيـروت، ط1، 1989م .

4 -هو المعتز با ملك صقلية وإيطاليا وقلورية، إمام رومية الناصر للملة النصرانية، كان ملكاً على الروم، اشتهر بالعدل والحكمة، مع شجاعة النفس، وصفاء الذهن وحب العلم والعلماء، أمـا معرفته بالعلوم والرياضيات والعمليات فلا تدرك، ولا تحصر، ولقد اخترع مـن المخترعـات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة ما لم يسبقه أحد من الملوك . انظر : الإدريسي، نزهـة المشتاق، ج1 ص 6-7 .

5 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1،ص 5 .

3.2.1 الدافع الاقتصادي (التجاري):

كانت العلاقات التجارية بين الأندلس والمغرب وبلاد المشرق العربي وثيقة، حيث بذل حكام الأندلس جهوداً كبيرة في سبيل تدعيم التبادل التجاري مع المـشرق العربي[1] .وقد ظل التبادل التجاري نشطاً ومنتظماً؛ إذ كان لبعض المدن العراقيـة شهرة واسعة عند أهل الأندلس، وعرفوها بأنها مدينة صناعية وتجاريـة وملتقـى للقوافل التجارية العابرة إلى الشرق أو الغرب.[2]

وقد اهتم مجموعة من الرحالة الأندلسيين و المغاربة بالحديث عن النواحي الاقتصادية في البلدان التي زاروها ممن اتجهوا إلى المشرق بهدف التجارة والعلـم في آن واحد، ومنهم من العلماء من لم يسجلوا رحلاتهم مثل أبي عمر أحمد بن خالد الجذامي التاجر (ت 378) وهو من أهل قرطبة " رحل إلى المشرق، ودخل العراق تاجراً فسمع، وأدخل إلى الأندلس كتباً غريبة تفرد بروايتها "[3]، ومن هؤلاء العلماء أبو القاسم مسعود بن علي بن مروان، من أهل الأندلس، فقد قيل عنه أنه رحل إلـى المشرق " حاجا وتاجرا، فسمع بمصر ....." [4].

وقد كانت التجارة من أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفـة طرق التجارة البرية والبحرية، ولذلك ظهرت كتب المـسالك والممالـك، لوصـف الطرق والبلدان والمناخ[5]، مما يسهل على المسافر بعض عناء الرحلة مثل الضياع وفقدان الطريق .

---

1 - انظر :البكر، خالد بن عبد الكريم بن حمود، النشاط الاقتصادي في الأندلس فـي عـصر الإمارة، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ط1، 1993م، ص292 .

2 - انظر : البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس، ص292 - 293.

3 - ابن الفرضي،أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف الأزدي،ت(403هـ) تاريخ العلمـاء والرواة للعلم بالأندلس 2ج،عني بنشره وصححه ووقف على طبعه، عزت العطـار الحـسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1988م، ج1 ص68 .

4 -ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج2، ص131.

5 - الشوابكة، نوال عبد الرحمن، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسـع الهجري، دار المأمون للنشر، ط1، 2008م، ص47 .

ويعد بنيامين بن يونة التطيلي ت(569هـ)[1] من أهم الرحالة الأندلسيين الذين زاروا المشرق في -القرن السادس الهجري- ودونوا رحلاتهم، وكان تاجراً يهودياً تعنيه أحوال اليهود، وقد ابتدأت رحلته من تطيلة[2]، واستغرقت نحو ثماني سنوات، مر خلالها بجنوب فرنسا وايطاليا وقسنطينة ومنها عبر بحر إيجة إلى بلاد الشام ومدنها ثم الجزيرة والموصل وبغداد وبلاد إيران، والهند وجنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ومصر[3]، وقد ركّز في رحلته على أحوال اليهود في كل مدينة زارها، فذكر أعدادهم "وأوضاعهم، وطرق كسبهم، ومركزهم العلمي والاجتماعي، وعلاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها"[4] .

وقد كان جل اهتمامه منصباً على أحوال اليهود، و المراكز التجارية في الأماكن التي زارها، يقول في مدينة قيس في خليج البصرة :" أرض هذه الجزيرة شحيحة الماء، ليس فيها غير عين واحدة، وأغلب شرب أهلها من ماء المطر، وهي مركز تجاري مهم، يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن، والعنب والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر أنواع الحبوب والبقول ويأتيها تجار الهند بالعطور والتوابل، وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار"[5] .

---

1 - هو بنيامين بن يونة التطيلي النباري، جاب المدن البعيدة وسجل ما شاهده عياناً في الأمصار التي مر بها أو ما نقله عن الثقات ذوي الأمانة المعرفين لدى يهود أسبانية، كان من الثقات العارفين بالتوراة، توفي عام 596هـ على الأرجح . انظر، ابن يونة التطيلي ت(569هـ)، رحلة ابن يونة الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي، ترجمها وعلق حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد، تصدير عباس العزاوي، دار ابن زيدون، للطباعة والنشر، ط1، 1996م، ص 22 .

2 -مدينة بالأندلس، تقع في الجنوب الشرقي من مدينة سرقسطة،ويطيف بجنات تطيلة نهر كالش، وتطيلة من أكرم ثغور الأندلس تربة بجود زرعها . الحميري ، الروض المعطار، ص 133 .

3 - انظر : ابن يونة ، رحلة ابن يونة الأندلسي، ص 25 .

4 - انظر : ابن يونة ، رحلة ابن يونة الأندلسي، ص 22 .

5 - انظر : ابن يونة ، رحلة ابن يونة الأندلسي، ص 164 .

وعلى الرغم من أن التجارة لم تكن الهدف والدافع الرئيس للرحلة، فإن الرحالة يركزون في أغلب الرحلات على الناحية الاقتصادية للبلاد التي يزورونها، كذكرهم الوضع الاقتصادي والضرائب المفروضة على الشعب من قبل الحكام، فالبلوي يعرض لذكر المعاملة التي وجدها عند دخوله مصر من أخذ الأموال في غير حق، حيث يقول: "وحمِلنا بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب ورأينا العذاب، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل والكثير، والحقير والنقير، والدفتر والقمطير، والرفيع والوضيع، والغني والفقير، وفتشت الأوساط، وعم الزحام والاختلاط، وكثر الهياط والمياط، حتى خرج المخزون والموزون، وبرز المعكوم والمختوم، وعند ا تجمع الخصوم، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان، ظلماً وعدواناً وجوراً وطغياناً فاستشعرت الأسف ونسيت كل رزء سلف "[1] .

كما نلاحظ اهتمام الرحالة بوصف الأسواق ومظاهر الحياة التجارية المختلفة وما يشتهر به كل بلد من البلاد من مواد غذائية وغيرها، فهذا ابن جبير يصف لنا سوق مكة في موسم الحج، ويذكر ما فيه من أنواع الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، والأمتعة العراقية واليمانية إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية وغيرها من الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات[2].

وهذا القاسم التجيبي[3] يتحدث عن مدينة قوص في صعيد مصر :"وهي أرتب من مصر وأتقن، غزيرة المرافق، كثيرة الخلائق، يجتمع فيها الصادر والوارد من التجار، الواصلين من اليمن والهند والحبشة، المدعوين بالأكارم، ومن المصريين

1- البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، ص197 .

2 - انظر :ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 90-91 .

3- هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي السبتي، ولد في حدود 670 هـ، وقد جاء رحلته في ثلاثة مجلدات، فقد الجزء الأول والثالث، وبقي الجزء الثاني الذي بين أيدينا،انظر: التجيبي، القاسم بن يوسف السبتي، (ت730هـ)،مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1975م،المقدمة (ح-د) .

والإسكندريين وغيرهم، ويوجد فيها من بضائع الهند ما لا يكاد يوجد في غيرها من المدن المشهورة، وكان نزولنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق المكرم"[1] .

و يدل هذا دلالة واضحة على أن الرحلات- ولو لم تكن أهدافها اقتصادية وتجارية – كانت تتعرض للنواحي الاقتصادية والتجارية للبلاد التي يمر بها الرحالة، فقد كانت الأسواق وما تشتمل عليه من أصناف البضائع تلفت انتباه الرحالة فعملوا على تدوين ذلك في مدوناتهم .

4.2.1 الدافع السياسي (السفارات) :

لقد أدت الدوافع السياسية إلى ازدهار الرحلات في الأندلس وبلاد المغرب الأقصى، وكان هذا الدافع يتطور ويزدهر حسب الظروف السياسية مثل السفارة أو الصراعات السياسية التي تؤدي إلى تنقل رجال السياسة والعلماء بين الأماكن المتجاورة، فهذا ابن الخطيب يشير في بداية رحلته الموسومة ب " خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف إلى " أنه لما وقع العزم الذي وفقه الله على مصالح هذه الجزيرة والقصد المعرب عن كريم العقيدة وفضل السريرة، على تفقد بلادها وأقطارها، وتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها، رأى من قلده الله أمورها، ووكل إلى حمايته ثغورها، مولانا وعصمة ديننا ودنيانا أمير المسلمين وظل الله على العالمين أبو الحجاج ....أن يباشرها بنفسه ..." "[2]، ثم يقول :"خرجنا وصفحة الأفق بالغيم منتقبة"[3].

1 - التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص172 .

2 - ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776هـ)،**خطرة الطيف رحلات في الأندلس والمغرب،** تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر والتوزيع،أبو ظبي، و المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م . ص 32 .

3 - ابن الخطيب،خطرة الطيف، ص 33 .

وهي رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة الحجاج يوسف الأول [1]، ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة سنة 748هـ، كذلك زار ابن الخطيب بلاد المغرب الأقصى سفيراً لسلطان غرناطة في عامي 749هـ و 755هـ. [2]

وقد سعى ابن الخطيب في سفاراته إلى جمع الكلمة، وتوحيد الشمل، وإلى ذلك يشير في رحلته المعنونة بـ "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب "معللاً سبب رحلته إلى جبل هنتانه:" لم يكن همي أبقاك ا [3]، مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمن كله ربيع،والدهر مطيع سميع، إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلما حم الواقع، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، قوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا ترى في قبلة السداد

---

1 - أمير المسلمين في عهد ابن الخطيب، جمع بين اعتدال الخلق و صحة الفكر وثقوب الذهن،ونفوذ الإدراك، تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام 755هـ. انظر : ابن الخطيب، لسان الدين،ت(776هـ) الإحاطة في أخبار غرناطة، 4م، تحقيق محمد عبد ا عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1975م، م2، ص14 وما بعدها .

2 - انظر : ابن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، مقدمة المحقق، ص 14-15 .

3 - المخاطب هو عامر بن علي المكنى بأبي ثابت، شيخ هنتانه من قبائل المصادمة، تولى أحكام الشرطة بتونس في عهد السلطان أبي الحسن المريني، أنظر ترجمته في (: ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي المالكي (808هـ)، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مصححة بعناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ج2،ص 300-318)

تحريفاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند العزم مقدوح، وا يحقق السول، ويـسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيئ من قبيل هنتانة[1] القبول بفضله "[2].

ومن الرحلات السياسية رحلة ابن الحاج النميري[3] فـي القـرن الثـامن الهجري المعنونة بـ" فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة الـسعيدة إلـى قسنطينة والزاب " وقد ذكر أبو عنان المريني سلطان المغـرب أسـبابها المباشـرة وغير المباشرة، حيث ذكر أن الفتن التي اشتعلت بميلة وبجاية[4] هي التي دفعت أبا عنان إلى القيام برحلته الكبرى إلى الشرق، وأكد أنه أخّر هـذه الرحلـة لاشـتغاله بمحاربة الكفار، "وما أخرنا الحركة إلى الشرق عن إهمال، ولكنا آثرنـا الاشـتغال بجهاد الروم أولي الأيد والتمكين "[5].

ثم يتحدث مرة أخرى عن أسباب الرحلة حيث يقول: " اعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام، وتلتئم أحزابها أحسن الالتئام، وتتخلى الدواعي لجهـاد عبـدة

---

1 -هي إحدى قبائل المصامدة من الموحدين وشيخهم أبو حفص عمر بن يحيى، مـن صـحابة الإمام والاعتزاز على المصادمة، ولهم في قومهم مكان بامتناع محلهم وإطلاله على مراكش . =انظر : ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العـرب والعجـم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ص1692 .

2 - ابن الخطيب ،خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، ص 115 .

3 - هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد ا بن إبراهيم النمري المعروف بابن الحـاج الغرنـاطي (712هـ - 774 هـ) نشأ على عفاف وطهارة، وروى الحديث، شرق وحج عام (737هـ ـ)وتطوف وقيد واستكثر، ودون رحلة سفره، وقد بدأت تلك الرحلة سنة (758هـ)، انظر ابـن الحاج النمري، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد ا بن إبراهيم، (ت 774 هـ)، رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة السعيدة إلى قسنطينة والـزاب، دراسـة وإعـداد محمـد بـن شقرون،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1990، مقدمة المحقق، ص26-36 .

4 - بجاية : مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصـر بـن علناس بن حماد، وتسمى الناصرية أيضاً باسم بانيها، وهي دار مملكة تركب منها السفن وتسافر إلى جميع الجهات .انظر : الحموي، شهاب الدين أبو عبد ا يـاقوت بـن عبـد ا الحمـوي الرومي البغدادي ت(626هـ)، معجم البلدان 5م، دار صادر، بيروت، 1977م،ج1 ص 339 .

5 - ابن الحاج النمري ، رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة الـسعيدة إلـى قسنطينة والزاب، ص158.

الأصنام ...... ويستطاع السير لحج بيت ا الحرام، ويحسم داء الفتنة، وينقضي أمد المحنة " .[1]

وعلى الرغم من أن كتابة ابن خلدون لرحلته على شكل سيرة ذاتية، سعى من خلالها إلى التعريف بنفسه، وأسلافه ودورهم في الحياة السياسية[2]، فإننا يمكن أن نعدها من الرحلات السياسية، أو الرحلات التي تحمل الدوافع السياسية في طياتها، وبهذا يفسر قلة ما سجله من مشاهدات الرحالة "فهو لم يكن يترحل طلبا للرحلة في ذاتها وإنما تحت قسر الأحداث في الغالب . وكان من الممكن أن يفيض في وصف رحلاته،حيث أنه كان يروح ويجيء في ظروف تبلغ من قسوتها في بعض الأحيان أن يكون مشرداً عرضة للقتل" .[3]

فابن خلدون يصف بأساليب مباشرة أو غير مباشرة رحلة التكوين الفكري له، الأمر الذي جعل شخصيته هي " المركز الذي يضفي أهمية على ما حوله، وكل شيء لا يكتسب أهمية إلا عبر منظوره الذاتي لما يحيط به، ولهذا فأن رؤيته تكتسب أهميتها الخاصة، في تحديد مسيرة التطور الفكري له[4] .

وقد أشار حسين نصار إلى أن الهروب بسبب الاضطرابات السياسية والخوف من التعرض للقتل أو الأذى، هو الدافع الأقوى من بين الدوافع التي ساقت ابن خلدون إلى مغادرة تونس متظاهراً بنية الحج، فعندما وصل إلى مصر اتخذها مقرا له [5].

---

1 -ابن الحاج النمري ،رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب، ص185 .

2 - ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تقديم عبادة كحيلة،الشركة الدولية للطباعة، 2003م ، المقدمة ص 20 .

3 - انظر : حسين، حسني محمود ، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط3، 1983، ص 64 .

4 - إبراهيم،عبد ا ، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992م، ص 136

5 - انظر : نصار، حسين، أدب الرحلة، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1991م،ص 41 .

5.2.1 الدافع السياحي:

لقد دفعت السياحة وحب التجوال كثيراً من الرحالة إلى التنقل من أمـاكن سكناهم للتعرف على البلاد المجاورة لهم أو البعيدة عنهم، وقد وصل هـذا العـشق للتجوال إلى حد الاحتراف كما حدث مع ابن بطوطة، الذي كان دافعه فـي البدايـة دافعاً دينياً، إذ خرج في مقتبل عمره لزيارة أرض الحجاز، لكنه أمضى حياته فـي التنقل والتجول من مكان إلى آخر دون ملل أو كلل، حتى أنه زار بعـض الأمـاكن أكثر من مرة واحدة، وهذا ما نلاحظه من خلال طول رحلته وشوقه الـشديد إلـى رؤية الدنيا والناس حتى لو كان في زيارة هذه الأماكن خطر على حياته كزيارتـه لبلاد الظلمة، أو تجوله في البحار ورؤيته لأكلة لحوم البشر. [1]

ويرى حسين مؤنس أن في تغيير اتجاه رحلة ابن بطوطة، والتوجـه مـن ناحية إلى أخرى ما يؤكد أن الهدف الرئيسي هو الرحلة في ذاتها، وكل البلاد عنده سواء، فإذا كان قاصداً مصر مثلاً واتجه به المسير إلى الشام، لم يأسف لذلك أو يفقد دافعه إلى المسير، بل نجده سعيداً بهذا التغيير مقبلاً عليه[2].

ويؤكد هذا الرأي زكي حسن حيث يرى أن ابن بطوطة من أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، فحديث رحلاته الطويلة يشهد بأنه كان من المغامرين الذين لا يقـر لهم قرار، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب من الأمور [3]، ورحلاته خير شاهد على ذلك، ومن الأدلة علـى حبه للمغامرة قوله: و"من عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سـلكتها مـا أمكنني ذلك"[4] .

---

1 -ابن بطوطة ، تحفة النظار، انظر على سبيل المثال ج2 ص139، ص223 .

2 - انظر : مؤنس، حسين، ابن بطوطة ورحلاته (تحقيق ودراسة وتحليل)، دار المعارف، د ت، ص 18 .

3 - حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعـارف، القـاهرة، 1945م، ص 136 .

4 - نصار، أدب الرحلة، 45 .

لكن بعض النقاد ينفي عن هذه الرحلات تسمية " رحلات المغـامرة "؛ لأن الرحالة يعرف لماذا يتحرك ومتى يخرج وكيف يبدأ، بل ويعرف أيضاً كيف يدرك الهدف الذي يسعى إليه، ورغم ذلك فإنه لا يعرف شيئاً عن إمكانية العودة .[1]

وبناء على ما تقدم يمكننا القول إن المغاربة والأندلسيين قد وصفوا فـي مدوناتهم البلدان والأقوام، وذكروا فيها أيضاً أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد صاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، أو إصدار لأحكـام تقويميـة لمـا شاهدوه أو سمعوه[2]، كما وصفوا الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها، ولـيس من شك في أن مدونات شاهد الرؤيا أصدق قيلاً وأقوى تأثيرا ممن سمع أو قـرأ أو استنبط، [3]ويمكننا بناء على ذلك تصنيف هذه الرحلات إلى قسمين:

أولها: رحلات تم تدوينها أثناء الرحلة[4]، ومن هذا الصنف من الـرحلات رحلة العبدري، وقد كان خروجه من مسقط رأسه حاحة عام 688هـ، وبدأ في تقييد رحلته من مدينة تلمسان دون أن يشير إلى بداية تدوين الرحلة زمنياً، وهو يـصف كل الأماكن التي يمر بها، ويذكر أحوال أهلها، وقد أكثـر مـن اهتمامـه بـالعلم والحركة العلمية في المدن والبلاد التي يحل بها، يقول في ذلك: "وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان ولم يمكنني إظهارها هناك وأظهرتها بعد خروجنا منها، ووقـف عليها شيوخنا بمصر وغيرها ...وقد أكملتها والحمد منظمة على نسقها مستنة في سننها جاريا معها حسبما جرت ..." [5] .

1 - انظر: الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي، ص 40 .

2 - فهيم، أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي)، ص 17 .

3 - أحمد، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيـع، ص13 .

4 - انظر : الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي، ص 23 .

5 - العبدري،الرحلة المغربية، ص 6 .

ومن هذا النوع أيضاً رحلة ابن جبير التي بدأ بتقييدها بعد أيام بلغت اثنـين وعشرين يوماً، فقد انفصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس الثامن لـشوال، وابتدأ في التقييد يوم الجمعة الموفي لثلاثين من نفس الشهر [1].

ثانيها: رحلات تم تدوينها بعد انقضاء الرحلة إما بصفة جزئية أو كلية، لأن أصحابها لم يدونوا ما شاهدوه أثناء رحلاتهم، أو أن ما دونوه قد تعرض للضياع[2]، كما حدث مع ابن بطوطة، حيث قام بتدوين هذه الرحلة محمد بن محمد بن جـزي الكلبي[3]، بأمر من الخلافة الفاسية، يقول الكلبي في ذلك: " وصدر الأمر العـالي لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بـن جزي الكلبي، أعانه ا على خدمتهم، وأوزعه شكر نعمتهم، أن يضم أطـراف مـا أملاه الشيخ أبو عبد ا من ذلك مشتملا في تصنيف يكون على فوائـده مـشتملا، ولنيل مقاصده مكملا، متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه" [4].

ولم يدون أبو حامد الغرناطي الرحلة منذ بداية انطلاقته، فقد بـدأ بتأليفهـا عندما وصل إلى الموصل وذلك بطلب من أبي حفص عمر بن محمد أحـد الزهـاد الذين التقى بهم الغرناطي في الموصل، يقول في ذلك: " ولم يزل أيـده ا يحثنـي كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته في الأسفار من عجائب البلدان والبحار، وما صح عندي من نَقَلة الأخبار والثقات الأخيار، فأجبته إلى ذلك وإن لم أكن هنالك لعذوب الفطن، وضيق العطن، وبعد الأهل والوطن ......" [5].

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 17 .

2 - انظر : الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي، ص 23 .

3 -محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي،شاعر من كتاب الدواوين السلطانية،أندلسي، مـن أهل غرناطة،ولد فيها وفاق بشعره ونثره على حداثة سنه، استكتبه امير المسلمين أبو الحجـاج يوسف ابن الأحمر، ثم ضربه بالسياط من غير ذنب، ففارقه وانتقل إلى فاس وحظي عند ملكها المتوكل على ا أبي عنان المريني، كتب رحلة ابن بطوطة عام 756هـ، توفي فـي فـاس . انظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام، م7، ص 37 .

4 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، المقدمة ص 10 .

5 - الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص23 .

3.1 الامتداد في الأزمنة والأمكنة:

يمكننا تحديد خط سير الرحلات الأندلسية والمغربية زمنياً منذ بدايات القرن الخامس الهجري بالرحالة العذري[1] المتوفى عـام (478هـ ـ) وصـولاً إلـى القلصادي في نهاية القرن التاسع الهجري ت (891هـ) وقد "اتخذ الأدب الجغرافي في بداياته صبغة محلية وقلما كان يخرج عن البلاد التي ظهر فيها، كما أنه لم يبرز إلى الوجود مصنفات نالت انتشارا عاما"[2]، وهذا ما نجده عند ابن عبد البر[3] وهو أول محدث وجغرافي، رحل عن وطنه قرطبة، فجال بغرب الأندلس، ثم تحول منها إلى شرقها، فتردد فيه ما بين دانية وبلنسية وشاطبة [4]، و له رسالة صـغيرة فـي عشرين صفحة تقريباً بعنوان " القصد والأمم في التعريف بأصول أنـساب العـرب

---

1 -هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري، ينتسب إلى قبيلة عذره،رحل مع أبويه إلـى المشرق عام 407هـ، جاور مع أهله أعواماً، واشتغل طوال فترة إقامته في مكة بالسماع علـى أهل الحجاز، كانت ولادته عام 393هـ، أما وفاته ففي عام (478هـ)، وقد دفن فـي المريـة التي ينتسب إليها . انظر ترجمته : العذري، أحمد بن عمر بن أنس العذري المعـروف بـابن الدلائي ت (478هـ)، نصوص عن الأندلس (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبـستان فـي غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) تحقيق عبد العزيز الأهـواني، منـشورات معهـد الدراسات الإسلامية، مدريد . 1965م، مقدمة المحقق، ص أ- ج

2 - كراتشكوفسكي، اغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسـية صـلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1987م، ص 293 .

3 - هو أبو عمر بن عبد البر يوسف بن عبد ا بن محمد بن عبد البر النمري الحـافظ شـيخ علماء الأندلس، اشتهر بعلم النسب والأخبار، له العديد من المؤلفات منها على سبيل المثال كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد وهو عشرون مجلدا، وكتاب الاسـتيعاب لأسـماء الصحابة، وكتاب أسماء المعروفين بالكنى وغيرها . انظر : ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (463هـ)، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ومن أول من تكلم العربية من الأمم، ويليه من تأليفه الإنباه على قبائل الرواة، عنيـت بنـشرها مكتبة القدسي لصاحبها حسام الدين القدسي، مطبعة السعادة – القـاهرة، 1350هـ، مقدمـة المحقق ص5-6 .

4 - انظر: ابن عبد البر، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العـرب والعجـم، مقدمـة المحقق، ص 5 .

والعجم ومن أول من تكلم العربية من الأمم " تتحدث في أصـول العـرب والعجـم وأنسابهم منذ بداية الخليقة، إذ تحدث في بداية الرسالة عن أولاد نوح سام وحـام ويافث، حيث يذكر أن سام أبو العرب، وحام أبو القبط والسودان والبربر الـسودان، ويافث أبو الترك والصقالبة والروم، ثم أورد جميع الأقوال التي عرضت له حـول أنساب العرب والعجم[1]، وقد جاءت في حوالي أربعين صفحة بعد الطباعـة، وقـد أشار كراتشوفسكي خطأ إلى أن رسالته جاءت محاولة لتفسير الأحاديـث الـشريفة تفسيراً جغرافياً [2] .

وقد جاءت الرحلات الأندلسية والمغربية في شكلين مـن حيـث الامتـداد المكاني، إذ جاء امتداد بعض الرحلات داخل الأندلس والمغرب فقط، ومن الأمثلـة على ذلك رحلة التجاني التي امتدت من تونس إلى طرابلس في رحلة قصيرة من حيث المكان، وقد استمرت هذه الرحلة من عام 706هـ - 708هـ ـ فـي القـرن الثامن الهجري .

من أهم خصائص رحلة التجاني أنها تبسط لمطالعها أخبار المدن والقـرى الصغيرة التي كان يمر بها دون كلل من ذكر الأحداث التي شهدتها تلك الأمـاكن وتلك التي كانت زمن الرحلة، كل واحدة بانفرادها، مع التعريف بالنابغين من أبنائها من فقهاء، وقواد، وأدباء قدامى ومعاصرين، ثم أنها لا تقتصر على وصف المـدن التي يجتازها بما فيها من معاهد ومعالم ذات قيمة وشهرة، بل تبين أسـماء البلـدان والنواحي، ومن يسكنها من القبائل، وما يتفرع عن كل قبيلة من بطون وأفخاذ مـن البدو الرحل، فيميز بين أصولها وفروعها، وينسب كلاً منها، إلى أن ينتهـي إلـى مشهور الأصل الجامع .

1 - انظر: ابن عبد البر، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، ص9-20.
2 - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 294 .

وهكذا يزور التجاني الساحل التونسي الزاخر بالعمران قديماً وحديثاً، ويمر بصفاقص، ثم ينزل إلى الجنوب ناحية قابس[1] وجزيرة جربة[2] فيعرفهـا أحـسن تعريف، متعرضاً للعقائد والعادات المحلية الشاذة مثل وصف طريقة دفن الأمـوات بقرية(المقدمين) بجبال مطماطة[3]، وهي من تقاليد قدماء البربر، وتلفـت انتباهـه العادات الغريبة، كعادة أهل توزر من أكل لحوم الكلاب، يقول التجـاني " ولـم أر منهم إلا مقراً بأكلها مستطيباً للحمها " [4]، ثم يدخل الواحـات الجنوبيـة بقـسميها الشرقي (مطماطة ونفزاوة[5])، والغربي (بلاد الجريد)[6]، ثـم يجـوز التـراب الطرابلسي ويزور منازله الساحلية، ويقيم بمدينة طرابلس مدة يتصل فيها بمن هـو متصف بالعلم، ويحضر مجالس بعض محدثيها، وبعد فترة من الزمن يسافر (الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني)- كبير الدولة وشيخ الموحدين -إلى المشرق، فيفارقه التجاني عائداً إلى وطنه عن الطريق التي تربط إفريقية بالمشرق، ويعود إلى وصف

---

1 - مدينة من بلاد أفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل، وتعد من البلاد الجريدية، وبينها وبين طرابلس ثمانية أيام، ولها حصن حصين و أرباض واسعة، وهي مدينة بحرية صحراوية، لأن الصحراء منها قريبة، انظر : الحميري، الروض المعطار،ص 450 .

2- جزيرة في بحر افريقية أقرب بلادها إلى قابس. انظر: الحميري، الـروض المعطـار، ص 158 .

3 -مدينة بالقرب من مدينة فاس بالمغرب على نهر ملوية، وهي مدينة كبيـرة كثيـرة الـزرع والضرع، الحميري، الروض المعطار، ص543 .

4 - التجاني، الرحلة ص 160 .

5- بينها وبين القيروان ستة أيام، وهي على نهر كثيرة النخل والثمار، وحولها عيـون كثيـرة، وبها أرض سواخة، وسباخ لا يهتدى للطريق إليها إلا بخشب، وقد نصبت فـي دهـس يـشبه الصابون في الرطوبة، فمن أخطأ طريق تلك الخشب المنصوبة، هلك في تلك السباخ . انظـر: الحميري، الروض المعطار، ص 578 .

6 - بلاد الجريد، وتسمى الجريد، وهي مقاطعة في القسم الجنوبي للمملكة التونسية . انظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 231 .

ما مر به على غير الطريق الأولى إلى أن يبلغ في آخر ترحالـه حـضرة تـونس عاصمة البلاد وقصبتها الشامخة من حيث ابتدأ الرحلة .[1]

ومن الرحلات الداخلية رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي[2]، الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وكان تلميذاً للعذري وابن عبد البر، وعمـل بعـد إتمـام دراسته في قرطبة وزيراً لأمير المرية المعتصم بن صمادح ت (487هـ)، كمـا قام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير المعتمد بن عباد، وبعد هزيمة ابن عباد علـى أيدي المرابطين سنة 484هـ، رجع إلى قرطبة وظل يزاول نشاطه الأدبي بها إلى وفاته عام 487هـ، ورغم أنه لم يغادر الأندلس فقد ترك لنا مصنفين في الجغرافيـا تمتعا بشهرة عريضة[3] أحدهما " المسالك والممالك "، وكل ما تبقى منه هو أوصاف إفريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان نواحي بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا.[4]

أما المصنف الثاني الذي وضعه البكري فهو كتاب "معجم ما استعجم مـن أسماء البلاد والمواضع "[5]،وهو معجم لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب وما بها من المعالم والمشاهد، والبلدان والمعاهد، ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانهـا،

---

1 - انظر التجاني، الرحلة، مقدمة المحقق، ص مح - ن .

2 -أبو عبيد البكري، هو عبدا بن عبد العزيز البكري الأندلسي، مؤرخ جغرافي ثقة، علامة بالأدب، قال الصفدي :" كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته ". الزركلـي، الأعـلام ج4 ص 98.

3 - انظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 297 .

4 -انظر: البكري، عبد ا بن عبد العزيز، أبو عبيد البكري (ت487هـ)، المغرب في ذكـر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القـاهرة ص1.

5 - البكري، عبد ا بن عبد العزيز، أبو عبيد البكري الأندلسي ت(487هـ)، معجـم مـا استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 4 أجزاء، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققـه وضـبطه مصطفى السقا، عالم الكتب – بيروت، 1945م .

ويذكر أيامها ووقائعها وأنسابها وعشائرها[1]، حيث يقول المؤلف في مقدمة الكتـاب :"هذا كتاب ذكرت فيه، إن شاء ا ، جملة ما ورد في الحديث والأخبار، والتـواريخ والأشعار، من المنازل والديار، والقرى والأمـصار، والجبـال والآثـار، والميـاه والآبار، والدارات والحرار، منسوبة محددة ومبوبة، على حروف المعجم مقيدة "[2].

وهدف البكري من هذا المعجم ضبط أسماء البلدان وتـصحيحها، لا جمـع الأخبار؛ ولذلك قل تعرضه لما يتعرض له الجغرافي المتخصص [3].

ومن الرحلات التي لم يغادر أصحابها الأندلس والمغرب رحلة لسان الـدين ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري " خطرة الطيـف رحـلات فـي المغـرب والأندلس "[4]، وهي رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة الحجـاج يوسـف الأول، ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة سنة 748هـ، كذلك زار ابن الخطيب بلاد المغرب الأقصى سفيراً لسلطان غرناطة فـي عـامي 749هـ و755هـ، ثم التجأ إليها مرة ثالثة عندما نفي مع سلطانه المخلوع محمـد بن يوسف بن نصر " الغني با **عام** 760 هـ، وقد استمرت مدة النفي ما يقـرب من الثلاث سنوات عاد بعدها ابن الخطيب مع سلطانه إلى مقر حكمه مرة أخرى[5].

وقد جاءت رحلاته في أربع رسائل، وهي مضمنة في كتاب واحد بعنوان " خطرة الطيف رحلات في الأندلس والمغرب "[6] :

---

1 - انظر: البكري، معجم ما استعجم من أسماء الـبلاد والمواضـع، مقدمـة المحقـق، ج1 ص(ب-د –هـ) .

2 - البكري، معجم ما استعجم، ص 1 .

3- انظر : البكري، معجم ما استعجم، مقدمة المحقق، ج1 ص(هـ)

4-انظر : ابن الخطيب، لسان الدين، (776هـ)،خطرة الطيف في رحـلات فـي الأنـدلس والمغرب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنـشر والتوزيـع،و المؤسـسة العربيـة للدراسات والنشر،ط1 ، 2003م.

5 -انظر : ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، مقدمـة المحقـق، ص 14-15 .

6 - انظر: ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس .

1- خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.[1]

2- مفاخرات مالقة وسلا .[2]

3- معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار [3].

4- رحلته التي دونها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.[4]

ونص الرحلة الأولى (خطرة الطيف)، يشير إلى خروج الركب السلطاني من العاصمة غرناطة في يوم الأحد 17 محرم عام 748هـ، تتقدمه الألوية والبنود الحمراء شعار دولة بني الأحمر، ويصل الركب إلى مدينة وادي آش في شمال شرق غرناطة، ثم تواصل الرحلة سيرها شرقا مارة ببعض المدن الهامة مثل بسطة وبرشانة، ويشير ابن الخطيب إلى أن هذه المدن كانت تعاني قحطاً شديداً نتيجة لغارات الأعداء وسيول الأمطار التي اجتاحت أراضيها[5].

ثم يواصل الركب السلطاني سيره إلى أن يبلغ أقصى الحدود الشرقية وهي مدينة بيرة، ثم يعود المرتحلون أدراجهم مارين بثغر المرية ومرشانة وفينانة ثم وادي آش وصولاً إلى غرناطة. [6]

أما الرسالة الثانية التي ألفها ابن الخطيب في هذا الموضوع أيضاً، فهي رسالته المعروفة باسم(مفاخرات مالقة وسلا)، وهي مفاضلة بين المدينة الأندلسية وأختها المغربية في مختلف النواحي الاقتصادية والجغرافية، ويلاحظ " أن ابن الخطيب رغم حبه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته، إلا أن شعوره الوطني جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات، ويتحيز إلى المدينة الأندلسية مالقة، فيجعلها المفضلة على طول الخط"[7] .

1 - انظر: ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، ص31-56 .

2 - ابن الخطيب ، خطرة الطيف ، ص 57-65 .

3- نفسه : ص 67 -111 .

4 -نفسه : ص113 – 149 .

5 - نفسه، مقدمة المحقق، ص 16-17 .

6 -نفسه، ص 17 .

7 - نفسه، مقدمة المحقق، ص19 .

أما الرسالة الثالثة التي كتبها ابن الخطيب عن مـشاهداته، فهـي مقامتـه المعروفة باسم "معيار الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار"، وهي عبـارة عـن وصف لأهم مدن المغرب الأقصى مع وصف أربع وثلاثين مدينـة مـن مملكـة غرناطة، ويتخال هذا وذاك ذكر محاسن كل مدينة وعيوبها.[1]

أما الرحلة الرابعة فقد دونها ابن الخطيب في كتابه "نفاضة الجـراب فـي علالة الاغتراب"[2] .

أما ثاني أشكال الرحلة الأندلسية والمغربية فهو النمط الذي تجـاوز هـذه الأمكنة باتجاه المشرق أو بلاد الهند والصين و أوروبا، ويمثل هـذا الـنمط بقيـة الرحلات الأندلسية والمغربية التي تجول أصحابها في شتى بقاع الأرض مصورين معالم المكان وساكنيه والأحوال الاقتصادية والاجتماعية، والظروف السياسية التـي تعيشها البلاد .

ومن أوائل الرحالة إلى المشرق أحمد بن عمر العـذري ت(478هـ ـ)، الذي عاش في مكة حوالي تسعة أعوام، وقد اتصفت معلوماته الجغرافيـة بـالعمق لاعتمادها على المادة العلمية المدونة في الكتب، إلى جانب انطباعاته الشخـصية، وقد ترك مؤلفاً في الجغرافيا بعنوان " ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فـي غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك" ، وقد ورد لهذا الكتاب اسم آخر هـو " نظام المرجان في المسالك والممالك [3]" .

ومنهم الإدريسي: في القرن السادس الهجري، وقد امتدت رحلتـه كمـا يتضح من كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق " إلى أماكن كثيرة منها سـواحل فرنسا وإنجلترا وإفريقيا الشمالية وأسيا الصغرى، وقد زود كتابه بـسبعين خريطـة

---

1 - انظر:ابن الخطيب، خطرة الطيف، مقدمة المحقق، ص 20 .

2 - انظر :ابن الخطيب ، خطرة الطيف، ص 113 .

3 - انظر : كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 295 .

"ووصفت بأنها خرائط حقيقية تعطي للناظر إليها تصوراً واضحاً من المواضع التي تصورها "[1] .

ويؤكد بعض النقاد أن الرحلة والمعرفة المباشرة كانت هي العمود الفقـري في جغرافيته، ذلك أن الرحلة والمشاهدة العيانية هي مطلب الجهـة التـي أمـرت بتصنيف هذا الكتاب وهو الملك روجر.[2]

أما رحلة أبي حامد الغرناطي فقد جاءت القرن السادس الهجـري، وقـد سجل الغرناطي رحلته في كتابين هما " تحفة الألباب ونخبة الإعجاب " و " المعرب عن بعض عجائب المغرب "[3]،وقد اتجه في مؤلفاته "اتجاهاً خطيـراً علـى نحـو تصوير العجائب والغرائب بطريقة خرافية غير معقولة "[4]، وقد غادر إلى المشرق في حدود سنة 508 هـ في رحلة طويلة شملت نواحي المغرب الأقصى، ثم مصر والشام وبغداد التي وصلها أول مرة سنة 516هـ، وأقام فيها أربع سنوات تقريبا .

وقد اتخذ أبو حامد الغرناطي بغداد قاعدة لرحلاته التي شملت هضبة إيران وبلاد التركستان وحوض نهر الفولغا وشرق أوروبا والمجر وأماكن أخـرى، وقـد أثبت أبو حامد كثيراً من تواريخ زيارته لبعض المناطق [5] .

أما رحلة بنيامين التطيلي فقد كانت في النصف الثاني من القـرن الـسادس الهجري، إذ خرج بنيامين من مسقط رأسه تطيلة، فانحدر إلـى شـواطئ إسـبانية الشمالية الشرقية، ثم سار باتجاه سواحل فرنسا الجنوبية، ومن ثم اتجه شرقاً، وتـابع

---

1 - عوض ،محمد مؤنس أحمد ، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام فـي عـصر الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، 1995م، ص 21 .

2 - الحريري ، محمد مرسي ، الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، دار المعرفـة الجامعية، الإسكندرية، 1985م، ص 36 .

3 -انظر : الغرناطي، تحفة الألباب ونحبة الإعجاب،ص 12

4 - الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص59 .

5 - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص326 .

مسيره حتى بلغ رومية، وهي يومئذ في عز أيامها وعنفوان سؤددها وقمة سلطانها، ثم اتجه إلى اليونان وبعدها اتجه إلى القسطنطينية.[1]

ومن ثم ركب البحر وزار قبرص، وبعدها اتجه إلى الـشرق الإسـلامي، وراح يتنقل بين المدن العامرة والقرى الزاهرة في سورية ولبنان، ومنها اتجه إلـى بيت المقدس وتنقل في نواحي فلسطين، ودون ما رآه من قبور الأنبيـاء وأضـرحة الأتقياء، ومر بغور الأردن واتجه شمالا نحو بحيرة طبرية ومنهـا إلـى الفـرات بطريق تدمر وبعلبك ودمشق، وظل يتنقل بين دجلة والفرات حتى بلغ الموصل ثـم ألقى عصا الترحال في بغداد.[2]

ومن الفرات إلى جزيرة العرب ثم عاد إلى البصرة ومنها إلى خوزسـتان، حيث أطل على بلاد العجم، وزار همذان وأصبهان وشيراز وطبرستان، وبلغ الهند، انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أرض الصين، وزار جزيرة العرب الجنوبية، ومنها عبر البحر الأحمر فيبلغ أفريقية، وتتبع مجرى النيل ورحل إلى مصر وتنقـل بـين مدنها الواحدة تلو الأخرى، ثم يركب البحر في طريق العودة إلى أسبانية .[3]

و جاءت رحلة ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القـرن السابع الهجري، فقد انطلق من غرناطة في الأندلس خلال البحر متجهاً إلى إفريقيـا حيث ركب النيل إلى القاهرة، ثم صعيد مصر ووصل إلى مرفأ عيذاب على البحـر الأحمر [4]، وركب إلى جدة ثم إلى مكة وأقام فيها سنة ونصف السنة، ومر بعد ذلك بالمدينة المنورة وهو في طريقه إلى الكوفـة، وزار بغـداد وسـامراء وتكريـت فالموصل وحلب ومنها إلى دمشق ثم ميناء عكا، ثم ركب البحر إلى جزيرة صـقلية ومنها إلى الأندلس فوصل إلى غرناطة بعد أكثر من عامين.[5]

---

1 - انظر :ابن يونة، الرحلة ،مقدمة المحقق، ص 25.

2 - انظر : ابن يونة ، الرحلة ، مقدمة المحقق، ص 25

3- انظر : ابن يونة ، الرحلة، مقدمة المحقق، ص 27-28

4 -انظر : ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ص 17-28 .

5 - انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، مقدمة المحقق، ص 14 .

وهذا ابن سعيد المغربي الأندلسي في القرن السابع الهجري يتنقل في تجواله من المغرب في مختلف الأمصار، حيث بدأ رحلته مع والده من الأندلس إلى المشرق بنية الحج عام 639هـ، فمر بتونس والإسكندرية والقاهرة، ومنها انتقل إلى حلب برفقة الصاحب الكبير المحسن كمال الدين بن أبي جراده[1]، كذلك رحل ابن سعيد إلى دمشق فسمع من أبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت 665هـ [2]، ما تيسر له من اختصار تاريخ ابن عساكر[3]، وحج بعدها في عام 644هـ، ثم عاد إلى تونس عام 652هـ[4].

ويرى البعض أن ابن سعيد قد رحل إلى المشرق رحلتين،اتجه في الرحلة الأولى صوب مصر والشام والعراق وأرمينية، وتجول في تلك المناطق وذلك على مدى أكثر من عشر سنوات كاملة، وذلك قبل تأدية فريضة الحج و العودة إلى تونس، وخرج في الرحلة الثانية عام (666هـ) صوب مصر وأرمينية وإيران وتجول في تلك المناطق على مدى ثلاث سنوات. وذلك قبل أن يعاوده الحنين إلى

1-هو محمد بن هبة ا بن محمد بن أبي جرادة الحلبي، جمال الدين أبو غانم، المشهور بـابن العديم، من فضلاء النساخ، صالح زاهد، مولده ووفاته بحلب (540هـ - 628هـ)، كان ابن الأثير ممن سمع عليه الحديث، وقالفيه :" لو قال قائل إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً "، شغف بتصانيف الترمذي وجمع معظمها، وكتب بعضها بخطه . الزركلي، الأعلام، ج7 ص 130 .

2 - أبو شامه هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، أبو القاسم شهاب الدين، مؤرخ، محدث، باحث، أصله من القدس، ومولده في دمشق، وبها منشأه ووفاته،(599هـ - 665هـ) له كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية "، وذيل الروضتين، ومختصر تاريخ ابن عساكر في خمس مجلدات، وغيرها من الكتب . انظر ترجمته، الزركلي، الأعلام،ج3 ص 299 .

3 - انظر : ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى ،ت(685هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، الجزء الأول ط3، والجزء الثاني ط4، 1955م، ج2 ص 173، وانظر : المقري، نفح الطيب، ج2 ص 299.

4 - انظر : ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، ج1، مقدمة المحقق، ص 7 .

تونس فذهب إليها مرة أخرى، وقد أمضى بقية حياته فيها إلى أن وافاه القـدر عـام 685هـ[1] .

أما محمد بن رشيد الفهري الأندلسي ت(721هـ) فقد خرج من مسقط رأسه سبتة قاصداً الحج عام 683هـ، وزار بلاد المغرب العربي وتونس، ومر بـشمال إفريقيا ومصر والشام، وبعد قضاء المناسك عام (685هـ) عاد عن طريق مـصر، ومنها ركب البحر إلى طرابلس، ثم تونس حيث أقام فيها عاماً كاملاً، ثم رحل إلـى بلاد الأندلس، وبلغ سبتة عام 686هـ، ودون رحلته المسماة "ملء العيبة بما جمـع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة " [2].

ومن الرحالة الأندلسيين القاسم بن يوسف السبتي (ت730هـ)، فقد رحـل من سبتة إلى بلاد المغرب فتونس وسمع عن شيوخها، ثم اتجه إلى مـصر وسـمع أيضاً عن علمائها، توجه بعد ذلك إلى الحجاز وأدى مناسك الحج ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس وبلاد الشام، ثم العودة إلى سبتة[3] .

ويعد ابن بطوطة شيخ الرحالين في القرن الثامن الهجري حيث ولد في عام (703هـ)في طنجة، وقد بدأ رحلته التي جاب فيها مناطق كثيرة من العالم عام 725هـ، وكان هدفه في البداية من الرحلة تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى ا عليه وسلم، وقد زار خلال هذه الرحلة المشرق العربي وشمال آسيا والهند والصين، كما زار بعد عودته الأندلس وبلاد السودان، وقد تجاوزت أسـفاره "مائـة وخمسة وسبعين ألف ميل"[4]، وفي أغلب الظن أن ابن بطوطـة لـم يكـن يقـصد الترحال والسفر في بداية رحلته كما قلنا سابقاً، " ولم يدر بخلده أن عصا الترحـال

1 -انظر :ابن سعيد ،المغرب في حلى المغرب،ج1، ص7-8 .

2- انظر : ابن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة ...، مقدمة المحقـق، ج2 ص 32 .

3- التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، المقدمة (ح-خ).

4 -كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 456 .

ستلقي به في مختلف البلاد، فلم يكتب له العودة إلى وطنه إلا بعد أكثر مـن ربـع قرن" [1].

وهناك رحلة أخرى في القرن الثامن الهجري لابن الحاج الغرناطي النميري حيث جاب فيها بلاد المغرب وإفريقيا وقسنطينة وجبل أوراس وجنوب بلاد الـزاب في رحلة حربية لمقاتلة القبائل المعرضة من الأعراب في صحراء إفريقيـا وبـلاد الزاب .

أما ابن خلدون فإنه يبدأ كتابة رحلته التي يمكن لنا أن نسميها سيرته الذاتية وذلك بالحديث عن سلفه وسيرتهم، ثم يتحدث عن مولده عام 732 هــ، ونـشأته العلمية إذ كان والده مقدما في صناعة العربية، متفرغا للعلم، لكنه _ ابـن خلـدون وهو لم يزل صبيا في السابعة عشرة – يفقد أبويه في الطاعون الجـارف الـذي اجتاح أقطار البحر المتوسط[2] .

وفي سن العشرين يبدأ ابن خلدون رحلته مع الوظائف الديوانية التي تمرس بها وتمرست به، قطع خلالها أقطار المغرب العربي جميعها والأندلس أفضت بـه أحيانا إلى السجن وأحيانا أخرى كادت تفضي به إلى الموت .[3]

عمل ابن خلدون لدى سلاطين تونس والمغرب، لكنه ولظـروف سياسـية ارتحل إلى الأندلس في العام 764هـ وكان رحيله بمفرده إذ خلف أهلـه وعيالـه، وحل بغرناطة، ولكن الأحوال لم تستقر به طويلا في الأندلس، إذ دبت الغيرة بـين بعض من حاشية السلطان، فرحل إلى المغرب ثانية بطلب من أمير بجاية، ثم إلـى المشرق .

ولم تكن رحلة ابن خلدون تهدف إلى وصف الأماكن التي زارها والتعريف بها، ولكنها تهدف إلى التعريف بنسبه وأوليتهم وأماكن سكنهم، وولادتـه وشـيوخه الذين درس على أيديهم، والحوادث التي حدثت أثناء تنقلاته في تلك الأماكن .

1-كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص457 .

2- انظر : ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، المقدمة،ص20-21 .

3 - انظر : ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ، مقدمة المحقق، ص 21 .

أما العبدري فقد ابتدأت ر حلته في الخامس والعشرين من ذي القعده عـام ثمانية وثمانين وستمائة (688هـ) وكان خروجه من حاحة إلـى تلمـسان فمليانـة والجزائر وبجاية وتونس والقيروان وطرابلس فالإسكندرية والقاهرة ثم العقبة ومنها انتقل إلى بلاد الحجاز فمكة والمدينة المنورة أما في العودة فقد رجع علـى طريـق فلسطين، إلا أنه اختصر الكلام في المدن والقرى التي مر عليها في رجوعـه،وأما طريق رجوعه من مصر إلى المغرب فلم يغيره إلا أنه لما وصل إلى تلمسان لـم يقصد بلاد حاحة على طريق الصحراء، كما فعل في المسير، بل رجع على طريق الغرب مارا بفاس ومكناسة[1] .

وفي رحلة أحمد أبي عصيدة البجائي[2] ت(865هـ) في القـرن التاسـع الهجري لم يذكر تاريخ انطلاقته، وقد ذكر البجائي رحلته في كتابه (أنس الغريـب وروض الأديب)، ولكن لم يتم العثور على هذا الكتاب، إلا أنه ذكر وصفا لـه فـي كتابه (رسالة الغريب إلى الحبيب) حيث أشار إلى أن المقدمة تتضمن ذكر الرحلـة من حضرة تونس إلى الحلول بالحضرة الشريفة العظيمة النبوية مـرورا بالقـدس ومصر، كما تحدث عمن لقيه خلال الرحلة، وتحدث أيضاً عن صـديقه المـشدالي وعن انتقاله من تونس إلى مصر إلى فلسطين وطرابلس والحجاز، كما تحدث عـن مكانته في مصر، وعن بعض إنتاجه من الشعر والنثر .[3]

---

1 -مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق .، وهي مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد، وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة، يقال لها مكناسة الزيتون، حصينة مكينة في طريق المار من فاس إلى سلا، على شاطئ البحر . انظر : الحموي، ياقوت : معجم البلدان، ج5 ص 181 .

2 -هو أحمد بن أحمد البجائي المنشأ والدار، ت 865هـ، عاش في تونس والجزائر أثناء العهد الحفصي، كان زاهداً في الدنيا، انظر : البجائي، أحمد أبو عصيدة(865 هـ)،رسالة الغريـب إلى الحبيب، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد ا ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، ص89 .

3 - أبو عصيدة ، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص89 .

أما رحلة القلصادي فقد ابتدأها من بسطة مسقط رأسه وزار تلمسان وسافر إلى وهران ومنها إلى تونس وزار جزيرة جربة ثم الإسكندرية والقاهرة ثم الأماكن المقدسة بمكة والمدينة ثم العودة من نفس الطريق واستقراره بغرناطة [1].

أما بعض الرحالة فقد كانت له رحلات داخل المغرب نفـسها ورحـلات خارج الأندلس، فقد قام البلوي بثلاث رحلات، رحل أولا إلى فاس للدراسة فيها، ثم رحل ثانيا إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ثم رحل ثالثاً إلى شرق الأندلس تمتينـاً للاتصال بالعلماء وتبادل الرواية معهم .[2]

وقد كانت رحلته الثانية التي رحل فيها إلى المشرق وألف فيها كتاب " تـاج المفرق في تحلية علماء المشرق "[3] من أطول رحلاته حيث خرج من قتورية سنة 736 هـ، فزار تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس ثم مالطا وقبرص والإسكندرية فالقاهرة، ثم زار غزة فمدينة الخليل وبيت المقدس فالكرك فتبوك فالمدينة المنورة ثم مكة، ثم قفل عائداً وزار في عودته عسقلان والقدس وبعض مدن فلسطين ثم رجع إلى الإسكندرية وغادرها في أول شوال سنة 738هـ، مـاراً بتـونس والقـسنطينة وبجاية وجبل ميزاب والجزائر وتلمسان ثم المرية وبلغ أخيرا إلى قتورية مـسقط رأسه .[4]

1- انظر : القلصادي، الرحلة، ص 32- 37 .

2 -انظر : البلوي، تاج المفرق، ج1، ص45 .

3 - البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،53 .

4 - انظر: البلوي ، تاج المفرق ، ص 53 .

الفصل الثاني

ثنائية الأمكنة المتضادة

الرحلة بمفهومها العام –فعلية أو متخيلة – هي التنقل من مكان إلى آخر، والانتقال والرحيل هو العنصر الأساسي والدعامة التي تؤطر الأحداث والأفعال[1]، فالنص الرحلي يأخذ ويتغذى مضمونه من خلال هذا العنصر؛ لأن الدهشة والاستغراب هما ما يحرك الذات الإنسانية للتعبير عن ذلك وتوثيقه للآخرين .

وتدور أحداث الرحلة في المكان، المكان الذي احتل في الدراسات الفلسفية والأدبية حيزاً لا بأس به، ويرجع هذا الاهتمام لكون المكان دعامة أساسية لكل تصور إنساني، فلا يمكن أن نتخيل شيئاً ما دون وجوده في مكان، فهو منطلق لكل دراسة تريد أن تدرك أبعاد النص وخلفياته النفسية والاجتماعية، كما أنه منطلق كل دراسة تسعى لأن تكون جادة، وقريبة من الصواب فكما أن تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكل بعدا جمالياً من أبعاد النص فإن معايشة الإنسان للمكان وتآلفه معه أو معاداته له، يشكل الخلفية التي يرتكز عليها لكل تصور أو توجه أو تشكيل فني[2].

ويمكن تقسيم الأمكنة في النص الرحلي على شكل ثنائيات متضادة، إذ عبر الرحالة البحر وأقاموا فيه أياماً وشهوراً، كما نزلوا في البر وساروا في المدن والصحراء، وعبروا عن آرائهم في أمكنة الأنا وأمكنة الآخر، وكانت لديهم عواطف جياشة تجاه المكان المقدس وعواطف مضادة تجاه المكان المدنس، وجاء تعبيرهم عن ذلك من خلال عبارات الدعاء للمكان بالحفظ أو تمني عودته للإسلام والمسلمين أو الدعاء على المكان وذم أهله وقذفهم بالألفاظ المنبوذة[3] .

---

1 - انظر : حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 218 .

2 - انظر : عقاق، قادة، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر" دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص260.

3 - انظر على سبيل المثال : ابن جبير، تذكرة بالإخبار ص52،ص 135،ص 237، ص238، والعبدري، الرحلة المغربية، ص8، ص77، ص 233 .

ولا يقتصر التضاد المكاني على ما سبق ذكره، بل نجد الحديث عن الأمكنة الواقعية الموجودة في الحقيقة على الكرة الأرضية، كما نجد وصفاً لأمكنة غير موجودة في الحقيقة[1]، أو موجودة ولكن من الصعب الوصول إليها[2]، وقد أعطاها الرحالة وصفاً كاملاً كأنهم يرونها حقيقة على الرغم من أن هذه الأمكنة موجودة في أخيلتهم، وقد أطلق النقاد على هذه الأمكنة تسمية الأمكنة الخيالية.

1.2 أمكنة البر والبحر

البحر في الرحلات هو المكان المتحرك، ويرتبط البحر في الرحلات بالمحن العنيفة التي يلاقيها الرحالة في أثناء عبوره، مما يجعله " يبدع في وصف الصراع وهو يواجه الرياح والعواصف على سفينة جارية فوق بحر متقلب "[3] .

لقد تلازمت العلاقة بين البحر والموت، وهذه المتلازمة كانت مصدراً لكل الصور الشعرية، وكان البحر مرتبطاً مباشرة بفقدان الأهل والأحبة وفقدان الراحة، "فالبحر كالحرب مرشح المبحرون فيه للموت "[4].

وللبحر صور عديدة ومتناقضة في ذاكرة الإنسان بشكل عام، فالبحر يحمل صفات الغضب، والطيش، والقتل، والغدر، والشراسة، وفي الجهة المقابلة فإن البحر يحمل سمات مناقضة تماماً منها الهدوء، والجمال إذ إنه يضم بين أحشائه المحار واللؤلؤ، كما أن رؤيته تريح النفس، فالبحر يحمل ملامح النفس الإنسانية من الهدوء والغضب والحنان والغدر، وبالرغم من أن الإنسان يفضل الاستمتاع برؤيته وركوبه، فإنه يبقى في حالة توجس وقلق دائم عند ذلك .

---

1 - انظر على سبيل المثال، الغرناطي، الرحلة، وصف الغرناطي لمدينة النحاس ص 44، ووصف بحيرة الجن ص 47 .

2 - انظر : ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، فضاء الرحلة السموات السبع .

3 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 224 .

4 - المحادين، عبد الحميد، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الثقافة والتراث الوطني، ط1، 2001م، ص 79.

ويعد البلوي من الرحالة الذين أجادوا في وصف أهوال البحر، حيث يقول في وصف عاصفة مرت به أثناء ركوب البحر:" فلما توسطنا المواسط اشتدت الريح المختلفة، وعظمت الأمواج المضطربة، وأتت الأنواء من كل جانب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فأظلم الجو وتراكم النوء،.... واهتـاج البحـر اهتياجاً، وأربدت الأفق سواداً، وانتشرت الرياح عصوفاً، وتدفقت الأمواج، وعظـم الارتجاج، وهمى الغمام، واستشعر الحمام، وأرسلت شآبيب الأمطار كأنها الـسهام، وكان ذلك الخطب أعظم من يحيط بـه الوصـف، فرجفـت القلـوب، وخرسـت الألسن"[1].

ويمكن للقارئ أن يتخيل الحالة النفسية التي كان عليها الرحالة في وسـط البحر، إذ زاد الكاتب في تصوير صعوبة الوضع الذي يعانيه هؤلاء الجماعة بقوله " توسطت المواسط "؛ أي بعد أن أصبحوا في وسط البحر ولا يمكنهم العودة بحال من الأحوال؛ لصعوبة ذلك وبعده عليهم، وقد وصف الرحالة البحر باعتبـاره مكانـاً، وترك لنا فراغات التصور والتخيل؛ إذ يمكن للمتلقي أن يتخيل السفينة وقد لعبـت بها الأمواج القوية، كما يمكنه أن يتخيل الركاب وقد لجوا بالبكاء والدعاء والتضرع، وقد يسعفه الخيال فيتصور حالة الأطفال في المركب وقد كسرت شـراعه الريـاح القوية والأمطار الغزيرة.

وهذه الحادثة تمثل قصة قصيرة تشتمل على كل مقومات القصة من زمان ومكان وحدث وشخوص، أما الصراع فهو المحرك للأحداث،" ومهمـا يكـن فـإن الصراع بشكل عام لا يعدو أن يكون مواجهة بين رغبتين متـصادمتين، أو حـدثاً يتجاذبه اتجاهان"[2]، و يتجسد الصراع هنا بين الخوف من الموت والرغبـة فـي الحياة، بين الرجاء والأمل واليأس والقنوط، فالرحالة يظهر براعته فـي تـصوير المعاناة النفسية التي وصل إليها هؤلاء المسافرون في البحر، فقـد أوشـكوا علـى

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 194 .

2- شوابكة، محمد علي، السرد المؤطر في رواية النهايات (البنية والدلالة)، منشورات أمانـة عمان الكبرى، عمان، 2006م، ص49.

الهلاك وأيقنوا بأن الموت آت لا محالة، وكان الخطب أصعب مـن أن يحـيط بـه الوصف، لذلك خرست الألسن عن الكلام، ورجفت القلوب .

وفي أحيان كثيرة نجد الرحالة يوجز فـي وصـف البحـر ومـا يعانيـه المسافرون فيه، وذلك بتركه فراغات كثيرة يجب ملؤها حتى يكتمل المعنـى لـدى القارئ، يقول ابن بطوطة في وصف فترة زمنية طويلة مرت بهم في البحـر فـي ثلاثة سطور "ثم دخلنا بحراً لا نعرفه، وخاف أهل الجنك[1] فأرادوا الرجـوع إلـى الصين، فلم يتمكن ذلك. وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن"[2].

فقول ابن بطوطة في بداية الجملة "ودخلنا بحراً لا نعرفـه " تـرك مجـالاً للتصور والتخيل لدى القارئ، فلا شك أن هذا المجهول يبعث الرعب والخوف في نفوس المسافرين فمنهم من يبتهل ومنهم من يبكي، ومنهم من يقدم نـذوراً، ثـم إن هذه الأيام الطويلة لا بد أن تكون قد بعثت اليأس في نفوسهم، أو أن الطعام والمـاء الذي بحوزتهم قد نفد .

وهذا المأزق والحبكة التي صنعها الكاتب قد زالت ولكن بوجود حبكة أكبر هولاً،إذ رسم الرحالة منذ البداية أفقاً لانتظار القارئ،" فالحبكة مثقلة بالمعنى أساساً، لأنها تنطوي على الفعل بأجمعه في أي نمط أدبي"[3]، ويعني ذلك أنهـا يجـب أن تذهب أبعد من المشهد أو الحدث أو الوصف[4]، فالقارئ وحسب مرجعياته المضمرة والمألوفة لديه يحمل مجموعة من التوقعات التي هي بمثابة انتظارات، ولكن الرحالة قد كسر أفق التوقعات للمتلقي وذلك بقوله "ولما كان في اليوم الثالـث والأربعـين، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر " فالمتلقي يتوقع عند زوال الليل وظهـور الفجر أن تزول المخاوف، وأن يظهر البر أو أن يحدد البحارة معالم الطريق، ولكن

---

1 - جمعها جنوك،وهي اسم يطلق على مراكب الصين . انظـر :دوزي، رينهـارت، تكملـة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، 1980م، ج2، ص313.

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2ص242 .

3 -موبيك، دي سي، موسوعة المصطلح النقدي (الحبكة)، ترجمها عن الإنجليزية عبد الواحد لؤلؤة،م3، ص 464 .

4 - انظر : موبيك،موسوعة المصطلح النقدي،م3، ص 464 .

الأمر عكس ذلك تماماً، فقد وقعوا في مصيبة أشد هولاً من الأولى وهو ظهور جبل في البحر، ولم يعهد الرحالة بظهور جبل في البحر، " فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة، وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي، وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك . ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضاً، فقلت: ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ[1]، وإن رآنا أهلكنا! وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته "[2] .

فالصراع في البحر لا يقتصر على الحالة الطبيعية وما قد يلاقيه الرحالة من رياح وأمطار، وإنما قد تشكل الحيوانات الموجودة في البحر من حيتان وأسماك كبيرة خطراً على الإنسان، كما كان طائر الرخ مصدر خوف وقلق لما عرف عنه من عدوانية وشراسة، والرحالة لم يذكر سوى رؤية المسافرين لهذا الطائر، لكنه ذكر على الفور بكاءهم، ووداعهم لبعضهم، والفراغات المتروكة في النص تستند إلى مجموعة من المرجعيات المضمرة والخصوصيات التي تعتبر مألوفة، وهي كما ذكرنا ما عرف عن هذا الطائر من قوة وبطش وأكل للبشر .

ولا يقتصر الصراع على الإنسان والطبيعة، وإنما قد نجد الصراع في البحر بين الإنسان والإنسان، فقد يتعرض الرحالة لقراصنة البحر، ويتم الصراع بينهم حقيقة فيسلبونهم كل ما لديهم من مال أو متاع، وهذا ما حدث مع ابن بطوطة وغيره من الرحالة، إذ يقول في وصف حادثة حدثت له في عرض البحر : "فخرج علينا من البحر اثنا عشر مركبا حربية، وقاتلونا قتالاً شديداً، وتغلبوا علينا، فأخذوا

---

1 - طائر وهمي في جزائر بحر الصين يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع، واللفظة مقتبسة من الفارسية، ذكره الجاحظ وأبو حامد الأندلسي . انظر :الدميري، كمال الدين محمد بن موسى ت(808هـ)، حياة الحيوان الكبرى،2ج،شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط5، 1978م، ج1، ص 524، الغرناطي، تحفة الألباب، ص92- 93 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2ص242 .

جميع ما عندي مما كنت ادخره للشدائد،....."[1]، إن هذا الصراع الذي تحدث عنـه ابن بطوطة يتم على الحقيقة، وهو مختلف عن الصراع النفسي الذي يكابده الرحالة نتيجة تعرضهم لغضب الطبيعة أثناء ركوب البحر، إذ إن تصوير الرحالة للصراع النفسي أكثر جمالاً وبالتالي أعمق أثراً في نفس المتلقي من ذلك الصراع الـواقعي، وهذا الصراع وهذه المعاناة التي رسمها الرحالة للبحر تمثل لوناً من جمالياته .

والبحر هو السبيل للوصول إلى اليابسة، يتحدد مكانه مـن خـلال البـر المحيط به، ولا تطيب النفس أو تشعر بالأنس إلا عند سكون البحر، فصخب البحـر يعقبه اضطراب في النفس البشرية، ذلك أن العلاقة بين البحـر والإنـسان علاقـة طردية، يهدأ الإنسان بهدوئه وينزعج باضطرابه، يقول ابن جبير في وصف ذلك: " فلما أسفر الصبح نشر ا رحمته، وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في السكون البحر، فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس "[2] .

وقد يشعر الرحالة بشعور خوفي حاد، وربما ليس لهذا الخوف من مبررات واقعية إطلاقا وإنما قد يكون نتاج أو حصيلة جملة مـن التـصورات والتخـيلات والتوهمات والمعتقدات الساذجة في ذات الإنسان، وهذا شعور طبيعي إزاء ما هـو غريب وغير مألوف، فنجد ابن بطوطة يعترف بخوفه من البحر في مواطن كثيـرة منها عند عودته من الهند وأثناء مسيره في البحر يقول :"وأردت العودة إلى دهلـي، ثم خفت من ذلك "[3]، و يسلك ابن جبير طريقاً مليئاً بالأخطار، فقد ركب البحر في معظم رحلته، "وفي كل هذه المسافات من الأخطار المتوقعة أمر لا يشجع كثيراً على اختيار تلك الطريق"[4]، وقد ذهب شوقي ضيف إلى أن الخوف لعب بخيال الرحالـة

1 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار،ص 206 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 20 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار،ج2ص244 .

4 - عباس، إحسان، مقدمات في التعريف بنماذج من التراث، تقـديم نهـاد الموسـى ومحمـد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص95 .

– وبخاصة الرحالة في البحار – فصور لهم كثيراً من الأوهام حقائق، وجسم لهـم بعض الحقائق الصغيرة أشياء مفزعة خطيرة .[1]

وعلى الرغم من خوف الرحالة من ركوب البحر، وعزم بعضهم على عدم ركوبه مرة أخرى[2]، فإنهم قد يطيلون المكوث في البحر، ويوجز بعض الرحالـة هذه المدة الزمنية الطويلة بسطر أو سطرين، وهو ما يسمى التلخيص فـي الفنـون السردية، وفيها يطول الزمن وتقصر المساحة النصية، والرحالة يخفي أحداث هـذه المدة الزمنية الطويلة؛ لأن المتلقي بمعرفته الخلفية ومرجعياته المضمرة يمكنه إعادة بناء النص وملء فراغاته مرة أخرى، يقول ابن جبير "وكانت إقامتنا علـى مـتن البحر ثلاثين يوماً "[3]، أما ابن بطوطة فيقول "فأقمنا على ظهر البحر ثلاثاً وأربعين ليلة "[4]، ومثل ذلك فعل غيرهم من الرحالة، ويسكت الرحالة عن ذكر أحداث هذه المدة الطويلة ليس لعدم أهميتها، وإنما لأن المتلقي يعلم أحداث تلك الفترة من خلال مرجعياته المضمرة، إلا إن بعض الرحالة يلمح ببعض تلك المصاعب والمـشاق، يقول ابن جبير موجهاً الحديث للمتلقي :"فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر في مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية، فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوماً، وسائر الناس لعشرين يوماً، ولخمسة عشر يوماً "[5] .

وقد لفت انتباه الرحالة بعض عجائب البحر، ومنه ما أشار إليه ابن جبيـر عن مرسى مدينة مسينة[6] "ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية؛ لأن المراكـب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه، وتنصب منها إلى البر خـشبة يتـصرف

---

1 - ضيف، شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، 1956م، ص28 .

2 -البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 197.

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 22 .

4 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص207 .

5 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 251 .

6 - ويقال لها مسيني، وهي بلدة صغيرة على ساحل جزيرة صقلية مما يلـي الـروم، وقـال بطليموس : مدينة مسينة صقلية . انظر : الحموي، معجم البلدان، ج5 ص130 .

عليها، فالحمال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في وسقها[1]، ولا في تفريغها إلا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها "[2] .

ومن غرائب البحر وعجائبه بعض أنواع الأسماك التي ذكرها الغرناطي في تحفته، يقول في وصف حيوان يشبه رأسه رأس العجل، وله أنياب كأنياب الـسبع، وجلده له شعر كشعر جلد العجل، وله عنق وصدر وبطن، ولـه رجـلان كرجلـي الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت خرج من البحر وألقى نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل، ولو قتل لم يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته وجلده، يتخذ منه نعل لصاحب النقـرس فيبـرأ ولا يجـد للنقرس ألماً ما دام ذلك النعل في رجله وهو من عجائب الدنيا"[3] .

ويظهر من هذا الوصف براعة الغرناطي في تـصويره، فـرأس الـسمكة كرأس العجل ضخامة، أما أنيابها فكأنياب السباع، ولها رجلان كرجلـي الـضفدع، فهي ضخمة وعجيبة، أما الأكثر غرابة فهو خروجها من البحر من غروب شـمس ليلة السبت إلى غروب شمس ليلة الأحد .

وبهذا يمكننا القول إن البحر جاء في مدونات الرحالـة علـى صـورتين متناقضتين،البحر الغاضب ويقابله تماماً البحر الهادئ، فلم يكـد الرحالـة يفـارق الأرض اليابسة، ويرى أمواج البحر العاتية، ويسمع أصواتها العالية، حتى يملأ عليه الخوف نفسه، ولكن حين تطيب الريح، وتهدأ الأمواج، فإنه يطمئن بعض الاطمئنان، وما أن تعلو الأمواج ويضطرب البحر ثانية، فإنه يفزع إلى ا بالـدعاء، ويطيـل التمني إلى ا أن تحل أسباب النجاة من أخطار البحر المتعددة، وفي بعض الأوقات يتوب عن ركوبه مرة أخرى، كما يقول البلوي " وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين مـن

1 -الوسق : مكيلة معلومة،وقيل هو ستون صاعاً بصاع النبي صلى ا عليه وسـلم . لـسان العرب، مادة : وسق .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 253 .

3 - الغرناطي، رحلة الغرناطي، ص87-88 .

ركوب البحر أبد الآبدين "[1]، لذلك عبر الرحالة عن شعورهم بالسعادة التي تبعثها رؤية البر، ومن بعض علامات البر التي أشار لها الرحالة، رؤية منار الإسكندرية، يقول ابن جبير:" وفي صبيحة يوم السبت ...أطلع ا علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً "[2]، وهذا المنار الذي يبعث الفرح والسعادة مرتبط بالبحر؛ لأنه يشير إلى قرب وصولهم للبر، البر الذي يعني الآمان من أهوال البحر، و النجاة من الغرق، والوصول إلى الهدف المنشود بعد معاناة، ويحمل هذا المكان كل معاني الجلال حيث إنه "يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع"[3].

كما عبر البلوي عن سعادته الغامرة برؤية منار الإسكندرية؛ لأن رؤيته تعني اقتراب الفرج، بعد أن تمكن اليأس، وعظم البأس، ويعبر البلوي عن مشاعر المسافرين عند رؤية المنار قائلاً " فما رأيت بشارة أحلى في النفوس، وأوقع في القلوب، ولا أعظم سروراً من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر:

بشراكم لاح المنار الأسعد ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذي كنا به في حالة البلوى نقوم ونقعد"[4]

ويأتي البر في الجهة المضادة للبحر، ولقد وقف الرحالة على أمكنة البر ووصفوها وصفاً دقيقاً، كما وصفوا ما تشتمل عليه هذه البيئة من عمارة مثل الأسوار والحصون والمساجد والمدارس والحمامات والأسواق والمارستانات والمنازل والشوارع، كما وصفوا المقابر واهتموا بآثار الأنبياء، ووصفوا المواقع

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1، ص197 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 22 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 24 .

4- البلوي، تاج المفرق، ج1ص 196 .

الإسلامية والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية، كما وصفوا البساتين وما تشتمل عليه من أزهار و أشجار ونباتات .[1]

وجاء وصف الرحالة للمكان من زوايا متعددة وذلك حسب اهتماماتهم، فمنهم من صب جل اهتمامه على الغرائب والعجائب ولم يسجل غير ذلك كأبي حامد الغرناطي[2]، ومنهم من وصف المدن وصفاً سريعاً وركز اهتمامه على ساكنيها من علماء وشيوخ كالقلصادي[3] والتجاني[4]، ومنهم من تنوعت مجالات اهتمامه كابن بطوطة، فوصف الأماكن[5]،وعادات أهلها،[6]والعجائب التي صادفها[7].

ولا بد أن يترك المكان أثره في نفس ساكنه، "حتى يتقمص الكائن صورة مكانه، ويغدو سلوكه ترجمة لسلوك المكان، ولغته من لغة المكان "[8]، ومما يدل على قوة الحضور المكاني في شخصية الرحالة، قول ابن بطوطة في وصف سكان السودان الذين اعتادوا على العيش في هذه الأمكنة، فأهل قرية تغازي مثلا نجدهم قد أقلموا أنفسهم على العيش في هذا المكان فبيوتها ومساجدها من حجارة الملح، وسقوفها من جلود الجمال، والملح بها على شكل ألواح، ولا يوجد بها شجر، ولا يسكنها إلا العبيد [9]، وفي هذا دلالة على أن المكان قد رسم معالمه في هؤلاء العبيد، فقد اعتادوا على شرب الماء المالح الذي لا يمكن شربه، إذ إن ابن بطوطة يذكر أن القافلة التي كان برفقتها أقامت بها مدة عشرة أيام على جهد ومشقة لشدة

---

1 - انظر : البكري، أبو عبيد، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق ودراسة عبدا يوسف الغنيم، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع،الكويت، ط1، 1977م، ص 38 .

2 -الغرناطي : الرحلة، ص 83،85، 86، 87، 89،93 .

3- القلصادي، الرحلة :الصفحات :94-115،111-122، 129، 130 .

4- التجاني، الرحلة، انظر، الصفحات : 181، 186، 240-246، 267-291 .

5 - انظر : ابن بطوطة : الرحلة ج1، ص 58، 59، ج2ص 226،183،191، 271 .

6 -ابن بطوطة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2،ص 194،201، 213، 215، 227 .

7 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، 42،ج2 ص270، 161 .

8 - حسين، خالد حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجا)، مؤسسة اليمامة الصحفية،الرياض، 1421هـ، ص 104 .

9 - انظر : ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2ص269 .

العطش وملوحة الماء، ولا نجد هذا التذمر من شدة ملوحة الماء عند سكانها لأنهـا حفرت معالمها فيهم، وحفروا هم معالمهم فيها "فماؤها زعاق "[1] لكنهم يستعذبونه.

فالمكان في وعي الرحالة لا يوصف بمعزل عما يتـصل أو يـرتبط بـه، فهناك الأمكنة ذات الصفة الدينية، وتأخذ الأمكنة هذه الخاصية نتيجة لقدسيتها عنـد أصحاب الديانات من مسلمين ونصارى، كالمسجد الأقصى الـذي اكتـسب صـفته الدينية لارتباطه بحادثة عروج النبي صلى ا عليه وسلم منه إلى السماء. وهنـاك الأمكنة ذات الخاصية التاريخية وذلك نتيجة لمرورها بأحداث تاريخية مشهورة، أو لاحتضانها قبور الأنبياء والصالحين، فهذا التجاني يقول في وصف قرية غانيمـة[2]: "بها قبر رجل صالح والناس إلى الآن يزورون قبره ويتوسـلون إلـى ا سـبحانه عنده، ويذكر أهل تلك الجهات أن كل رفقة استصحبت شيئاً من تراب ذلـك القبـر فإنها لا يتعدى عليها فهم لا يزالون ينقلون ترابه، فيجدده من يقصد الأجر من أهـل تلك الجهات أو المجتازين عليه "[3]، فوجود هذا القبر هو الـذي اكـسبها القيمـة التاريخية والدينية لدى المسافرين، فترابه –كما يزعمون – يحمي المسافر، ويحفظه من أخطار الطريق البري والبحري، فكان لا بد من المرور به لاجـتلاب التـراب والتبرك بزيارته.

ومن الأمكنة الدينية المقدسة عند النصارى مدينة بيت لحـم التـي يـرتبط تاريخها بولادة سيدنا عيسى عليه السلام، يقول الإدريسي في وصف بيت لحـم:" أما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه المسيح فبينه وبـين القـدس سـتة أميـال ......وببيت لحم هناك كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع، فسيحة مزينة إلى أبعد غاية حتى إنه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء "[4].

---

1 - انظر : ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2ص269

2 - قرية صغيرة من قرى تونس، كانت خالية زمن مرور التجاني بهـا، انظـر : التجـاني، الرحلة، ص317 .

3 - التجاني، الرحلة، ص 317 .

4 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1ص 362

ومن الأمكنة ذات الدلالة التاريخية الأهرامات التي بناها الفراعنة في مصر فهي " المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة قامـت في جو السماء، ولا سيما الاثنان منها يقصر الجو بهما سمواً واتساعاً..."[1] .

وقد تميز الإدريسي بالوصف الدقيق للمكان وتوضيح حدوده مـن جهاتـه الأربع وذكر ما يشتهر به هذا المكان من أنواع الزراعة والصناعة، كل ذلك بعيـداً عن الأوصاف البلاغية التي تميزت بها كتابات عدد من الرحالة، ولعل ذلك يعـود إلى أنه معني بعلم الجغرافيا أكثر من عنايته بالأدب والبلاغة، يقول فـي وصـف اشبيلية "مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة وأسواق كثيرة وبيع وشراء، وأهلها مياسير وجل تجاراتهم بالزيت، يتجهز به منها إلى أقصى المشارق والمغارب بـراً وبحراً، وهذا الزيت عندهم يجتمع من الشرف وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلاً، وهذه الأربعون ميلاً كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين ..."[2] .

ونلاحظ أن الرحالة يرسم هنا صورة دقيقة لمدينة إشـبيلية نـستطيع مـن خلالها أن نحدد مجتمع هذه البيئة، فهي مدينة في غاية الكبر، تعج بالحياة، فيهـا أسواق كثيرة تسد حاجات أهلها، ينتجون الزيت ويصدرونه إلى المشرق والمغرب، وهي محاطة بشجر الزيتون والتين على مسافة أربعين ميلاً، وهذا ما يمـنح أهلهـا الأمن والاستقرار إذ إنها علاوة على ذلك محصنة عن الأعداء بأسوار مرتفعة، وهذا التصوير الواقعي "يعمل على خلق متعة لدى القارئ مـن خـلال رؤيتـه للمكـان المكتوب، مما يقود إلى تعميق الصلة بين النص والمتلقي، ويجعل القارئ يشارك في رؤية شبيهة برؤيته "[3].

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 220 .

2 -الإدريسي، نزهة المشتاق، مج2 ص541 .

3 - الشوابكة، محمد، دلالة المكان في مدن الملح، مجلة أبحاث اليرمـوك، (مـج9)، (ع2)، 1991م، ص 10 .

2.2 أمكنة الأنا والآخر

مكان الأنا هو المكان الذي نشأت بينه وبين الإنسان ألفة تامة مـن خـلال الملازمة والمعايشة لفترة طويلة، والألفة قد تنشأ لولادة الشخص في هـذا المكـان وتعلقه بترابه في بداياته الأولى، فـ" كل مناطق الألفـة موسـومة بالجاذبيـة "[1]، وتعشق الأنا المكان وتألفه بعد أن"يحفر المكان صورته في تربـة الـذات وينحفـر بها"[2] .

وقد جاءت الرحلة الأندلسية في مواجهة بين الذات والآخر؛ واكتشاف آفاق الآخر، والتكيف مع قيمها ورسم ملامح صورتها من خلال تـسليط الـضوء علـى ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية للذات والآخر[3]، ويعتمد هذا على دقـة الملاحظة والإحساس العميق بالأشياء المحيطة .

أما مكان الآخر هو المكان المؤقت، الذي يزوره الرحالة لفترة قد تطـول لشهور أو سنوات وقد تقصر ليوم أو عدة أيام، فإنه يترك أثراً عميقـًا فـي حيـاة الرحالة نتيجة لما قد يجده في نفوس ساكنيه من طيب معاملتهم أو سوئها .

ويندرج الآخر تحت فئات متعددة؛ فهناك المسلمون مـن العـرب وغيـر العرب، وهناك أهل الذمة من أهل الكتاب مثل اليهود والنصارى،"ويدخل في هـذه الفئة أيضا الصابئة والمجوس "[4]، وكلٌ له مكانه الذي تنظر له الأنا مـن خلالـه، فهناك الأمكنة الدينية عند المسلمين وأهل الذمة وهناك الأمكنة التاريخية والأثرية .

ويمكن تقسيم الأمكنة من حيث علاقة الأنا بالآخر كما سبق إلى مكـانين: هما مكان الأنا ومكان الآخر، والأنا يمكننا اعتبارها المسلم بشكل عام- باستثناء ابن يونة التطيلي الذي تكون الأنا لديه كيهودي- وهنا يكون مكان الأنا المكان الـديني

---

1 - باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، ط2، 1984م، ص42 .

2 - حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص255.

3 - الهروط، بلال، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية (رسـالة جامعيـة)، جامعـة مؤتة،2008م، ص6 .

4 - انظر : فهيم ،أدب الرحلات(دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي) ، ص 177 .

وما سواه من الأمكنة هو مكان الآخر، وقد تكون الأنا لـصاحب الرحلـة بـشكل خاص(كفرد) ومكان الأنا عنده يتعلق بنشأته الأولى، وغير هذا المكان يعـد مكانـاً للآخر، والأنا العربي والآخر غير العربي وهذا التقسيم من باب اللغـة، فالمتحـدث باللسان العربي هو الأنا وغيره من الألسنة هو الآخر .

ومكان الأنا باعتبار الدين سيأتي الحديث عنه من خلال الحديث عن المكان المقدس والمدنس .

ويتوقف ذكر مكان الأنا من حيث هو مكـان الانطـلاق فـي اللحظـات الحنينية والتذكرية بين فترة وأخرى، وذلك عند ملاقاة بعض المنغصات في أمكنـة الآخر، فتتم عند ذلك المقارنة بين مكان الأنا ومكان الآخر، فقد حاول البلوي نسيان وطنه والبحث فيه عن مساوئ، لكنه مع محاولته ذلك لم يستطع النسيان، لأنه لم يجد فيه ما يشينه، يقول في ذلك :" فدخلت المدينة بقلب غير داخل، وتلقيت المنام بطرف بالكرى باخل، وكلما فتشت للأوطان في فكري ذنبا، أجعله سبباً للسلو، أو عيباً أركن به إلى الراحة والهدوء، قال الاختبار لا سبيل إلى ذلك، وجعل يعرض علـي مـن حسناتها ما جلا به ظلام الليل الحالك"[1]، ثم نجده يتغنى بقول الشاعر [2]: (الكامل)

نَقل فُؤادك حيثُ شِئتَ مِن الهوى — ما الحب إِلا لِلحبيبِ الأول

كَم منزِلٍ في الأرضِ يألفُه الفَتى — وحنينُه أَبداً لأول منزل

فالمكان له أهمية كبيرة في نفس صاحبه الذي عاش فيـه صـباه وبدايـة حياته، مهما بلغت عيوب ذلك المكان في عيون الآخرين، فالحنين للوطن من طبائع النفس البشرية،"وسمات المأوى تبلغ حداً من البساطة والتجذر العميق في اللاوعـي يجعلها تستعاد بمجرد ذكرها "[3]، ولا ينظر إلى مساوئه لأنه اعتاده وأحبه، فلم نجد في الرحلات من ذم مكان نشأته وصباه على الإطلاق . أما مكان الآخر فلا يمكـن قبول مساوئه، ولا يمكن التعايش معها، فهو في أغلب الأحوال مرفوض وهو " بلـد

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 147 .

2 - البيتان لأبي تمام :انظر : الحـاوي، إيليـا ، شـرح ديـوان أبـي تمـام، دار الكتـاب اللبناني،ط1،1981م،ص764 .

3 - باشلار، جماليات المكان، ص42.

لا حسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يـألف البـرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه، ولا تجد فيه مقـيلاً، ولا تتـنفس منه إلا نفساً ثقيلاً، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة وتعرت أعطافه من ملابس النضارة "[1]، ومع ذلك فإن الذي يجعل الرحالة يتقبـل هذا المكان ولو قليلاً أنه مكان سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول الرحالة " اسـتغفر ا ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنه البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم صـلى ا عليه وسلم "[2] .

ولعل ما يفسر أهمية المكان أكثر، ويعكس شدة تغلغله في كيان الفرد هو أنه المنطلق لتفسير كل تصرف، فلا يحكم على سلوك الإنسان إلا من خلال وجوده في المكان، فما يتبدى في مكان ما أنه غير لائق، قد لا يبدو كـذلك فـي غيـره مـن الأمكنة[3]، وهذا ما نجده عند الرحالة حين يبدي استغرابه وتعجبه مما يراه، فنحن نواجه العالم الآخر من خلال معرفتنا لثقافته وأسراره، وهذا يحدث لأن كل مجموعة من البشر تسكن في مكان محدد، فلا بد أن تميزها ثقافة واحدة، فساكن الـصحراء مختلف في ثقافته عن ساكن المدينة، فالمدينة مثلا تميز ساكنيها بميـزات وتغـذيهم بعادات وتقاليد لا نجدها عند أهل الصحراء، ومن هنا نجد صعوبة التعايش بين الأنا والآخر، أو صعوبة تقبل عادات الآخر، وقد أثبتت أفكار وتحليلات مكانية " التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة، فالبيئة تؤثر والإنسان يغير ويؤثر ويتكيف باسـتجابات مختلفة"[4]، فابن بطوطة مثلاً يذكر مشاهد كثيرة ثم يبدي استغرابه وتعجبه منها .[5]

ومن هنا يمكننا القول إن للمكان أثره الكبير على الفرد، " فالذين يدرسـون الشخصية في معزل عن المكان والزمان إنما يسلبونها جزءا ذا خطورة من مكوناتها

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص191، جاء هذا في وصف بلدة حران

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 191.

3 - عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي، ص260 .

4 - المظفر، محسن عبد الصاحب، فلسفة علم المكان، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2005م، ص 88 .

5 - ابن بطوطة، الرحلة، ج1 ص42، ج2 ص160، ص171 .

فعبر المكان يمكن تحديد سمات الشخصية وتشخيص سـلوكياتها وتحديـد أهـدافها ومقاصدها"[1]، ونتيجةً لهذا التأثير المتبادل بين الإنسان والمكان الذي يعيش فيـه أو البيئة التي تحيط به؛ يمكننا معرفة مزاج وطبائع الأشخاص والحالة الشعورية التـي يعيشونها، بعد دراسة أماكن سكنهم، فالمكان أحد العوامل التي تـساعد علـى فهـم الشخصية[2].

وقد يكون مكان الآخر ملجأ وملاذاً وخاصة في الرحلات الخيالية، أو فـي الرحلات القصرية والإجبارية كالرحلة للحج أو للضرورة حيـث يبـدي الرحالـة إنكاره للواقع ورفضه له، وبحثه عن الأفضل أو عن الخلاص من محنة الواقع الذي ترك بصمات شديدة الوضوح في حياته، فحاول تجاهلها ونسيانها من خلال الخيال، فرحل إلى أمكنة خيالية لا يوجد فيها ما يوجد في هذا المكان الأرضي الواقعي .

والمكان ليس المعطى الخارجي المحايد الذي نعبره دون أن نأبـه بـه، ولا يتوقف حضوره على المستوى الحسي وموجوداته، بل " يتغلغل عميقا فـي الكـائن البشري، حافراً مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة ليصبح جـزءاً صحيحا منها"[3]، فالمكان هو الذي يحتضن عمليات التفاعـل بـين الأنـا والعـالم الخارجي، فمن خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الآخرين.[4]

وقد أشار ابن بطوطة إلى معاناته النفسية التي أحس بها في تونس لعـدم تفاعله مع الأخر:" فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم علـي أحـد لعدم معرفتي بهم، فوجدتْ من ذلك النفس ما لم أملك معه سوابق العبـرة، واشـتد بكائي "[5] .

1- مونسي، حبيب، فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية)، منـشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص18 .

2- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيـروت، ط1، 1990م، ص 30 .

3 - حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص60 .

4 - انظر: حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص60 .

5 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1 ص22 .

ويحمل الرحالة في داخله تراكمات زمنية ومكانية، تعلّمها أو أخـذها مـن البيئة، أو توارثها عن أجداده، الذين بدورهم ورثوها عن نفس المكان، ونحن نعلم أن لكل بيئة وزمان مجموعة من العادات التي تميزه عن غيره؛ لعل هذا ما يفسر نفور الرحالة من بعض التقاليد السائدة في أمكنة الغير، فإذ حدث للإنسان أن غير بيئتـه التي اعتادها فلا بد أن يبدي ملاحظاته على سلوكيات المجتمعات وبيئاتهم، أو قـد يظهر استغرابه و رفضه ومن ثم رفض البيئة، وهذا ما حدث مع بعض الرحالـة، فالعبدري مثلاً عندما خرج من المغرب قد اعتاد على نمـط معـين مـن العـادات والتقاليد، تركت أثراً كبيراً في نفسه، واعتاد على أناس يتسمون بخصال مقبولـة أو محبوبة لديه، لأنها بيئته ومسقط رأسه ومكان نشأته، وأهلها أهله، ولكن عندما انتقل إلى مكان آخر وبيئة مختلفة أظهر رفضه لذلك المكان وذمه، لأنه لم يتقبل عـادات وتقاليد الآخر الذي يسكنه، فالقاهرة" حسبها شراً أنها جرين لحثالة العبـاد ووعـاء لنفاية البلاد ومستقر لكل من يسعى في الأرض بالفساد، من أصناف أهـل الـشقاق والعناد والإلحاد، استولى الحسد على قلوبهم، واستوى الغش في جيوبهم فنار الحسد مضطرمة في الجوانح، وسهم الغش ممزوج في عسل النصائح"[1]، وبغداد عند ابن جبير سيئة بسبب سوء معاشرة أبنائها الذي يغلب على طبع هوائها ومائهـا، فهـم يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والكبرياء[2] .

ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نحكم على المكان من خلال رأي هذا الرحالـة أو ذاك؛ لأن الرحالة إنما يصف من موقفه وموقعه هو، محاولاً وضع القارئ فـي هذا الموقف أو الموضع؛ لذا فإن الرؤية للمكان تغدو ذاتية وإذ كان المكان واقعيـاً، فحسن معاملة شعب ما أو سوء تعاملهم مع الرحالة هو الذي يحكم حبه لهذا المكـان أو رفضه له، يقول العالم شوبنهاور حول المكان "هو خيالي أنـا "[3]، إذن فهنـاك مكان ينظر إليه من جوانب متعددة تبعاً لاختلاف الجانب الذي ينظر إليه، ونفـسية الناظر، فقد أرى مكاناً ما واسعاً جميلاً، في حين يراه غيري شديد الضيق، فالمكان

1 - العبدري، الرحلة المغربية، ص125.

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 170 .

3 - انظر : باشلار، جماليات المكان، ص 179.

أكثر من منظر طبيعي" إنه حالة نفسية "[1]، يستعاد عن طريقها التاريخ الشخـصي المتجذر في اللاوعي المرتبط بهذا المكان أو ذاك، فوجود الأشياء في المكان الـذي نضيف إليه وعي وجودنا الخاص هو شيء ملموس جداً [2] .

وبصفة عامة فقد شكل الآخر شيئاً مذموماً لا يـستحق إلا النعـت بـأردأ الألفاظ، والوصف بأقذر الصفات، خصوصاً إذا كان لدى هذا الآخر عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الرحالة وألفوه[3]، ولقد قابل الرحالة بين الأقاليم العربية ذاتها والأقاليم في المغرب العربي والمشرق بناء على عادات ساكني هذه الأمـاكن فـي بعض الأحيان،من مثل قول الشريف الإدريسي :"ومدينة الكوفة على شـاطئ نهـر الفرات، ذات بناء حسن وأسواق عامرة....، وأهلها مياسير، وتشبه مبانيهـا أبنيـة البصرة في الإتقان والنفاسة "[4].

كما وصف الرحالة ما امتاز أهل البلاد من ميزات دون غيرهم، يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف أهل بسطة :" ناهيك من بلد اختص أهله بالمران فـي معالجة الزعفران، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران "[5]، فالرحالة لا يمكـن إلا أن يسجل كل فريد وطريف تقع عليه عيناه، وبهذا تكون الرحلات سجلاً تاريخيـاً لعادات الشعوب وتقاليدهم

3.2 أمكنة المقدس والمدنس

المقدس هو الذي أحيط بجلال وتنزيه، وحقق توازناً نفسياً لشيوع صـفات الكمال والمثال الذي ينشده الطالب . والمقدس في المعاجم يعني : المنـزه الطـاهر المبارك[6] .

---

1 - انظر : باشلار، جماليات المكان، ص 179.

2 - حمودة، حنان محمد،الزمكانية وبنية الشعر، عالم الكتب،اربد، 2006م، ص22 .

3 - تحدث فهيم في هذه القضية (الذات والغير) في كتابه أدب الرحلات، ص 177 .

4 -الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1 ص 381 .

5 -ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 84 .

6 -ابن منظور، لسان العرب، باب قدس .

يرتبط المكان المقدس بخاصية دينية تشتمل عليه، أو قد يرتبط بأناس لهم مكانتهم العلمية، وأحياناً يصبح المكان مقدساً لما يتمتع به أهل ذلك المكان من خصال طيبة، ويصبح مدنساً نتيجة لما يتّسم به أهل ذلك المكان من معاملة سيئة وأخلاق منبوذة، أو لأنه أصبح سكناً للكفار أو للنصارى "فالمكان لم يكن ممقوتاً لذاته؛ بل نتيجة لما يتضمنه من تهديد لأمن الإنسان، وتقزيمه لروحه، ومعاداته لينابيعه الأصلية، وأنماطه العليا التي ترسخت في نفسه منذ صباه "[1].

لعله من المفيد القول إن المعرفة العلمية تستهدف المطابقة أو الاقتراب من حقيقة ما هو موجود ومن قانونيته الموضوعية فحسب، في حين أن الإدراك القدسي يعتمد على أحكام تفاضلية تجاه المكان، مشبعة بالمعايير والقيم ووسيلته إلى ذلك المنطق الرمزي والروحي، ويستخدم في ذلك اصطلاحات القداسة والدناسة والحرام والحلال [2]، وهذا يعني أن " إن الفكر الديني يعتمد على الرمزي في تحديده وفصله بين المكان المقدس، والمكان العادي أو المدنس"[3]

ومكان الآخر لا نجده دائما ممقوتاً ومرفوضاً، فقد يبدي الرحالة تعلقه وعشقه للمكان، فهذا البلوي بعد وداعه تربة سيد المرسلين يشعر أنه وصحبه تذوب أجسادهم وتلتهب أكبادهم لهذه اللحظة، يقول :"وودعنا الروضة المشرفة المكرمة، والتربة المقدسة المعظمة، فيا له وداعاً ذابت له الأجساد والتهبت به الأكباد،وكاد يتصدع الجماد، وما ظنك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد المرسلين وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، وخيرة خلق ا أجمعين، وإنه لموقف تنزع فيه الأرواح انتزاعا، وترى الخلق من هوله صراعا، كلٌ يقاسي مرارة مذاقه، ويبوح لديه بأشواقه، ولا يجد بداً من فراقه، فوا أسفاه وا أسفاه ما أصبر قلبي على هذا الوداع وأجفاه[4] :(الكامل)

---

1 - عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي ، ص290 .

2 - الكيلاني، شمس الدين، رمزية القدس الروحية (قداسة المكان)،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م، ص 6 .

3 - الكيلاني، رمزية القدس الروحية (قداسة المكان)، ص 6 .

4 -البلوي، تاج المفرق، ج2 ص11-12 .

عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى ودنا وداعك كيف لم يتفطر"[(1)]

ويبدو أثر المكان المقدس في نفس الرحالة أكثر من أثر الأمكنة الأخـرى، فقد تعلق البلوي بروضة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتمنـى أن لا يـودع ذلـك المكان، يقول :" فلما تحقق السير عن ذلك الحمى، وأشأم حاد كان بـالأمس أتهمـا، أجريت الدموع، وحرمت الهجوع وأضرمت بنيران الزفرات الأكباد والضلوع "[(2)]، فعشق المسلم لروضة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعلقه بهذا المكان المقدس عنـد شتى المسلمين جعله يسكب دمعه دماً، وجعل الفضاء يضيق به، وينقطع به الرجـاء والأمل.

وشعور الإنسان بطيب المكان يتعلق بالمكانة النفسية التي يثيرها هذا المكان في نفسه، فكلما ارتفعت قيمة المكان ومنزلته لدى الرحالة ازداد أثـر ذلـك علـى وصفه إياه وتعبيره عن جماله، " فنسيم طيبة المطيبة أعبق من العنبر الذكي، وأفتق من المسك النقي، وأحلى على القلب من المورد العذب الشهي "[(3)]، كما عبر عن ذلك القلصادي بقوله: " وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة، رأينا ما يدهش الناظر، ويحير الفكر والخاطر، بما خصها الله تعالى به من الهيبة والتعظيم، فطفنـا بهـا سـبعاً، وصلينا الركعتين في مستقر الأمن والأمان : مقام أبينا إبراهيم عليه السلام "[(4)] .

أما الروضة الشريفة فهي " مليحة عجيبة سمتْ عالية على البنيان، ولاحت بادية للعيان، يثير مرءاها من ذي الوجد كامن الأشجان، ويهيج من القلـب سـاكن

---

1 -البيت من شعر عبد الملك بن إدريس الجزيري الأندلسي (ت394)، انظر : الحميدي،أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي، (ت 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأنـدلس، الـدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، ص 280، ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمـد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي، ت(529هـ)،مطمح الأنفس ومسرح التـأنس فـي ملح أهل الأندلس،دراسة وتحقيق محمد علي الـشوابكة، مؤسـسة الرسـالة، بيـروت، ط1، 1983م، ص 180 .

2 -البلوي، تاج المفرق، ج2 ص11 .

3 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص 12.

4 - القلصادي، الرحلة، ص 132-133 .

الأحزان، كأنها ترقب أو تندب حبيباً بان، وتذكّر من يفكر بزمان كان، وتترجم عما يستعجم من مغانٍ بمعانٍ، تشرح فتصبح فتصبح عما تلوح إليه ببيان، يا لها واعظة قل عن شأوها قس وسحبان، تضمنت غير ناطقة ما لم يتضمن ديوان :

كفى بتواصل العبرات شغلاً　　　يعوقك عن مديح أو نسيب[1]

وهذه قبة الصخرة المشرفة " وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها وأغربها قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة وتلت من الإتقان ظاهره ونصه، وتجلت في جمالها الرائع كعروس حسناء جليت على منصة، قامت مشرفة متبرجة على يفاع، تصرح وتلوح بالإعراب والإبداع، وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصناع، حسنها الأول فاستحسنها الآخر وانعقد الإجماع"[2].

وقد اهتم الرحالة المغاربة والأندلسيون ببيت المقدس، كما حظيت مدن فلسطينية كثيرة باحترام كبير من قبل الأندلسيين والمغاربة، كمدينة الخليل وعسقلان وعكا وطبريا وغيرها، لكن هذا الاحترام على أهميته البالغة، لا يمكن مقارنته أو وضعه في مقابل ذلك الاحترام والتقديس الذين حظيت بهما مدينة بيت المقدس، وقد جاء هذا الاحترام من أن السابقة تحتوي على عدد كبير من المقدسات الإسلامية التي يجلها المسلمون ويرغبون في زيارتها، مثل قبور الأنبياء ومشاهد الصالحين، والمساجد المقدسة .[3]

يقول العبدري في وصف مدينة الخليل : ثم وصلنا بعد ثمانية أيام إلى المحل الأنيس، والمعهد الذي يتخير فيه مقيل وتعريس، والمنزل الذي حكم له القدر بالسعادة حين التأسيس، مثوى لكل خاشع ومنيب، ومستقر كل خائف حذر من التأنيب، ومناخ كل مشتاق يحن حنين النيب "[4] .

---

1 - العبدري،الرحلة المغربية، ص 206 .

2 - العبدري، الرحلة المغربية،ص 229 .

3 - أحمد، علي، القدس في نظر الأندلسيين والمغاربة خلال العصور الوسطى، دراسات أندلسية، العدد الرابع والعشرون، ربيع الثاني 2000م، ص72 .

4 - العبدري،الرحلة المغربية، ص 222.

ويصبح للمكان قيمة عظيمة نتيجة لازدهار العلم فيه وكثرة العلماء، فنجـد ثناء الرحالة عليه وعلى ساكنيه، يقول القلصادي في وصف تلمسان وذكر علمائها الذي التقى بهم ودرس على أيديهم "...تلمسان يا لها من شان،ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة والناس الفـضلاء الأكيـاس، المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس ...وأدركت فيها كثيراً من العلماء والـصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة،وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيه بالاشتغال بـالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[1]، ثم يذكر شيوخه الـذي أخـذ العلم على أيديهم، ويذكر نبذة عن حياة كل واحد فيه ثم يذكر اهتمامهم بالعلم والدين، ومسيرتهم العلمية الحافلة ومن ثم تاريخ وفاتهم، يقول بعد وصف تلمسان "وأولاهـم بالذكر والتقديم، الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا : سيدي أبو عبد ا محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق ... قطع الليالي ساهرا،وقطف من العلم أزاهراً، فأثمر وأورق، وغرب وشرق، حتى توغل في فنون العلم واستغرق، إلـى أن طلع إلى الأبصار هلالا لأن المغرب مطلعه "[2] .

إن هذا يشير إلى أن الإطراء على المكان من خلال ذكر فـضائله وقيمـه والرجوع إلى تاريخه، أو ذكر من أقام به من العلماء، وبهذا يصبح المكان حـاملا لسمات وخصوصيات تميزه عن غيره، وترفعه من سمة العادية إلى فضاء مميز [3].

كما نجد أن من أسباب تفضيل بعض الأمكنة على غيرها هو طباع أهلهـا وحسن معاملتهم للغريب، يقول القلصادي: " ثم ارتحات من مسقط رأسـي، ومحـل أنسي، مع أبناء جنسي، بسطة، سقى ا أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الإحسان ومهدها بالهدنة والآمان : دار تخجل منها الدور، وتتقاصر عنها القصور، وتقر لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، ومن صحة أجسام أهلهـا

1 - القلصادي،الرحلة ،ص 95 .

2 - القلصادي،الرحلة ، ص 96.

3 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص222.

وما طبعوا عليه من كرم الشمائل(لهوائها الصحيح، وفضائها الفسيح) وبحسبك فيه عدم الحرج، لأن داخلها باب الفرج "[1] .

ولا يقتصر تأثير المكان على الإنسان إيجاباً بل قد يـرفض ذلـك المكـان لأسباب تتعلق بطغيان أهله وكفرهم وتبرج نسائه، فهذا ابن بطوطة لم تعجبه الصين بسبب كفر أهلها "وسافرت منها إلى بلاد الصين على ما فيها من الحسن لـم تكـن تعجبني، بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر على أهلها. فمتى خرجـت عن منزلي رأيت المنكرات الكثيرة، فأقلقني ذلك، حتى كنت ألازم المنزل، فلا أخرج إلا للضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين بها، فكأني لقيت أهلي وأقاربي "[2].

هذا هو المكان المدنس عند ابن بطوطة، أما ابن جبير فقـد تمثـل المكـان المدنس لديه فيما استلبه النصارى من أيدي المسلمين ودنسوه، أو ما كان موطنا لغير المسلمين؛ لذا كانت أوصافه تشي بما يعتمل في نفسه من مشاعر الكـره والـسخط جراء ما لقيه من ساكني تلك الأماكن [3]، فمدينة عكا تستعر كفرا وطغياناً، وتفـور خنازير وصلبانا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسا وعذرة، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين ....فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس "[4]، أما مدينة صور" دمرها ا وأعادها "[5] "، هي أنظف من عكة سككا وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهـم أسـجح، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبـر وأطغـى وأكفر" [6] "، أما مدينة مسينة فهي" مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر فيها لمسلم قـرار،

---

1 - القلصادي ، الرحلة ، ص 92 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص 573 .

3 - الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، ص 57.

4- ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار ،ص 237 .

5 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 238 .

6 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 238 .

مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، مملوءة نتنـا ورجسا، موحشة لا توجد لغريب أنساً"[1].

وهذه المقارنة التي يعقدها ابن جبير بين المدن تشير إلـى عمـق رؤيتـه لها،[2] حيث يستشعر أنه غريب في بلاد كانت من قبل من أملاك المسلمين وصارت في أيدي أعدائهم، ويبدو أن ابن جبير كان أقل شعوراً بالغربة في مدينة صور فأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين، أما أوضاع المسلمين فيهـا فهي أقل سوءا من مدينة عكا ومسينة اللتين لا يوجد فيهما لغريب أنس، وقد ساعده هذا التوضيح وهذا التصوير" أن يقدم تصوراته العقلية وأحاسيسه النفسية الـصادقة دون مواربة على نحو أعان على إثراء رحلته "[3] .

ولا يتردد ابن جبير في أن يطلق على أهلها الصفات القبيحة، يقول "وهـذا الخنزير، صاحب عكة، المسمى عندهم بالملك، محجوب لا يظهر، وقـد ابـتلاه ا بالجذام، فعجل له سوء الانتقام "[4].

وجدير بالملاحظة أن الإدريسي كان متحفظاً في إطلاق إشارات الرفض أو التقديس للأمكنة، فهو" لم يشر أدنى إشارة عدائية حيال الصليبيين في بـلاد الـشام، على الرغم من أنه مر بمناطق خاضعة لاحتلالهم "[5]، فمن المتوقـع أنـه شـاهد المسلمين الخاضعين لاحتلالهم العسكري، لكنه لم يتناول أولئك المسلمين البتـة،كما أنه لم يشر إلى اختلاف عقيدته الإسلامية عن معتقدات المسيحيين، فهو يصف كنيسة في القدس ويشير إلى وجود رجال ونساء محبوسين يبتغون بذلك أجر ا سبحانه[6]، وعندما تعرض للحديث عن اليعازر لم يشر إلى أن السيد المسيح أحيـاه بـإذن ا

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 235 .

2 - عوض،الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص 289

3 - عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص 287

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 242.

5- عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص 31

6 -الإدريسي، نزهة المشتاق، مج1 ص 361 .

تبارك وتعالى[1]،ويقول محمد أحمد عوض :"يبدو أن التعليل المنطقي لكل ذلك أنه ألف كتابه لروجر ملك صقلية، ومن ثم تناول الأماكن المقدسة المسيحية والرهبانية، بتلك العبارات المعتدلة واللينة، والتي فيها قدر لا يمكن إغفاله من المداراة "[2]، وترى الباحثة أن ذلك الاعتدال يشير إلى اتصاف الكاتب بالموضوعية، والبعد عن الانحياز لطرف من الأطراف .

ويتعلق رفض الرحالة للمكان بطبيعة جوه ومناخه أحياناً أخرى، فهذا ابن جبير يصف بلدة عيذاب[3] :" ..... حسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنّى عن هذه البلدة بقوله :" ماء زعاق وجو كله لهب "[4] .

ويقول العبدري بعد أن يصف بلدة آنسا من بلاد المغرب وجمالياتها معللاً بغضه لها بوجود العدو فيها :" وأما بلد آنسا جبره ا فهو بلد منفسح منشرح في بسيط مليح طيب التربة يغل كثيرا وبه ماء جار كثير ونخل وبساتين وهو آخر بلاد السوس من أعلاه متصل بالجبل مشرف على السوس، وكان فيما مضى مدينة كبيرة فتوالت عليها الخطوب المجتاحة، ونزول الأقدار المتاحة حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين وعادت بعاديات الزمان أثرا بعد عين، فليس بها إلا رسوم حائلة وطلول مائلة ....."[5].

فهذه البلدة تتمتع بخصال فريدة فهي طيبة التربة منفسحة، غلتها كثيرة بسبب ما تمتاز به من ماء جار وبساتين كثيرة،فكل من يقرأ هذه المقدمة فإنه ينتظر مزيداً من الإطراء والمدح لهذا المكان، لكن الرحالة يكسر أفق التوقعات بسبب ما

---

1 -الإدريسي، نزهة المشتاق، مج1 ص 361 .

2 - عوض،الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص 29-30 .

3 - بليدة على ضفة بحر القلزم(البحر الأحمر)، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، انظر الحموي،معجم البلدان، ج4 ص171 .

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص52

5 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 8 .

أضافه من تبدل حال هذا المكان بسبب عاديات الزمان، فقد تحولت هذه الغابة أثـراً بعد عين، وصارت رؤيتها أذى في المقلتين .

أما أهل هذا المكان فإنهم يضفون عليه من أخلاقهم ما يزيد الإنسان كرهـا له، فالإنسان يعشق المكان لأسباب تتعلق بأهل ذلك المكان، ويرفضه ويبتعد عنه لما يترك في نفسه من أثر فبلدة قاطية منبوذة " لعظم ضرها للـوارد وقهرهـا، تُفـتش متاعه، وتُنهب رقاعه، وتُستلب من بين يديه فلا بيعه ولا ابتياعه، وفي مثلها يغضب الحليم فيحذر وينفث المصدور فيعذر"[1].

ويرفض العبدري طرابلس لأنها سيئة المنـاخ سـيئة الـسكان، يـسكنها النصارى الذين يتسمون بسوء المعاملة للزائر، فهم أهل نفاق وكفر، فهو يذمها بأبشع الصفات " فقد استولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً، ولا تجتلي روضا يحوي نوراً ولا زهراً، بل هي أقفر من جوف حمار، وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس على ناشئ منهم فضل لذي شيبة ولا لذي الفضل بينهم هيبة، ترى أجساماً حاضرة والعقـول فـي عقـل غيابـات الغيبة"[2].

أما الصالحية وهي أول بلاد مصر من جهة غزة فهي :" قرية تقري ضيفها قرا وطوى، وتوحشه من أنسها حتى يأنس بالذيب إن عوى "[3].

وقد أطلق الرحالة على الأماكن عبارات تدل على الرضا أحيانـا، مثـل" مدينة الكوفة حرسها ا تعالى " مدينة حماة حماها ا "" بعلبك أعادها ا " وقـول ابن الخطيب " واستقبلنا المرية عصمها ا "[4]، " مكة زادها ا تـشريفاً ومهابـة

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص18 .

2 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 77 .

3 - العبدري،الرحلة المغربية، ص 233 .

4 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 47 .

وتكريماً"[1]، وعدم الرضا والضيق أحياناً أخرى، مثل قول ابن جبير:" عكا دمرهـا وأعادها "، و"البلادة الملعونة"[2] في وصف عيذاب .

4.2 أمكنة الواقع والمتخيل:

الرحلة قد تكون فعلية حيث يقوم بها الرحالة فعلاً على أرض الواقع متنقلاً بجسده من مكان إلى آخر معايناً وواصفا للمشاهد والمحسوس[3]، وتأتي عكس ذلـك الرحلة الخيالية، فلا يتنقل الكاتب فيها على الحقيقة والواقع بل يطلق عنـان تفكيـره لينقله إلى عوالم أخرى وأمكنة غير مألوفة، فيذكر الكاتب أحداثاً ويصف أمكنة لـم يرها سوى خياله .

ومع أن رحلات الواقع تشكل في حقيقة الأمر أساس أدب الرحلات، إلا أنه يمكن توسيع مجال أدب الرحلات ليتضمن كل ما يكتبه الرحالة سواء من سار منهم في البقاع، أو من تجول مع الأفكار، وأخذ الخيال منه كل مأخذ[4]، فالخيـال هـو: الصورة التي يراها النائم في الحلم، أو المتخيلة في اليقظة، ويحدد الخيـال بكونـه مجمل العمليات الذهنية التي تتولد عنها الصور، وقد تنشأ عن عمليـة استحـضار الإحساسات في حال غياب الأشياء، التي كانت سببا في عملية الاستحضار[5].

إن مدونات الرحالة تم تدوينها من مخيلة الرحالة، وهنا يمكننـا القـول إن الرحلات الفعلية قد مرت بمرحلتين قبل التدوين : المرحلة الأولى: وهي المرحلـة الحقيقية الفعلية، ثم المرحلة الثانية: وهي مرحلة المتخيل وحفظها في الـذاكرة، ثـم تدوينها كتابة. وهناك نوع من الرحلات وهي الرحلات الخيالية، وهذه في حقيقتهـا رحلات خيالية، لا وجود لها في الواقع، وإنما أتت من مخيلة الرحالة .

---

1 - التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص230 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 52 .

3 - فهيم، أدب الرحلات ، ص 150 .

4 - فهيم، أدب الرحلات، ص150 .

5 - مويقن، المصطفى، بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، دار الحوار للنـشر والتوزيـع، سوريا، ط1، 2005، ص77 .

وبمقدور التخيل أن يتجاوز حرفية المعطيات الخارجية، ولا يلتـزم بقيـود تفرض عليه من مادتها المحسوسة، ولذلك فإن فاعلية القوة المتخيلة تبتكر لصاحبها أشكالا خيالية لم تعرض للحس من قبل؛ إذ يمكن للإنسان بهذه القوة أن يتخيل جملاً على رأس نخله، أو نخلة على رأس إنسان؛[1]ولذا فإن مساحة الخيال غير محـددة بأفق معين، فالرحالة له أن يسرح بخياله إلى أبعد مدى، فيقلب المـوازين، ويغيـر العادات، ويحرك الساكن، وينطق الصامت،" ويعتبر سـبينوزا أن التخيـل قـوة لا أخلاقية، فهو في نظره قائم على أساس الأفكار غير المطابقة للواقع".[2]

والكاتب في الرحلة الخيالية خاضع في كل أوقاته لرؤية الذات، مستـسلم لاعتقاداتها وخيالاتها، مؤمن بأفكارها المنبثقة أحيانا من الحلم، كرحلة ابن العربـي التي يمكننا اعتبارها مخالفة للواقع تماماً،فكاتب الرحلة له الحق في تشكيل المكـان والإنسان وفقاً لنظرته وزاوية نظره التي تميزه عن غيرة من الرحالة.

وقد كان لبعض النقاد رأي آخر في هذه الرحلات، فحسين نصار يـرى أن الرحلة الخيالية لا تعد من أدب الرحلات، وإنما تعد من جنس أدبي شقيق له، وهـو فن القصة[3]، ويأتي تصنيف الرحلة الخيالية في باب الرحلات وذلك لأنها تقوم على الانتقال من مكان إلى آخر ولو في الخيال، ثم أنها تشتمل علـى وصـف للأمكنـة وتفصيل للأحداث، وحوار مع شخصيات حقيقية في بعض الأحيان .

ويرى شعيب حليفي أن المتخيل في الرحلات يتمظهر من خـلال قطبـين متسعين يضمان عدة عناصر صغرى، تتدرج هذه العناصر ضمن محور الـواقعي والخيالي، وهذا التقسيم قريب جدا من تقسيم الغزالي للسفر، حيـث رأى أن الـسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات، وهذا هو السفر الواقعي، أما السفر الثاني فهو السفر الذي يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات، وهو ما يمكن تسميته السفر الباطن . وبناء على ذلك يرى حليفي

1 - مويقن، بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، 106 .

2 - مويقن، بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، ص78 .

3 - نصار، أدب الرحلة، ص49 .

أن المتخيل يحضر في هذين النوعين من السفر بنـسب متفاوتـة وبخـصوصيات مختلفة[1] .

أما الرحلات الخيالية فهي التي " تنطلق من تصورات فلسفية أو تأملات في الوجود، ذات خلفية دينية أو أدبية تعتمد البناء الغيبي – الماورائي "[2]، فرحلة ابـن عربي(الإسراء إلى مقام الأسرى) جاءت على هذا النهج، فهي رحلة خيالية على غرار رحلة الإسراء والمعراج النبوية، ولكن رحلة الإسراء والمعراج التي قام بهـا سيدنا محمد صلى ا عليه وسلم رحلة واقعية حقيقية حسية، أما رحلة ابن عربـي فخيالية على شكل حلم " معراج منامي روحي معنوي"[3]، حيث تجـول فيهـا ابـن عربي في السموات السبع، وقد ترجم بالحروف ما يلقى إليه من المعاني، دون زيادة ولا نقصان، ورحلته" الهام علمي لا يقترب من أعتاب الوحي النبوي" [4].

ومهما يكن من أمر فإن المكان حيز لأحداث وحالات وتوقعات وصور قـد تكون فعلية، وقد تكون صدى لتجارب أو ذكريات سابقة، وقد تكون خيالية خالصة، وقد تكون كل ذلك معا [5] .

وفي الحقيقة لا يوجد مكان واقعي في الفن مهما حاول الرحالة إثبات ذلك، فالوصف الواقعي عملية بعيدة عن الأدب، فقد"غلا بعضهم في ذلك، فجـاء حـديثهم أخبارا علمية جافة "[6]، ويمكننا تصنيفها في باب الجغرافيا ففي وصـف البكـري للبحرين نلاحظ مدى دقته كرحالة في إثبات واقعية هذا المكان، يقـول: " وهـي بلاد واسعة شرقيها ساحل البحر، وغربيها متـصل باليمامـة، وشـمالها متـصل بالبصرة، وجنوبها متصل ببلاد عمان وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهـار و العيـون،

---

1 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي ، ص 256-257 .

2 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي ، ص257 .

3 -ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص35.

4 -ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص 18-19 .

5 - انظر : زايد، عبد الصمد، المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة) دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2003 .، ص 391 .

6 - نصار،أدب الرحلة، ص116 .

عذبة المياه ينبطون المياه على القامة والقامتين، وهي كثيرة النخل والفواكه، ولهـم ثمر يسمى المانجى إذا نبذ وشرب اصفرت الثياب من عرقه، وبساتينهم على نحـو ميل منها ولا يأتونها إلا غدوا أو رواحا لإفراط حر الرمضاء، وأن حوافر الـدواب تسقط من حرقه، وهي مخصوصة بعظم الطحال "[1] .

ومع ذلك فإن هذا التصوير مهما بلغ من الدقة والوصف الجاف، فإنـه لـن يبلغ الصورة الحقيقية التي نراها في الواقع، وقد أشار موباسـان إلـى أن الفنـان الواقعي الحقيقي، لن يحاول عرض الحياة في صور فوتوغرافيـة سـاذجة ولكنـه سيذهب إلى عرض صورة أكثر حقيقية وحيوية وكمالا من الحقيقة نفسها [2]، وهذه الصور الدقيقة لن يكون لها الأثر الذي تتركه الصورة المتخيلة، فكلما تضمن النص خيالاً كان أقرب إلى إحساس المتلقي .

وقد تناول الباحثون والنقاد أشكال الصلات بين المكان الواقعي والخيـالي، واعتبروهما مكانين منفصلين في غالب الأحيان[3]، كما كثرت المقارنات بين واقعية الواقع الموضوعي وواقعية انعكاسه في الفن، فاعتبر الواقـع الموضـوعي أكثـر غرابة، وأقل واقعية بالتالي من ذلك الذي يمكن أن يطرحه الفن[4] .

ويحدث التقاطع بين الواقعي والخيال في الحديث عما ينتجـه الخيـال مـن أحلام وتصورات، ولكن العقل السليم يعجز عن تصورها واستيعابها، ومن هنا يبدأ المتلقي بوضع علامات استفهام حولها، والسؤال عما يقصده الرحالة من وراء ذلك، وما الإيحاء المراد بثه من خلال قلب الواقع، والابتعاد عن الطبيعة فمدينة النحـاس التي بنتها الجن لسليمان، غير موجودة على الواقع، ولكن الرحالة ضمن هذه القصة أشخاصاً حقيقيين للإمعان في واقعيتها، فجاء فيها الحديث المروي عن هقـل بـن

---

1 - البكري، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، ص 38 .

2 - انظر : قاسم، سيزا أحمد، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيـب محفـوظ)، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، 1984م، ص 78 .

3 -انظر : صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شـرقيات للنـشر والتوزيع، ط1997،1 م ص 88 .

4-انظر: صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر،ص 88 .

زياد[1]:أن عبد الملك بن مروان كتب إلى عامله بالمغرب موسى بن نصير أن يذهب إلى مدينة النحاس ويخبره خبرها، وقد خرج موسى بن نصير في عـسكر كثيـف وعدة كثيرة، وبعد مدة من السفر تبلغ أربعين يوماً بدا لهم سور مدينة النحاس كـأن أيدي المخلوقين لم تصنعه[2].

وفي هذه الحكاية يمتزج الواقع بالخيال، فمن الواقع الحديث عـن القـصة بطريقة الرواية من شخص معروف وثقة وهو من حفاظ الحديث[3]،هو هقل بن زياد السكسكي، مما يضفي على الحكاية مزيداً من الواقعية، فضلاً عن ذكـر الأسـماء الحقيقية كعبد الملك بن مروان و موسى بن نصير وسيدنا سليمان، لكن الخيال يتمثل في ذهاب موسى بن نصير إلى هذه المدينة ومحاولته دخولها مع عـدد كبيـر مـن الجيش، ثم أنه عجز عن دخول السور لطوله وعدم وجود أبواب للدخول إليه، وفي امتزاج الحقيقة بالخيال محاولة لإيهام المتلقي بحقيقة الأحداث وواقعية المكان المقدم من قبل الرحالة.

كما أن وصف المكان وتحديد معالمه يوهم أيضاً بواقعية الحكاية، يقول في ذلك :" في فيافي الأندلس بالمغرب الأقصى قريباً من بحر الظلمـات"[4]، فمجـرد وصف أشياء ليس لها وجود واقعي أو أشياء من عالم الخيال، وتجسيدها على الورق يطرح إلى ذهن القارئ إمكانية وجودها الواقعي، أو إمكانية البحث الذهني عنها .[5]

وتتضح من خلال المكان الخيالي والمفترض مصداقية الواقـع، فالرحالـة يسعى من خلال تسجيله لهذا المكان إلى إلغاء تاريخه الحقيقي وجغرافيته المعاشـة، والهروب من الواقع، وخلق أمكنة جديدة ووهمية، أو الوصول إلـى أمـاكن مـن

---

1 - هقل بن زياد السكسكي بالولاء، أبو عبد ا ، من حفاظ الحديث الثقات، دمـشقي المولـد، اسمه عبد ا أو محمد وهقل لقب غاب عليه، توفي في بيروت عام(179هـ). انظر: الزركلي، الأعلام، ج8 ص89-90 .

2 - أنظر القصة :الغرناطي، الرحلة ،ص 44 وما بعدها .

3 - انظر: الزركلي، الأعلام، ج8، ص89-90 .

4 - أنظر القصة : الغرناطي،الرحلة، ص 44 وما بعدها .

5 - صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ص 89 .

الصعب الوصول إليها، مفترضاً أن كل الأماكن أماكن صـالحة للعـيش، و هـذه المحاولات تعبر عن رفض الواقع ومحاولة تغييره، أو الهروب منه ولو خيالياً.

فمحاولات الغرناطي حصر رحلته في تسجيل الغرائب تنم بشكل كبير عـن عشقه للغرائب، ومحاولة تجاهل الحقائق، فنلاحظ فـي رواياتـه إضـفاء الـوهمي والخيالي حتى على الأماكن الحقيقية المعروفة، فهو يصف مثلاً مدينة عظيمة اسمها اللجاة [1] من مدن بلاد الشام ما يعجز عن وصفه ألسن العقلاء، فكل دار مبنية مـن حجر الصخر المنحوت وليس فيها خشبة واحدة، وفي كل دار بئر ورحى، وكل دار منفردة لا تلاقها دار أخرى، والأبواب من الحجر الخالص، فإذا خاف أهل المكـان قام بجمع عياله وغنمه وخيله وبقره وأغلق الباب، ووضع خلفه حجارة، فـلا يقـدر أحد على فتحه، ثم يقول أن المدينة فيها أكثر من مائتي ألف بيت[2]. . وهذا الحديث لم يرد في كتب الرحلات أو حتى في معاجم البلدان .

وترتبط الشخصيات بالمكان الخيالي ارتباطا حميمياً، ويصبح للمكان "قيمـة شعورية خاصة، تعكس وجهة نظر الشخصيات، وتحدد سلوكها وأبعادهـا الداخليـة والخارجية "[3]، وقد جاء المكان في رحلة " السموات العلى " في رحلة ابن عربي، محاولة لإثبات تفرده واختلافه عن غيره، فما مر مر به من مجاهـدات وتجـارب روحية جديرة بأن تجعله رئيساً لجماعة الصوفية.

ويأتي الخيال من عنوان الرحلة، "الإسراء إلى مقام الأسرى "، فهذا العنوان له دلالته الخاصة التي يكتسبها، فهو يولد معاني موجهة لأفق انتظار معين، يعيد بنا الذاكرة لقصة الإسراء والمعراج العجائبية، وهو يأتي بمثابة إضاءة لمكان الرحلـة

---

1 - اسم للحرة السوداء من نواحي الشام، فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة . انظر : الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 13 .

2 - أبو حامد الغرناطي، الرحلة، ص 75 .

3 - نمر، إبراهيم موسى، جماليات التشكيل الزماني والمكـاني (الروايـة الحـواف)، مجلـة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، 1993، ص 303 .

المشار إليها في السموات، ويلتقي فيها بشخـصيات فـي أزمـان مختلفـة، وهـذه الشخصيات والأماكن الغريبة هي" الشيء الذي يولد حيرة وتردداً عند المتلقي"[1].

ويعتبر العالم الذي يصنعه الرحالة انزياحاً عن عالم الواقع باتجـاه عـالم متخيل، وإن كان في الأصل يستمده من عالم الواقع[2]، فأحداث رحلة "الإسراء إلى مقام الأسرى "مأخوذة من أحداث قصة الإسراء والمعراج الواقعية، حيث يرى ابـن عربي أن المعراج النبوي كان انتقالاً فعلياً وليس انتقالاً روحياً فقط، ويتـضح هـذا حين "يؤكد أن ا معنا أينما كنا، فهو ينقل العبد من مكان إلى آخر لا ليراه بل ليريه من آياته، أو ليريه ما خص به المكان من الآيات الدالة عليه تعالى: "[3] ويؤكد ابن عربي أيضاً أن رحلته رحلة روحية غير مادية بقوله " وهذا معراج أرواح الوارثين سنن النبيين والمرسلين، وهو معراج أرواح لا أشباح، وإسراء أسـرار لا أسـوار ورؤية جنان[4] لا عيان، وسلوك معرفة ذوق وتحقيق، لا سلوك مسافة وطريق، إلى سموات معنى لا مغنى"[5] .

ويلاحظ الباحث أن الأحداث في المكان المتخيل تختلف عن الأحداث فـي المكان الواقعي اختلافاً جوهرياً يجعلها قادرة على أن تسم المكان بسمات تجعل لـه تأثيرات واضحة على كل شخصية ما من شخصيات الرحلة، أو العكس حيث تخلـع الشخصية على الأشياء الخارجية صفات جديدة، تكون معادلا لما يدور في داخـل الشخصية من أحاسيس ومشاعر، ففي السماء الأولى يقول السالك " ابن عربي": فقال

---

1 - مويقن، بنية المتخيل، ص 232.

2 - نمر، جماليات التشكيل الزماني والمكاني ، ص313.

3 - الوكيل، سعيد، تحليل النص السردي (معارج ابن عربي نموذجا) الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص50 .

4 - الجنان: الجنان، بالفتح: القَلْب لاستِتاره في الصدر، وقيل: لِوعيه الأَشْياء وجمعِه لها، لسان العرب، باب جنن .

5 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص53 .

لي هنا مدرس شديد البحث والنظر، صحيح النقل والخبر، يكنى أبا البشر، يـدرس بمسجد القمر، في أمره عجاب، ليس بينك وبينه حجاب "[1].

حيث نلاحظ أن الشخصية الحقيقية في الرحلة، أضفت على المكان صـفات جديدة، فالأمكنة الخيالية مشابهة تماماً للأمكنة الواقعية، إلا أن الأحداث هذه لم تحدث في الرحلة الحقيقية، فللقمر موجود حقيقة، لكننا نجد لـه مـسجداً وحلقـات درس، والمدرس هو سيدنا آدم عليه السلام "أبو البشر"، حيث يعـود بنـا الرحالـة إلـى الماضي البعيد ويستحضر شخصية حقيقة، ويجعلها تعيش في زمن ابن عربي ولمن في مكانٍ مختلف، حيث يلتقي ابن عربي بسيدنا آدم على سطح القمر "وهنا يكـون تشكيل اللامعقول من مفردات تنتمي إلى الواقعي في ظاهرها لكنها تتجـاوزه فـي جوهرها ودلالتها"[2]، فهو لا يعكس الواقع وإنما يعيد خلق واقع جديد مـن خـلال الخيال الأدبي؛لعلة في نفس الأديب لا يفصح عنها وإنما يتم تأويلها من خلال آليـة تلقي النص وتحليله .

ولعل التميز والتفوق هو ما دعا ابن عربي لكتابة هذه الرحلة، فجعلها مماثلة لرحلة سيدنا محمد صلى ا عليه وسلم الخارقة للمألوف، حيث يظـن الباحـث أن هدف التميز على أقرانه من المتصوفة جاء أيضاً من عنوان الرحلة ومكانها، فكمـا أن سيدنا محمد صلى ا عليه وسلم منح الخارق وغير المألوف، وتفوق بقـدرة ا عز وجل على غيره من البشر، كذلك ابن عربي منح الوصول إلى التفوق والتفرد وقد أشار أحد الباحثين إلى رغبة التميز عند ابن عربي أثناء تحليله للرحلة من خلال قول ابن عربي "رجاء أن أتبرز في صدر ذلك الطريق"[3]

إن تشخيص المكان في الرحلة، هو الذي يجعل من أحداثها بالنسبة للقـارئ شيئاً مؤكد الوقوع، بمعنى يؤكد واقعيتها، إنه يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور

---

1 - ابن عربي،الإسراء إلى مقام الأسرى، ص77 .

2 - سامي، سحر، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، 2005م ، ص 144

3 - سرحان، رحلة محيي الدين بن عربي "رموز المكان وتمثلات السرد"، ص 118 .

والخشبة في المسرح، وطبيعي إن أي حدث لا يمكن أن يتصور وقوعه إلا ضـمن إطار مكاني معين[1] .

وقد جاء هذا الاعتراف من منظور ابن عربي حيث نجد أن عـالم الخيـال عنده "يمثل الكون بظاهره الحسي وباطنه الغيبي التجريدي أو هـو المـادة ومـا وراءها "[2] وأحيانا يعني لديه " كل موجود أو وحدة من وحدات الكون سواء كانت من خلق ا أو من خلق الإنسان "[3]." فالخيال هو المنطقة التي يتحد فيها المحسوس واللامحسوس والتي توجد فيها الأشياء التي يسعى الصوفي لإدراكها وتأخذ أبعـادا وملامح "[4] جديدة.

ومع تأكيده على امتزاج الواقع بالخيال، إلا إننا نلاحظ أن " مجاوزة السياق العادي في اللغة وطرائق التفكير عنصر أساسي في مبادئ الشعرية عند المتـصوفة التي هي بذاتها تمثل الانفلات من الواقع وقيود المألوف" [5]،ولأول وهلة ومن خلال عنوان الكتاب نجد هروب ابن عربي عن المكان الأرضي المـدنس إلـى المكـان الخيالي المقدس، فالرحالة في سفر دائم في المكان والزمان بحثـا عـن المقـدس؛ فالمكان الذي يرفض ابن عربي مقاييسه أو يبعده عن مكانه الحقيقي فـي جـوهر الوجود هو الأرض [6].

وعلى الرغم من أن الواقعية هي ما تميز أدب الرحلات، فالرحالة هو نفسه إنسان واقعي، عاش في فترة زمنية محددة، والأشخاص المتحدث عـنهم واقعيـون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ والأماكن التي يصفها أماكن حقيقة لهـا

1- انظر : لحمداني، حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبـي، المركـز الثقـافي العربي، بيروت، ط3، 1993م، ص65

2 - العطار، سليمان، الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات) دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص 193 .

3 - العطار،الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات)، ص193

4 - سامي، شعرية النص الصوفي ،ص 59 .

5 - سامي، شعرية النص الصوفي، ص 59 .

6 - سامي، شعرية النص الصوفي، ص 179

وجود فعلي على الأرض، فإننا نجد أن رحلة ابن العربي التي جاءت أحداثها فـي السموات السبع، وأشخاصها من عالم الخيال، وهذا ما قد جعلها رحلة خيالية؛ لانتفاء حدوثها على أرض الواقع، وجنوحها نحو الخيـالي، "فيـرتبط الزمـان والمكـان والأحداث بأبعاد فوق طبيعية خارقة تكسر مألوفية تلك المكونات" [1] .

1 - انظر : حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 69 .

الفصل الثالث

الأمكنة المتداخلة

يحتل المكان في ذهن "الراوي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا للحكي وضعية هندسية خاصة تختلف من نص لآخر"[1]، فطريقة تناول المكان تختلف من رحالة إلى آخر، لأن التركيز سيكون منصباً على زاوية الرؤية، وهذا ما سيكشف عن عمق العلاقة بالمكان، وقوة ملاحظة الكاتب، إذ قد يتناول الرحالة المكان مع تركيزه على الناحية الدينية، وقد يصف رحالة آخر جماليات المكان وعمقه التاريخي، ولكن هذا لا يمنع أن يتناول غيرهما المكان من الناحية الطبيعية والجمالية.

وبهذه الطريقة في التناول صور الرحالة كل أشكال الطبيعة التي مروا بها، من جبال وأودية ومدن وقلاع ومساجد وكنائس وقبور وغيرها، وجاء تصويرهم متفاوتاً من حيث الإجمال والإسهاب،[2] وبذلك فإننا نستطيع أن نتبين أمرين دفعاهم إلى هذه الطريقة في التناول[3]، وهما :

1- الرغبة العلمية:

وقد شدد بعضهم على أهمية الدقة في الوصف إلى درجة المبالغة، فجاء حديثهم أخباراً علمية جافة، وهذا ما نجده عند البكري والإدريسي و بنيامين بن يونة التطيلي في رحلته إلى بلاد الشرق الإسلامي، فقد غلب عليهم الحس العلمي، فجاء اهتمامهم بجغرافية المكان ومساحته وحدوده، ولم تتح لهم نظرتهم العلمية الجافة التمتع بجماليات المكان والتغني بها، كما فعل سواهم من الرحالة، ومن ذلك قول الإدريسي" ومدينة تونس في وسط جون خارج عن البحر وهي على بحيرة

---

1 - حليفي،الرحلة في الأدب العربي، ص220 .

2 -انظر: نصار، أدب الرحلة، ص 117 .

3 -انظر: نصار،أدب الرحلة، ص 117 .

محتفرة، وعرضها أكثر من طولها، وذلك أن طولها ستة أميال وعرضـها ثمانيـة أميال، ولها فم متصل بالوادي وهو المسمى فم الوادي "[1].

2- **الحس الجمالي:**

تمتع بعض الرحالة بذوق ناقد وإحساس مرهف ففطنوا إلى مواطن الجمـال في أسفارهم، ووقفوا عندها يتأملون ويتمتعون، "وتركوا لنا لوحات بارعـة تـصور المنظر الجميل، والحس النبيل"[2]. وقد تمثل ذلك في بعض المقدمات التي أتى بهـا بعض الرحالة، مثل مقدمات ابن الخطيب في وصف بعض بلاد الأندلس[3] وأقوال ابن جبير في وصف كثير من المدن، ومنها قوله في وصف حلب : "بلـدة قـدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من التقـديس أثير"[4]، وقد أعجب بهذه المقدمات كثيرون ممن أتوا بعده واقتطفوهـا برمتهـا أو أجزاء منها، فقد اقتبس ابن بطوطة النص السابق كاملا [5]، وكذلك وصـف ابـن جبير لمدينة دمشق [6] .فالمكان يعاد تشكيله في الرحلة بصورة مـا، وذلـك لأنـه يسترجع كأثر في النفس، فيعاد منها ما ارتسم في الذاكرة .

وبالرغم من تعدد غايات الرحالة، وتنوع أوصافهم تبعا لتلك الغايات، فكـل غاية تحتم على الرحالة الاهتمام بناحية من النواحي، حيث التأنق في رسم ملامـح المكان وأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها، فإن " القاعدة المـشتركة عموماً، ترسم ثلاثة أمكنة إطارية كبرى، تتوسع أو تتقاص، وتعكس حيـاة الـسفر والمسافر، فالمكان في الرحلة هو خشبة مسرح من ثلاث طبقات متتالية الظهـور، بأحداثها المتسلسلة والمتداخلة، وبفضائها الهندسي والعلاقات التي تنتسج معه وتشكله في الذهن والذاكرة، لأن المكان وهو يتحول من بناء في الواقع إلى معمـار نـصي

---

1 -الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1ص 285 .

2 - نصار، أدب الرحلة، ص 117 .

3 -ابن الخطيب، خطرة الطيف، مثل (ص 44، وص 46،ص55)

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 195

5 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص 69 .

6 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص82.

يعيد تشكيل ذاته مرة أخرى ضمن التشكيل العام للرحلة، ويطـرح أسـئلة مغـايرة تستبعد كل تبسيط في المنظور الذي يقاربه من زاوية انعكاسات واقعية، وتستحضر المكان كأثر في النفس ورسوم تذكرية"(1)

وهذه المحطات الثلاثة تُعد مشاهد تؤطر النص الرحلي مهما كانت دوافعه، فكل نص رحلي له نقطة أو مشهد انطلاق ومشاهد عبور ومشهد أو مشاهد وصول حسب غاية الرحلة، فالرحلة الحجية لها نقطة وصول واحدة، لكن الرحلة العلمية لها أكثر من نقطة وصول هي نفسها مشاهد العبور، وهناك الرحلات الزياريـة لقبـور الأنبياء والصالحين والزوايا والمزارات –وهي نفسها تحمل أكثـر مـن هـدف -، وتتخذ هذه الرحلات من " الفضاء الواحد والمحدود هدفها، ومن الطقوس والعـادات وبعض الخصوصيات، بالإضافة إلى ترجمة سير الأولياء،وسرد كرامتهم وخـوارق الأحاديث المتصلة بهم، مادة للكتابة وعصباً للرحلة "(2).

إن نص الرحلة يتضمن ثلاث محطات كبرى هي :

1.3 أمكنة الانطلاق :

ينطلق الرحالة من مكانه ومسقط رأسه حاملاً كل ما يشعر به مـن حـزن لفراق الأهل والأصحاب، وآملاً في وجود مكان آخر يسلي عنـه وحدتـه وينـسيه أحزانه، خاصة في الرحلات الحجية .

وأما الأماكن "الأكثر ثراء فهي التي عاشها الإنسان ثم يستحـضرها لأنهـا تكون قد دخلت في جهازه العصبي"(3)، والمكان الذي ارتبط بالنفس وبالأعصاب هو المكان الذي انتقل من المكانية إلى الرمزية، هو المكان الذي ارتبط برمز الأمومـة، وبكل جوانبها العاطفية (4)، وقد ذكر مرسيا الياد مجموعة أماكن متميزة لدى الفـرد

---

1 -حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص220 .

2- حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص96 .

3 -المحادين، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية،ص 31-32.

4 -النابلسي، شاكر، مدار الصحراء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط1، 1991م، ص 234 .

ولها قيمة مختلفة نوعياً عن غيرها من الأماكن منهـا: المـشهد الطبيعـي لمـسقط الرأس، ومكان الحب الأول، أو شارع أو زاوية أو مدينة جرت زيارتها فـي فتـرة الشباب، وهذا يعني أن كل مكان يحمل في زواياه ذكريات الطفولة والصبا يعد مكاناً متميزاً، "وتحافظ على خاصية استثنائية وحيدة : أنها هي الأمكنة المقدسـة لعالمـه الخاص "[1].

وتؤكد الأفعال في بداية الرحلة الانطلاق والعبور حيث تحيل إلـى فـضاء جديد،" وقع العزم ..على تفقد بلادها وأقطارها"[2]، و" وأقلعنا ظهر يوم الخميس"[3]، و"كان خروجي من طنجة "[4]، " كان سفرنا تقبله ا في الخامس والعشرين ...."[5]، فالألفاظ مثل السفر والخروج والانطلاق والإقلاع، ووقوع العزم وتأكيد النية، كلهـا ألفاظ دالة على الحركة والتنقل، وهذه الحركة تستدعي التنقل والترحال من مكـان إلى آخر، ويأتي سرد هذه الأحداث على شكل قصة واقعية .

واستمرار الحديث عن الأمكنة المختلفة يؤكد دائماً تنوعها، الـذي يؤكـد بدوره الحديث عن الترحال والسفر، الذي هو فضاء مفتوح على عـوالم جغرافيـة واجتماعية ودينية وغيره، أن المكان هو ما يؤسس الحكي [6]، وهو مسرح الأحداث، ويقوم بناء الرحلة على التنقل فيه .

إن الدافع الرئيسي لتحريك عملية الوصف عند الرحالة هو تغيـر الأمكنـة وتنوعها، وبالتالي رؤية الغرائب والمفاجآت والمثيرات، وهذه بدورها تحرك الدافعية عن المتلقي للاستمرار في القراءة .

---

1 - الياد، مرسيا، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعـة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1988م، ص 27 .

2 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص32 .

3 -ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 18 .

4 -ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1 ص20

5 -العبدري، الرحلة المغربية، ص 7 .

6- انظر : لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص65 .

ومكان الخروج للرحلة هو الأساس الذي يكون نقطة البداية، منه الانطلاق وإليه الرجوع النهائي والعتبة الرئيسية التي يتم منها الانتقال إلـى أمكنـة أخـرى، يجيء مفتوحاً ومترسباً في النفس لأنه يمثل لحظة ضيق في حياة الرحالـة، حينمـا يضطر للهجرة، أو البحث عن علوم أخرى، أو عن لحظة تطهيرية فـي الحـج أو الزيارات [1].

فالرحالة أصعب ما تكون عليه لحظة الانطلاق من مكان نشأ فيه وترعرع واشتد عوده، يقول البلوي مبيناً الحالة النفسية التي هجر بها دياره " ولما تبرأ التابع من المتبوع، وطفئت نيران الوداع بمياه الدموع، وعطف المودعون لـي بـالعودة لقطرهم والرجوع، وهم بين راجع بالجسم وهو لي بالقلب مصطحب، وضاحك بما يرجو لي وهو على وداعي منتحب، أخذت في الارتحال، وأنشدت بلسان الارتجال، بل بلسان الحال:

ليت شعري أنلتقي بعد هذا   أم وداعاً يكون هذا اللقاء

فاذكروني وزودوني دعاء   خير زاد تزودوني الدعاء"[2]

ويكشف هذا القول عن الحالة النفسية لكل مسافر، فالمسافر المودع لأهلـه وبلده عادة ما يتعلق بأي شيء، فالدعاء الذي يطلبه من مودعيه يزيد مـن رجائـه ويخفف من حالته النفسية التي يعيشها .

وتتراوح تعليقات الرحالة حول أمكنة الانطلاق بين الإيجـاز والإسـهاب، فمنهم من اكتفى بذكر مكان الانطلاق والدعاء له بالسقيا كما فعل القلصادي : " ثم ارتحلت من مسقط رأسي، ومحل أنسي، مع أبناء جنسي، بسطة، سقى ا أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الإحسان "[3]، بينما يتوجه العبدري بالدعاء بـأن يتقبل ا رحلته وأن يحفظ حاحة مكان انطلاقته:" كان سفرنا تقبله ا تعـالى فـي الخامس والعشرين من ذي قعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة مبدؤه من حاحة صانها

---

1 -حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص220 .

2 -البلوي، تاج المفرق، ج1 ص145 .

3 - القلصادي، الرحلة ، ص 92 .

ا "[1]، ومثل هذا فعل ابن جبير بقوله :" وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد ابن جبير من غرناطة،حرسها ا للنية الحجازية "[2] .

وقد يكون تفسير إيجاز الرحالة في الحديث عن مكان الانطلاق في الرحلات الحجية؛ يتمثل في أنهم يعدون المكان الهدف أو المكان المقصود هو المكان الأهـم بالنسبة إليهم .

ويسهب بعض الرحالة في الحديث عن مكان انطلاقته، فهذا ابـن الحـاج الغرناطي النمري،يصف قصبة فاس مكان انطلاقته:"تاج العز الـذي حلـي بـدور المعالي، ومقر الملك الذي فوف برود الأيام وشنف أسماع الليالي، وجنـاب الـسعد الذي راش الدهر جناحه، وشعب المجد الذي أجال في بساط الحمد قداحـه ومقـام الاستيلاء الذي أبدى في آفاق الهدى صباحه، حيث المياه تنساب انـسياب الأراقـم، والرياض تنسي البرود التي بأيدي الرواقم، فما شئت من زهر بليل، وهواء صحيح، ونسيم عليل "[3].

وإيجاز الرحالة وإطنابهم في وصف أمكنة الانطلاق يعود لأسباب منها:

1. علاقة الرحالة بمكان انطلاقته، فكلما كانت تلك العلاقة قوية كان التعبيـر عـن مشاعره تجاهه أكثر بروزاً .
2. قدرة الرحالة على التعبير الأدبي، فكلما امتلك الرحالة اللسان الفصيح، واللغـة القوية والذوق الرفيع، كان أكثر قدرة على التعبير .
3. ترك الأهل والأحبة، فإذا ترك الرحالة من هم بحاجة إليه كالوالدين أو الأبنـاء، فإن ذكراهم ستحرك وجدانه وتذكره بمكانهم دائماً، فيكون هذا المكـان مجـالاً للمقارنة مع الأمكنة الأخرى طالما أنه ترك فيه من أحب، فهذا ابن بطوطة عند شعوره بالغربة في تونس يتذكر والديه وأحبته ومكان سكنه الذي يشبهه بـالعش بكل ما يحمل العش من معاني الجمع والدفء والحنان والأبوة والأسرة الواحدة، يقول: "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي،........منفردا عن رفيـق آنـس

1 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 7 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 17 .

3 - ابن الحاج النمري، فيض العباب في الرحلة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، ج1، ص 151.

بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم، فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والدي بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصبا، ولقيت كما لقيا من الفراق نصيبا ..."[1] .

كما أن رؤية الرحالة لأهل بلدته وهو مسافر تبعث فيه الحنين والشوق إلى مسقط رأسه ومكان طفولته وشبابه، يقول القلصادي:" وبلغنا إلى تونس المحروسة يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر المذكور 1449هـ، فوجدت بها أصحابنا من أهل بسطة وغيرها، وتذكرنا أزمانا كانت هناك كالعرائس، وليالي نفائس، سقى ا أرجاءها المشرقة، وأغصانها المورقة، شآبيب الرضوان، ومنحها الأمن والأمان، فأقمت تلك الأيام نعالج الأشواق، ونطارق ذوات الأطواق، من شدة الشوق والاشتياق (الوافر):

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار "[2]

ويظل لمكان الانطلاق المكانة الأكبر في النفس، ونجد وصف أثره في النفس أكثر من الوصف الحسي المادي وهو ما يطلق عليه " الوصف التعبيري "الذي يحتفل بأثر الأشياء في النفس أكثر من احتفاله بالأشياء ذاتها "[3]، فالرحالة يصف بعد خروجه من موطنه تباريح الوجد للوطن والأهل والأحبة، فهذا ابن الخطيب يطيل التفاته بعد خروجه من غرناطة، فيسأله الصحب عما ترك ؟ فيجيب بأنه ترك فؤاده ! (الخفيف)

يوم أزمعت عنك طي البعاد وعدتني عن الوداع العوادي
قال صحبي وقد أطلت التفاتي أي شيء تركت قلت فؤادي

---

1 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص 20 .

2 - القلصادي، الرحلة، ص 160، ورد البيت في رحلة ابن الخطيب، خطرة الطيف، 54، والبيت من شعر اسحاق النديم الموصلي، انظر: الصفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت764هـ)، الوافي بالوفيات،29ج، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ج8، ص 255 .

3 -الشوابكة، السرد المؤطر في رواية النهايات ..، ص163 .

وربما غلبته لواعج أشواقه، واشتد حنينه قبل خروجه مـن بلـده، وشـبت زفراته في صدره، فعبر عن وجده، وخاطب مكانه العزيز إلى قلبه، معربـاً عـن حسن عهده: (الطويل)

ألا عم صباحا أيها الربع واسلم ودم في جوار ا غير مذمم

ولا عدمت أرجاؤك النور إنها مطالع أقماري وآفـاق أنجـم

إذا نسي الناس العهود وأغفلوا فعهدك في قلبي وذكرك في فم [1]

وهذا البلوي بعد خروجه من بلدة قتورية مـسقط رأسـه يـصف مكـان انطلاقته، وبلده العزيز على قلبه نثراً بقوله: "البلد الذي طال سناه، وطاب مغنـاه، وانتطق بالجوزاء، وناجت أبراجه بروج السماء، فكأنه في الحصانة جبل منيع، وفي الحسن ربيع بديع" ثم يذكر أثر هجره له شعرا بقوله:(الكامل)

بلد صحبت به الصبابة والصبا

ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الفؤاد رأيته

وعليه أغصان الشباب تميد[2]

فعلاقة الرحالة بمكانه هي "علاقة مركزية تُسقط التباسـها بعـد مغادرتـه، فيصبح مرجعا للمقارنة، وأفقا للتذكر والحنين، وما العودة إليـه مـسلحاً بـالعلم أو

1- ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، ص 33 .

2 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 144 .

مطهرا نفسيا إلا رغبة في بداية علاقة جديدة أكثر انفتاحا وشفافية "[1] .

فالقلصادي يتذكر وطنه عند تأهبه للرجوع، حينما كان في مصر، فيقول :" ولما تحركت النفس إلى الظعن، وتذكرت ما ألفته في الوطن، أنشدت بلسان الحـال قول عبد الملك بن حبيب[2] :(الطويل)

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ألا كل غربي إلي حبيـــب
وما الداء إلا أن تكون بغربـــة وحسبك داء أن يقال غريب"[3]

ويتأسى أيضاً بقول القائل:

"ولو أن الغريب عزيز مصر ومستول على ملك العراق
لكان فؤاده أبدا حزينا ومشتاقا إلى يوم التلاق"[4]

فالشعور بالشوق للقاء الأحبة هو الذي يواسي الرحالة، وهو شعور لا تنفرد به فئة من الناس دون غيرها .

وتقوم بين الرحالة ومكان الانطلاق علاقـة حميميـة تعكـسها مقارناتـه واعتزازه حينا، وتحسره وحنينه للأرض والأهل حينا آخر، فمكان الانطـلاق هـو الإطار والوعاء [5]، الذي يحتضن ذكريات الرحالة، فكل زاوية من زوايـاه تحمـل ذكريات وأحزان وأفراح للرحالة، فهذا القلصادي عند حلوله بمصر يستدعي بيتين لابن الرومي في هذا المعنى[6]:(الطويل)

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

---

1 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص220 .

2 - هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي ت(238هـ)، كان جماعاً للعلم كثير الكتب، فقيها نحويا عروضياً شاعراً، وكان أكثر من يختلف إليه الملوك وأبناؤهم . انظر: ابـن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م3، ص548-552 .

3 - القلصادي، الرحلة ،ص156

4 - القلصادي، الرحلة، ص 158 .

5 - انظر: حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 220 .

6 - الرومي، أبو الحسن علي بن العباس، ت283هـ، ديوان ابن الرومـي، 6ج، دار مكتبـة الهلال، بيروت، ط1، 1991م، ج5، ص19 .

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فحنّـُوا لذلكا

فالبلوي على الرغم من بعده عن مكان انطلاقته، إلا أنه يتذكره في أغلب الأماكن التي يحل بها، يقول عند دخوله الجزائر"إلى أن وردنا مدينة الجزائر في آخر يوم الخميس ...والنهار قد تحول، والقلب لا يصبو إلا لأول منزل، ولا يحن إلا إلى الحبيب الأول"[1] فكأننا نراه لا يحس بوجود الأمكنة التي يمر بها لأنه معلق القلب بأعز مكان إلى نفسه.

ثم يتذكر أهله وأحبته وبلدته أثناء وجوده في مصر: فيقول: (الخفيف)

أيها الراكب الميمم أرضي بلغن بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض

قد قضى ا بيننا بافتراق فعسى باجتماعنا سوف يقضي [2]

تبدو العلاقة مع أمكنة الانطلاق نفسية وجدانية معقدة داخل بؤرة حنينية تغذي الأحداث وتلونها، يقول البلوي حين يجد صعوبة في تحريك قدميه من بلدته: (الطويل)

أقول لصحبي حين ساروا ترفقوا لعلي أرى من بالجناب الممنع

وألثم أرضاً ينبت العز تربها وأسقي ثراها من سحائب أدمعي

وينظر طرفي أين أترك مهجتي فقد أقسمتْ أن لا تسير غدا معي

وما أنا إن خلفتها متأسفاً عليها وقد حلت بأكرم موضع[3]

فهو يجد في التأني والبكاء ووداع الأحبة محاولة لمواساة النفس، مع أن نفسه لن تفارق مكانها وسيذهب هو بجسده فقط، كما أن قلبه سيبقى نابضاً بحب من ترك خلفه، ويقول القلصادي في هذا المعنى: (البسيط)

---

1 -البلوي، تاج المفرق، ج1ص152 .

2- البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 235، الأبيات من شعر عبد الرحمن بن معاوية، الملقب بالداخل، وهناك اختلاف في رواية البيت الأول والثالث . انظر : المراكشي، عبد الواحد (ت581هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م، ص 28 .والحميدي، جذوة المقتبس، ص9 .

3- البلوي، تاج المفرق، ج1،ص245

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسى وأسهرت ناظراً قد طال ما نعسا

أنى يكون اجتماع بين مفترق جسم بمصر وقلب حل أندلسا [(1)]

وحال هؤلاء الرحالة كحال البلوي بعد فراق مسقط رأسه ومكان انطلاقته، فعند دخول كل مكان غير مألوف وجديد يقول: " دخلت المدينة بقلب غير داخـل، وتلقيت المنام بطرف شحيح بالكرى باخل، ويردد قول الشاعر: [(2)](الكامل)

البين جرعني نَقيع الحنظَل والبين أثكلني وإن لم أُثكل

ما حسرتي أن كنتُ أقضي إنما حسرات نَفسي أنني لم أفعل

وكما ترك مكان الانطلاق أثره في النفس، فتاريخ الخروج لا بد أن ينـال حظه أيضاً، فهو محطة زمنية لا يمكن إغفالها، فبالإضافة إلى ذكره نثراً، لا بد من التغني به وتذكره لأنه يذكر بالوطن والأهل والحبيب، يقول البلوي في ذلك :"فوقـع اتفاق الخروج من ضحوة يوم السبت، الثامن عشر لصفر من عـام سـتة وثلاثـين وسبعمائة، مودعاً لجميع الأهل، ومتجرعاً من ذلك ما ليس بالعـذب ولا بالـسهل، (الطويل)

أأذهبت أيام الشبيبة والنـوى وأتلفت باقي العمر ؟ يا ضحوة السبت

فقل لجديد العيش لا بد من بلى وقل لاجتماع الشمل لا بـد من شتِ" [(3)]

فانطلاقة الرحالة تقضي على ما تبقى لديه من أمل في العـودة، فـشعوره العميق بالحزن لحظة الانطلاق تفقده الأمل بالعودة، ولكن وجود هدف واضح أمامه يسعى إلى تحقيقه هو ما يحفّزه ويحركه للسير .

ويظل تمثل فضاء الانطلاق غائباً حاضراً في الرحالة قبل تـدوينها، ولكنـه يسقط أثناء التقييد لكون دواعي الحنين وتحرقاته لم تعد لهـا ضـرورة، بحجـة أن

---

1 - القلصادي، الرحلة، ص 148 .

2 - البيتان لأبي تمام انظر : الحاوي، شرح ديوان أبي تمام ،ص764 .

3 - البلوي، تاج المفرق، ج1ص144-145 .

النص يكتب بعد نهايته[1]، فما نجده عند ابن الخطيب والبلوي من لوعة وحرقة يشير إلى تدوين هذا الشوق ساعة الوداع [2].

وإذا كان حضور مكان الانطلاق في عدد من النصوص مسألة تدعوها آليات الكتابة في الرحلة وخصوصا النصوص العلمية – الأدبية، والحجية – الزيارية، فإن الرحلات الخيالية تغيب فضاء الانطلاق وكذلك فضاء العبور، فيما تركز على الفضاء الهدف[3]، وهذا ما نجده في رحلة ابن العربي الخيالية، فقد انطلق في هذه الرحلة من بلاد الأندلس على ظهر البراق حتى بيت المقدس، وصلى ركعتين في المسجد الأقصى ثم عرج إلى السموات السبع،يقول"خرجت من بلاد الأندلس أريد بيت المقدس، وقد اتخذت الاستسلام جوادا، والمجاهدة مهادا، والتوكل زادا "[4] .

إن مكان الانطلاق له هذه الأهمية في وجدان الرحالة والإنسان بشكل عام وذلك لأن الإنسان "ينجذب إلى البراءة دائما "[5]؛ لأنها ترتبط بالطفولة، وكذلك الطفولة ترتبط بالمكان الأول، "لأنه المكان الوحيد الموثوق"[6]، فرؤيته تفجر فينا المشاعر المتدفقة، فيبقى دائما حيا متمركزا كنواة داخلنا، وحال شعورنا بالغربة سنتذكر مكان الانطلاق الذي سيخفف عنا آلام الغربة .

ومن الملاحظ حول أمكنة الانطلاق أن الرحالة حين يذكر مكان انطلاقته ويستعر في قلبه الحنين والشوق إليه، فإنه يذكر ذلك شعرا وقد يستدعي أبياتا لشعراء سابقين، وتعليل ذلك أن الشعر أكثر تعبيراً عن الحالة النفسية من النثر،

---

1 - انظر : حليفي،الرحلة في الأدب العربي، ص 221 .

2 - البلوي، تاج المفرق، ج1ص144-145، وص 245، ص 152، وانظر : ابن الخطيب، خطرة الطيف ،ص33 .

3 - انظر : حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 221 .

4 -ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص57 .

5 - المناصرة، عز الدين، شاعرية التاريخ والأمكنة "حوارات مع الشاعر عز الدين المناصرة " المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2000م، ص 655 .

6 - المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 655 .

وأقدر على توصيل المشاعر والأحاسيس، إذ لم نجد هذا الزخم الكبير من الشعر إلا عند الحديث عن أماكن الانطلاق .

2.3 أمكنة العبور:

مكان العبور هو المكان الذي يمر به الرحالة متجها إلى المكـان الهـدف، فيكون مروره به مروراً عابراً، راصداً أثناء ذلك بعض المشاهدات التـي أثـارت انتباهه، فقد يذكره الرحالة بالاسم هذا إذ لم يلفت انتباهه به شيء مهم، وقد يـسهب الرحالة ويطيل عند عبوره من مكان ما، وقد أطلق عليه حليفي المكان الجسر لأنـه يمتد جسرا بين مكان الانطلاق ومكان الهدف، ومن خلاله يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور وإنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب، مما يجعل العبور أخصب مرحلة في الرحلة نظراً لتعدد الأمكنة وتنوع التجارب من جراء اللقـاءات والصدامات والمفاجآت، وكلما كانت نقط العبور كثيرة، حققت للـنص ثـراء فـي الحكايات والصور، فيجيء الحديث عن وقائع العبور أغنى وأكبر حجماً من وقـائع المكان الهدف[1]، وقد اهتم أكثر الرحالة بإبانة الطرق التي سلكوها، والمنازل التـي وقفوا بها وما صادفهم بها من عوائق.

ويمكننا تقسيم أمكنة العبور إلى قسمين :

1- الأمكنة الجاذبة التي يرغبها الرحالة وينجذب إليها،لذلك فهو يقف عندها ويفـصل في ذكرها، ويضفي عليها ما طاب من الصفات المحببة والمدائح التـي تجـذب المتلقي وتجعله يتمنى زيارتها. فبسطة عند ابن الخطيب "محل خصيب، وبلـدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العـام، ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام، يا لها من عقيلة صفحتها صقيلة وخريدة محاسنها فريدة، وعشيقة نزعاتها رشيقة"[2] .

2- الأمكنة الطاردة التي يرفضها الرحالة ويبتعد عنها، ويتضح ذلك من خلال ذمـه لها،وذمه لأهلها،وأحيانا يتضح ذلك من عدم التفصيل عند ذكرها، ونزعة كـره

---

1 - انظر : حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 221 .

2 - ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في الأندلس والمغرب، ص 37 .

الأمكنة وذمها عند الحديث، لم تكن موجودة عند كل الرحالة، فالعبـدري مـثلاً اشتهر بذمه للأماكن وقد فصل وأسهب عند حديثه عنها، ومع ذلك فقد تمنـى أن لا يرى إلا حسناً فيذكره، ولو استطاع أن يحمل المكان غير مـا يحمـل مـن الصفات لفعل، يقول في وصف أهل الإسكندرية وذكر بعض أحوالهم الرديـة :" وهي أكثر من أن يحصرها بيان أو يحيط بها خبر ولا عيـان، ولكنهـا نفثـة مصدور ولفظة جرى بها المقدور وبودي لو لم أر إلا حسنا فأذكره ولم ألـق إلا مشكورا فأشكره ولو كان القبيح يحمل بغير أوصافه والناقص يكمل بذكر أسلافه لكان أهل الإسكندرية أجمل الناس حسنا "[1]، ولم يقتصر ذمه فقط للمكان بسبب أخلاق أهله، فقد اجتمع في بعض الأماكن سوء المناخ وسوء أخلاق أهله، فنجد العبدري يذم مدينة قابس بسبب سوء منظرها، وجفاء أخلاق أهلها، يقول : "ثـم صلنا إلى مدينة قابس ذات المنظر الخبيث والمحيا العابس هواء وخيم ولوم طبع وخيم وتضييع المصليات والمساجد وقلة اعتناء بكل راكع وساجد مغانيهم إلـى النجوم عالية ومعانيهم أسفل التخـوم هاويـة، إلـى عفونـات تخبـو لقربهـا المصابيح""[2].

فهناك علاقة وطيدة بين كره الرحالة للمكان، وعلاقته بأهل ذلك المكـان، فيصبح المكان جاذبا لأن أهله يجذبون الزائر بحسن أخلاقهم، و على العكـس مـن ذلك فأنهم يطردونه نتيجة لسوء تعاملهم مع المسافرين .

وهناك المكان الممتزج بمشاعر الرحالة وأحاسيسه وهذا يتعلـق بـشعور الرحالة عند مروره بمكان تاريخي يذكر بحادثة مؤثرة أو مكان ديني يحرك مشاعر الرحالة ووجدانه، وقد نجد المكان الجامد الذي لا يتـضمن أي أثـر ولا يتـرك أي إحساس به وهو ما يمكننا تسميته المكان الجغرافي وهو الذي لا يتضمن إلا حقيقـة وجوده، فيكتفي الرحالة بالمرور على ذكره ووصف ما به من موجـودات دون أن نرى تجاهه أية مشاعر، ولكنه لا بد أن يبقي له صورة في ذاكرته ثم في رحلته.

1- العبدري، الرحلة المغربية، ص 99 .

2 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 74 .

ولا يمكننا بأية حال من الأحوال أن نعد المكان محايداً، فالمكـان يتـضمن حياة الشعوب وذكرياتهم، فلا يكتفي الرحالة بذكره حدوده من طول وعرض فقـط، فهو مخالطة واندماج من ناحية، ولا يقتصر تأثيره حال المرور السريع به، بل قـد يشد انتباه الرحالة ويلفت نظره، ويترك أثرا عميقا في نفسه من إعجاب وتقـدير أو كره واحتقار، ويأتي الإعجاب والتقدير للمكان نتيجة البراعة في العمارة والدقة فـي البناء، أو قد يكون الإعجاب نتيجة لجمال المناخ ورقة أخلاق أهله، فمدينـة دميـاط "فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة مـن كـل حـسن بنـصيب "[1]".ومدينة منبج "فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء "[2]. ومدينة رأس العين " ماؤها أصفى من الزلال، وأعذب من السلسبيل، يشف عما حواه، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما أخفاه "[3]، ومدينة حران " بها كثير من أهل الخير، وأهلها هينـون معتدلون، محبون للغرباء، مؤثرون للفقراء "[4].

ومن الأماكن ما يخدع البصر لأول وهلة، فيرى الداخل لها عكس المظهـر الخارجي، يقول ابن جبير في وصف مدينة نصيبين[5] "خارجها رياضي الـشمائل، أندلسي الخمائل، يرف غضارة ونضارة، ويتألق عليه رونق الحـضارة، وداخلهـا شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فـسحة مجـال، ولا مسحة جمال "[6]، ومدينة حمص " نزهة لعين مبصرها مـن النظافـة والملاحـة، موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه، لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه، أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمـر، فهـي تـشتكي

1- ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار ج1ص 35 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 194 .

3- ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 189 .

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 191 .

5 - مدينة عامرة من على شاطئ الفرات، تعرف بنصيبين الروم، على جـادة القوافـل مـن الموصل إلى الشام، ونصيبين أيضاً قرية من قرى حلب . انظر : الحموي، معجم البلدان، ج5، ص288- 289.

6 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 186 .

ظماءها، وتستقي على البعد ماءها "[1]ومدينة حماة عكس ذلك فمظهرها الخارجي لا يجذب الزائر إليه لكنها تخفي محاسنها وتكنها،فهي مدينة "غير فـسيحة الفنـاء، ولا رائقة البناء، أقطارها مضمومة، وديارها مركومة، لا يهش البـصر إليهـا، عنـد الإطلال عليها كأنها تكن بهجتها وتخفيها، فتجد حسناً كامناً فيها "[2] .

ويلجأ الرحالة إلى المقارنة والموازنة بين المـدن أثنـاء عبـورهم منهـا، فيفاضلون بين مدينة وأخرى، ويقارنون بين أخلاق ساكني هذه المدينة وتلك، ومـن ذلك قول ابن جبير في مدينة تكريت: " مدينة كبيـرة واسـعة الأرجـاء، فـسيحة الساحة، حفيلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقـسطاً في الموازين من أهل بغداد "[3]، ومدينة حماة "أسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى "[4]، أما مدينة حمص فإنك "تجد في هذه البلدة عنـد إطلالـك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها، بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الأندلس، يقع للحين في نفسك خياله "[5]،ومدينة سجلماسة من "أحـسن المـدن، وبها التمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب "[6].

ومدينة بلنسية "من أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجملها بساتين، ولها خِطـة فسيحة، وهي بلدة منيعة، جمعت البر والبحر والفواكه، ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون "[7].

ومدينة أشبيلية مقابلة لجبل الشرف وهو "أشرف بقعة فـي الأرض وأكـرم تربة، والمفترش بالزيتون القاتم في اخضراره، المبارك عند اعتصاره، لا يتغير به

1- ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص200-201 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 199 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 181 .

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 200 .

5 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 201 .

6 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2ص268 .

7 - العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ج2 ص18 .

حال ولا يعروه اختلال، قد أخذ في الأرض طولاً وعرضا،فراسخ في فراسخ،وفضل عصيره يأخذ في كل أفق، ويركب به البحر إلى المشرق "[1]

ولا يقتصر الوصف على أمكنة المرور للأبنية والطرق، فقد لفـت انتبـاه الرحالة كثرة ساكني المكان،فهذا ابن جبير يصف كثرة ما في مدينـة دنيـصر[2] " وهي مشحونة بشرا "[3]، أما ابن خلدون فيصف مدينة القاهرة بقوله: "بستان العالم ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر"[4]، في حين يرى العبـدري بـأن "سـاكنها يحاكي عديد الرمل والقطر "[5] .

وتتنوع أمكنة العبور فمنها ما يقطع أو يعبر على خوف ورهبة بسبب حـدة طباع أهله، وبغضهم للغرباء، يقول العبدري في وصف صحراء المغرب الشرقية :" ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان وجدنا طريقاً منقطعاً مخوفاً، لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حال حذر واستعداد وتلك المفازة مع قربها من أضر بقـاع الأرض على المسافرين لأن المجاورين لها من أوضع خلق ا وأشـدهم أذيـة، لا يسلم منهم صالح ولا طالح ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتة، أطلع ا عليهم من الآفات مـا يـسحتهم جميعـا أصـلا وفرعا، ويقطع دابرهم إفرادا وتثنية وجمعا، حتى يكونوا أيـة للمعتبـرين وعبـرة للناظرين بعزة ا وقدرته "[6] .

لقد رسم العبدري من خلال وصفه لهذا المكان صورة مفزعة، تبقى بمـا تثيره في نفس المتلقي من نفور وكره لأخلاق أهل تلك البلاد، والقارئ هنا يتصور

---

1 - العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ج2 ص95 .

2 - دنيسر بضم أوله، بلدة عظيمة من نواحي الجزيرة بالقرب من ماردين بينهما فرسخان، لها اسم آخر هو قوج حصار، ليس بها نهر جار إنما شربهم من آبار عذبة . انظر، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 478 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 187 .

4 -ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 246 .

5 -العبدري، الرحلة المغربية، ص 125 .

6 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 9 .

طريقاً صحراوياً طويلاً ومخيفاً، خالياً من المارة، إلا من هؤلاء الصعاليك أو قطاع الطرق، الذين لا عمل لديهم إلا البحث عن لقمة سائغة ينتزعونها من عابر سـبيل، أو مال يسلبونه من مسافر .

ومما يزيد من هول صورة أهل هذه المنطقة أنه على الرغم من قربها من تلمسان، فإنه لا تسلكها الجموع إلا على حذر واستعداد، فلا يقتصر الخـوف علـى القلة من المسافرين، بل إن الجماعة الكبيرة لا بد أن تأخذ استعداداتها الكاملة لعبور تلك الطريق، وهذا الوصف يشير أيضاً إلى قوة تحمل هؤلاء الصعاليك للعيش فـي هذا المكان الخالي، فقد أصبح وطنا لهم يبحثون عن رزقهم من خلاله، فـلا عمـل لديهم إلا أذية المسافرين وإزعاجهم .

ولا يقتصر الأذى الذي يتعرض له الرحالة على قُطاع الطـرق، بـل قـد تعرض لأذى الأحوال الجوية فيموت عدد كبير من المسافرين نتيجة لسوء الأحوال الجوية، يقول العبدري: "وكان الركب الشامي رحل من المدينة على طريق المعلّـى إلى تبوك، وصحبه أكثر المغاربة حرصاً منهم على تقريب المسافة إلى الشام لأنهـا أقرب من طريق البرية بكثير، ولكنها طريق شاقة قليلة الماء جداً، ورودهـا علـى سبعة أيام فحملهم الكسل والحين المقدر إلى سلوكها مع ضعفهم وتهتك قواهم، فوقع عليهم الثلج وهم بالقرب من عمان، فأفنى خلقا منهم كثيرا، وذكر بعض من حـضر ذلك أنه قد أحصي منهم ألف وسبعمائة، وما أعلم أنه مات ممن رجع على الطريـق الأول إلا أقل من عشرة ماتوا بالمرض "[1] .

ومن الأمور التي تزيد من صعوبة الرحلة لدى الرحالة فقـدان الطريـق وضياع الرحالة، يقول ابن بطوطة في وصف صحراء السودان " وتلك الـصحراء كثيرة الشياطين، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته، حتى يضل عن قصده فيهلك، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالاً من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هناك من كثر تردده وكان له قلب ذكي "[2] .

1 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 220 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2 ص 270 .

كما قد يتعرض الرحالة لنقص في الماء والغذاء في البر أو في البحر، فهذا ابن جبير يصف أحوالهم على ظهر المركب بعد مرور عاصـفة، يقـول:" وبهـذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركـب لعـدم الزاد ونفاذه. وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس، نتقسمه بين أربعة منا نبله بيسير من الماء فنتبلغ به، وكل من نزل من البلغريين بـاع فـضلة زاده، فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه، وانتهى إلى مقـدار خبـزة بدرهم من الخالص، فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر في مسافة ظن النـاس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية، فالحازم مـن أدخـل زاد ثلاثين يوما، وسائر الناس لعشرين يوما، ولخمسة عشر يوما "[1]. أما ابن بطوطـة فيصف ما يتعرض له المسافرون من نقص في الماء والغذاء في صحراء الـسودان بقوله: " فقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر، وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق، وهي أكثر المواضع ذبابا، ومنهـا يرفـع الماء لدخول الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا في النادر"[2].

وتعد القاهرة من أماكن العبور التي أعجب الرحالة بها، يقول ابن خلـدون في وصفها: " حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك،تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك[3] والمدارس بأفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيـل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء ....ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المـارة، وأسواقها تزخر بالنعم، وما زلنا نُحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا "ومن هذه العبـارات عنها: " من لم يرها لم يعرف عز الإسلام "كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب "وقول غيره" إن الذي يتخيله الإنسان فإنمـا يـراه دون

1- ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 251 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2 ص269 .

3 -الخوانق : مكان سكن للصوفية .

الصورة التي تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع مـن كل ما يتخيل فيها "[1].

فابن خلدون لم يكتف بوصفه الشخصي للقاهرة، بل اقتـبس فقـرات مـن وصف بعض من زاروها، "كناية عن شدة إعجابه بها صدق تحديثه عنها وتطبيقا لمنهجه العلمي المبني على التحقيق والتدقيق والاستشهاد"[2]، وفي ذلك دلالة واضحة لغلبة المنهج التاريخي على كتاباته، فلم يلجأ إلى الوصف في رحلته إلا قليلا، وغلب عليها السرد التاريخي.

ومن أمكنة العبور ما يمر به الرحالة دون أن يدخله أو يصف معالمه، عدا بعض الروايات التي قد يوردها من ذاكرته، مثل قول العبدري:" ومررنا في طريقنا ببيت لحم فلم يقض لنا دخوله وهو قريب من بيت المقدس، وقد تقدم أنه مولد عيسى عليه السلام والنصارى يعظمونه ويقومون به غاية القيام ويضيفون من نزل به "[3].

إن ما تقدم يؤكد أن الرحلة معاناة والسفر مشاركة للمكـان فـي التحـول واستبدال منظر بمنظر، وموقع بموقع، ومنزل بمنزل، وكلما تغير المكان تجـددت معه جملة الأحاسيس التي تتخللنا ونحس بها، فنكتسب منهـا رهبتهـا وجلالهـا أو وحشتها وتوجسها أو لطفها وجمالها [4].

والسفر والتنقل من مكان إلى مكان يعمل على تمديد الحكاية وتوسيعها [5]، لأن الحركة تولد السرد، والسرد يأتي نتيجة لتلك المشاعر التي يحس بها الرحالـة حيال تلك الأماكن،؛ لأن مكان العبور لا يمكن أن يـسيطر علـى تفكيـر الرحالـة كسيطرة مكان الانطلاق، فنجد ذلك الوصف الأدبي الجميل لكنه يخلـو مـن تلـك الأحاسيس النابضة التي نجدها في أمكنة الانطلاق.

1 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص246-248 .

2 - أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون ،ص 225 .

3 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 228 .

4 - مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، ص18 .

5-حليفي، شعيب، تيمة السفر في النص السردي القديم، مجلة فصول المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، عام 1994م، ص 252.

ولم يقتصر وصف مكان العبور على النثر فقط، إذ قد يهيج جمال المكـان أشواق الرحالة، فيعبر عن ذلك شعراً، فهذا لسان الدين بن الخطيب يهزه جمال مدينة وادي آش فيغنيه شعراً: (الكامل)

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حسن جناحه الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس [1]

وتعد القدس من أهم مناطق العبور التي اسـتوقفت الرحالـة، فقـد اعتـاد المغاربة والأندلسيون المرور على المسجد الأقصى في طريق عودتهم مـن البيـت الحرام إلى بلادهم " فلقد جذبتهم إلى القدس الآيات والأحاديث النبويـة المكرسـة لتمجيد بيت المقدس "[2]،فضلا عن أنها "تكاد تعد المدينة العربية الوحيدة التي تنفـتح على الأديان والثقافات "[3]، فزيارتها شرط أولي لتحصيل المعارف التي يحفل بهـا المغرب[4].

ومرور الرحالة بأمكنة العبور ترسم أبعاد معاناته ومرحلـة مـن مراحـل حياته، واغترابه عن مسقط رأسه ووطنه الأصلي. ينطلق الرحالة وفي فكره الدوافع والغايات والأسباب والظروف، كل هذا مقابل الفراق والبعد، ويمكننا القول إن هناك جانبين قويين يقيدان الرحالة لحظة الانطلاق، فهو بين أن ينـدفع وينطلـق ليحقـق أهدافه وغاياته المرجوة من الرحلة، أو يبقى بين أهله وذويه، ولا بد أن يسيطر دافع الرحلة، لأن أيا من الرحالة لا ينطلق إلا وهناك بالإضافة إلى الـدوافع الإجباريـة دوافع كامنة في النفس من شوق إلى الديار المقدسة، أو شوق إلى معرفة الغرائـب وحب التجوال .

---

1 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص35، البيتان من شعر ابن اللبانة الداني، وقد تقدم البيـت الثاني على الأول، انظر: ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى الداني (ت507هـ)، شـعر ابـن اللبانة الداني، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة،1977م،ص 55 .

2 -الكيلاني، شمس الدين، رمزية القدس الروحية (قداسة المكان) منشورات اتحـاد الكتـاب العرب، دمشق، 2005م، ص 93 .

3 - سرحان،رحلة محيي الدين بن عربي، ص115 .

4 - سرحان،رحلة محيي الدين بن عربي، ص115 .

وتتغير دلالة هذه الأمكنة ورمزيتها بتغير العابر لها، ولا نقول في ذلـك أن دلالة المكان التاريخي أو الديني ستتغير بتغير النظرة إليه، ولكن الذي سيتغير هـو شعور الرحالة وإحساسه وتقديره لهذا المكان. ف "فالعلاقة بالمكـان تتـسم بكثافـة حتمية"[1]، فابن خلدون مثلاً يضفي مشاعره على المكان، فـنحس بنـبض المكـان وحياته من خلال حديثه عنه، يقول في وصف مدينة فاس:" رعى ا قطـراً تربـه ينبت الغنى، وآفاقه ظل على الدين ممدود "[2] .

3.3 أمكنة الوصول:

هو المكان المستهدف من الرحلة، وقد أطلق عليه شعيب حليفـي " المكـان الهدف"[3]، " حيث تصطدم فيه عين الرحالة المحملة بمشاهد تخيلية بالفضاء الواقعي المقصود إليه الرحلة .ويتضح من خلاله هدف الرحلة ومقاصدها، فالرحلة المتوجهة للمقدسات مكان وصولها مكة والمدينة المنورة والقـدس، ومكـان الوصـول هـو "الإطار العام الذي تتحقق فيه الرغبات، فيتم اللجوء إليه عن رغبة وشـوق "الحـج والزيارة والسياحة "أو بأمر"السفارة "، أو عن ضرورة وحاجة " التجارة و العلم"، أو عن اضطرار "الهجرة والنفي"، وبين هذه الرغائب أو نقائضها يرتبط المكان المتجه إليه بمسألة الانفصال عن مكان الأنا والتوجه إلى مكان الآخر[4].

وعلاقة الرحالة بمكان الوصول علاقة وجدانية في أغلب الأحيان، ومهمـا عبر الرحالة عن قوة نبضه تجاه هذا المكان، لن يستطيع القارئ تلمس كل ذلـك إلا أنه سيلمس إحساس الرحالة المرهف وشوقه القوي للبقاء فيه " مـع تـشكيل رؤى وتحديدات لهذا المكان ذهنياً ووجدانياً"[5].

---

1 - حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة ،ص 61.

2 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 106-107 .

3 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص223.

4 - حليفي ،الرحلة في الأدب العربي، ص223.

5 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص223.

يقول القلصادي عند زيارته قبر الرسول صلى ا عليه وسلم:"ثـم دخلنـا الحرم الشريف فسلمنا عليه صلى ا عليه وسلم، ونار الشوق تلتهب، والقلب من ألم الفراق يضطرب، فكان الجواب بلسان الحال:

أحن إلى الوادي ومن فيه نـــازل ومن أجل من فيه تحب المنازل

وأشتاق لمح البرق من نحو أرضكم ففي البرق من تلك الثغور رسائل

يرنحني مر النسيـــم لأنـــــه بأعطاف ذاك الرند والبان مائل

وإن مال بان الروح مات صبابة فبين غصون البان منكم شمائل"[1]

ويقول بعد قضاء فريضة الحج والتأهب للرحيل:" ثم حملنا رحالنا، ورجعنا إلى ناحية مكة المشرفة، فدخلناها وطفنا طواف الصدر، وقد أزمعنا علـى الـسفر، ونار الشوق بالفراق تلتهب، والنفس لبين الفراق تضطرب "[2].

ويحتل مكان الوصول أهمية كبيرة، نظرا لأنه الهدف والغاية فإليه امتطـى الرحالة راحلته، وتنكب الصعاب من أجله، وعانى ما عانى ليقوم بواجبه. ويحتـل المكان الديني "المقدس " أهمية كبيرة في الرحلات الحجازية التي تقـصد زيـارة البيت العتيق، فقد استغرق الحديث عن أمكنة المناسك عند العبدري اثنتين وخمـسين صفحة وهي من أكثر الأماكن التي حظيت باهتمامه،ولقد مر العبـدري بمحطـات عبور كثيرة انتقدها إلى حد التجريح، كما أفاض في توصيف معاناته والمشاق التي تحملها، لكن مشهد الوصول سيزيل عنه كل مـا رأت عينـه وتحمـل قلبـه؛ لأن الاصطدام مؤطر دينياً بالشوق والإيمان الروحاني العميق، وهو يعبر عن كل هـذا بالتمجيد وتعداد مفاخر ومعالم مكة مفصلاً الحديث عنها وعـن الكعبـة والمـسجد الحرام والمدينة وكل المآثر الدينية، كما نجده يستعرض معلوماته التاريخيـة حـول بناء مسجد الرسول[3].

ورغم أن ابن بطوطة قد غير مسار رحلته فإن المكان المستهدف لديه في البداية هو مكة والمدينة المنورة، وقد استغرق حديثه عن هذا المكان ما يزيد علـى

---

1 - القلصادي، الرحلة ، ص 147 .

2 - القلصادي، الرحلة، ص 143 .

3- حليفي،الرحلة في الأدب العربي، ص 95 .

خمسين صفحة، وقد فاق ابن جبير كل الرحالة في وصفه لمكان الوصول إذ تجاوز وصفه لمكان الوصول الثمانين صفحة.

أما البلوي فإن مكان الوصول سينسيه الأهل والأصحاب، كما أننا سـنفقد ذلك الشوق الذي كنا نراه عندما يحل في الأماكن التي وردها قبل حلوله في الـديار المقدسة.

ويرى أبو حامد الغرناطي في المدينة ما ليس في غيرها من الأماكن فالعطر "والبخور يوجد لهما من الضوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد، ولها في نفسها نعمة طيبة ورائحة عطرية وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البتـة، ولهذا سميت طيبة "[1].

أما الرحلات السفارية فلا نجد فيها كبير اهتمام بمكان الوصول، فرغم أنـه الهدف والمقصد من الرحلة كلها إلا أنه يحتل مرتبة ثانوية بالنسبة لمكان الانطـلاق وأمكنة العبور، فهذا ابن الخطيب يلجأ إلى الإيجاز إلى درجة أنه سيقتصر على ذكر المكان فقط، يقول في نهاية كتابه "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" مشيراً إلـى مكان وصوله بعبارة موجزة " ثم كان الارتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة، فألقيت بها البرك وحطات الرحل وفصلت الخُطة "[2].

أما في رحلته الأولى التي زار فيها المرية[3] سفيراً، فقد تحدث عن كيفيـة استقباله فيها حيث الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول ثم وصف مكان وصوله، يقول: " فلما أرحنا واسترحنا، والعيون في تلك البلادة سرحنا، رأينـا قيـد البـصر، والمحاسن التي ترمي اللسان بالحصر، حضرة يستقبل بها الملك، ومربع يلتقي بـه القطار والفلك، رفعت راية الشرف القديم، وحازت على نظرائها مزية التقديم، مـا

1 - الغرناطي، تحفة الألباب، ص 55-56 .

2 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 149 .

3 - مدينة ساحلية بجنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر وذلك فـي عام 344. انظر: الحميري ،الروض المعطار ص183-184

شئت من ساحة طيبة الأديم، رحيبة كصدر الحليم، متناسبة الوضع بتقـدير العزيـز العليم، تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة "[1].

وهذا ابن خلدون يقتصر على عبارة "فقضيت الفريضة في هذه الـسنة ثـم عدت"[2] في رحلته إلى الحج، لكنه تحدث فقط عن بعض المصاعب التي واجهها في البحر، وربما يعود ذلك إلى أنه قلما تحدث عن خلجات نفسه، وعلل ذلك بعـض الباحثين إلى أنه يتعالى عن ذكر مشاعره، وأعطى مثالاً على صحة تعليله روايتـه الجافة عما حدث لأسرته وآل بيته،، فقد أرسل ابن خلدون إلى أسرته يستقدمهم مـن تونس بشفاعة سلطان مصر، فهلكوا في البحر جميعاً[3]، يقو ل فـي ذلـك :"فكثـر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مـصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقـت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد ..."[4] ولم يفصل سوى ذلك عن ذكر تلك الحادثة .

ويرى عبد ا إبراهيم أن كاتب السيرة الذاتية لـم يلتفـت إلـى العنايـة بالجوانب الشخصية، وجدانياً وعاطفياً إلا ما له علاقة مباشرة بـالتكوين الثقـافي، الأمر الذي يقرر أن البواعث الكامنة وراء كتابة السير، هي الرغبة المتأخرة بتقديم سيرة اعتبارية، لا شخصية دقيقة، تعنى بوصف رحلة البحث عن الحقيقة، في بنيـة ثقافية يزداد فيها الصراع بين الخيارات العقائدية والفكرية[5] .

وقد لا ينحصر الوصول في مكان واحد، ففي الرحلات الدينية يعد كل مكان ديني مقدس مكانا للوصول، فمكة والمدينة المنـورة والقـدس والمـسجد الأقـصى والخليل وقبور الأنبياء كلها أماكن وصول في رحلة واحدة .

---

1 - ابن الخطيب،خطرة الطيف، ص 48-49

2 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقاً، ص 261 .

3 - أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون، ص226

4 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 259 .

5 - انظر : إبراهيم، السردية العربية، ص 136 .

ويرتبط مكان الوصول أو المكان الهدف بمدى تحقيق الإنجاز الذي حـدده الرحالة أو عدم تحقيقه، ففي الرحلات السياسية سيكون الهدف إما إبـلاغ خبـر أو إرسال رسالة أو عقد معاهدة أو صلح، أما في الرحلات الحجية فالهـدف معنـوي فمتى حقق الرحالة الحالة الروحانية، والشعور الديني يمكننا القول إن الرحلـة قـد حققت أهدافها، ولكن الرحلة العلمية والسماع عن الشيوخ والعلماء سنجد أن تحقيـق الهدف فيها تحقيقا نسبيا يختلف من رحالة إلى آخر، وفي كل الأحوال لا يمكننـا أن نجزم بتحقيق الهدف تحقيقاً كلياً؛ لأن العلم حدوده واسعة وبحره عميـق ولا يمكـن لأحد مهما كان أن يقول وصلت إلى غاية العلم، لكنه قد يقول قد اكتفيت من العلـم بهذا القدر.

وفي بعض من الأحيان يصبح المكان الهدف مكانا للعبـور والبحـث عـن أهداف أخرى .ذلك أن الذي اعتادت عينه رؤية الأماكن الكثيرة واعتـادت قدميـه التجوال، اشتاقت نفسه لرؤية أرجاء الأرض واكتشاف كوامنها، ولولا ذلك الـشوق الشديد للمعرفة وحب الاستطلاع لما وجدنا هذه الرحلة أو تلك، وحب الاستطلاع هو ما هون على الرحالة صعوبة الغربة، فقد ترك الأهل والأحباب وتحمل لبعدهم همـا عظيماً، ولكن هذا الشوق الذي يحرك وجدانه هو ما قوى عزيمته وبعث فيه الحـزم والصبر على كل المصاعب .

وقد نشعر في بعض الأحيان بوجود فجوة بين الإنسان والمكان، فتتـضاءل عند ذلك فرصة هيمنة المكان على الإنسان، فلا نجد أي أثر للمكان عليه، فيلجأ إلى المرور عليه مرورا عابراً، و نلاحظ أنه لا يحمل عنده أية قيمة، وقد يكـون خيـر دليل على ذلك المكان في رحلة ابن خلدون [1] .

وهذه العلاقة المتبادلة ما بين الإنسان والمكان تترك أثرها عليهمـا، فكـل واحد يؤثر ويتأثر في الثاني، ولا قيمة لأحدهما دون الثاني، فكما أن المكان يـوفر للإنسان الشعور بالأمان والراحة والهدوء والانتماء والهوية، ويكسبه بعض الطبـاع البشرية، حتى أن بلزاك قال بأن المكان الذي يسكنه الشخص مرآة لطباعـه، فـإن الإنسان أيضا يؤثر في المكان ويفرض عليه التغييرات والتشكيلات ويضفي عليهـا

1 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته، ص230، 246، 312 .

القيم التاريخية والثقافية والدينية، فالمكان مسكون بالإنسان، والمكان المسكون يتجاوز المكان الهندسي [1] . ويتغير إحساس الإنسان نفسه بالمكان نفسه من حالة إلى أخرى تبعا للحالة النفسية والمناسبة والزمن وغير ذلك فقد يكون المكان أليفا محبوبا وأثيرا عند إنسان ما، ولكن المكان نفسه قد يتحول ليكون المكروه والعدائي والمرفوض عند الإنسان نفسه .

وهذه الحركة التي نراها في الرحلات هي الدليل على الصلة والتواصل بين الرحالة والمكان، وبمقدار حركته في المكان تكتشف حريته، ولهذا نحصل على الصراع بين الإنسان والمكان؛ لأن المكان بظروفه القاسية قد يحدد حركة الإنسان ومن ثم الرحالة وهنا يزداد الصراع بينهما " فكلما شعر الإنسان بالاتساع شعر بالحرية والقدرة على التحرك والعمل والانطلاق، وكلما شعر بالضيق والازدحام شعر العجز والضعف وعدم القدرة على الحركة" [2].

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الرحالة يختلفون فيما بينهم، في شعور كل منهم تجاه اتساع المكان أو ضيقه، "فقد يجتمع اثنان في غرفة ضيقة معزولة، أحدهما يشعر أنه يملك حريته، والآخر يشعر بالضيق والاختناق والقهر" "[3]، إن هذا يعني أن "شعور الإنسان تجاه المكان هو الذي يقرر هوية المكان من حيث كونه واسعا أو ضيقا "[4].

وقد انفرد التجاني بوصه المستفيض للمكان، فبالإضافة إننا نجد تاريخا كاملا للمكان الموصوف، فإننا نجده يصف المجتمع الذي رآه وخالطه، وقد صيغت

---

1 - القاسم، نبيه، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف (المكان، الزمان، الشخصية)، دار الهدى للطباعة والنشر، ط1، 2005م، ص 55 .

2 - القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، ص53- 54 .

3- القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، ص 54 .

4- القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، ص 54 .

أوصافه بأسلوب جميل وعبارة أنيقة، "بحيث أنك تحس كأن الأشياء التـي يتحـدث عنها تتقولب أمامك "[1].

ومكان الوصول يتنوع في عيون الناظر إليـه ويتـشكل حـسب مزاجـه وإحساسه، فعند ابن بطوطة نلمس بعض مشاعره عند رؤية الكعبة، فقد تجلت الكعبة أمامه كالعروس، يقول :"وشاهدنا الكعبة زادها ا تعظيما، وهي كالعروس تتجلـى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلـى جنة الرضوان "[2].

أما مشاعره تجاهها فهي كمشاعر غيره من البشر، فقد طبعت القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة "والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكنا في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبـه، ولا يفارقهـا إلا أسـفاً لفراقها، متولها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناويا لتكرار الوفادة عليها . فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب، حكمة من ا بالغة وتصديقا لـدعوة خليله عليه السلام، والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون علـى قاصدها ما يلقى من المشاق ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عيانـا دونها، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع ا بها شمله، تلقاها مسرورا مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا "[3] .

أما ابن جبير فيرى أن ليلة رؤيته للكعبة "ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنات الدهر " أما الكعبة فهي عروس "مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن "[4] .

---

1 - زيادة، نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيـع، بيـروت، ط3، 1982م، ص 192 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1 ص 123 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، ص 123-124 .

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ج1 ص 59 .

أما البلوي حين وقع نظره على الكعبة، فق أنشد مرتجلاً بلسان الخـضوع، وكتب خجلاً بماء الدموع:[1]

إلهي هذا البيتُ بيتك جئته

وعادةَ رب البيت أن يكرم الضيفا

فهب لي قرى فيه رضاك وإنني

من النار خوفي فلتؤمني الخوفا

والكعبة "أثر النظر إليها يجلو البصر فيجب على المقبِل أن يقصد بتقبيله من الشامة المباركة ما استطاع، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتـى يود اللاثم أن لا يقلع فمه عنه فهو أعذب من رضاب الكعاب"[2] .

ولم يزل ملازماً الحرم الشريف مساء وصباحا، ويتنعم في روضته الجنـة غدواً ورواحاً، ويرسل دمع اللقاء مدراراً، ويناجي الحبيب ليلا ونهارا [3] .

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 297 .

2 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 299 .

3- انظر : البلوي، تاج المفرق، ج1 ص291 .

الفصل الرابع
أصداء الأمكنة والأزمنة

لا يمكن بأية حال من الأحوال تناسي أثر الزمان في الأمكنة، إذ لا بد أن يترك الزمان آثاراً واضحة في وجه المكان، لذلك أطلقنا مصطلحات دالـة علـى مـرور الزمن على المكان منها، آثار وتاريخ؛ ولذلك نرى في الوصف مكاناً تاريخياً يـشير إلى أحداث تاريخية، ومكاناً دينياً مقدساً يشير إلى وقائع دينية، ومكاناً جغرافيـاً لا يرتبط بحادثة ما . ومهما تجاهلنا الزمان في أثناء الوصف إلا أن وجوده إجبـاري فيه، "فتعاقب الأفعال يعمق إحساس المتلقي بالزمن "[1] .

إن حضور الوصف بشكل عام في الرحلة، وبالتـالي حـضور الوصـف المكاني "هو استفزاز للزمن على المواجهة"[2]، حيث يتطرق الرحالة للـزمن مـن خلال الوصف بوعي وبدون وعي منه، إن حضور الزمن والتـاريخ فـي وعـي الرحالة هو الحقيقة هو تهيئة الطقس لعودة الزمن إلى العمل.

و الوصف هو تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلاً يصل بك إلى الأعماق،[3] وقد حاول الرحالة تصوير مشاعره تجاه الأمكنة، من مثـل أطالـة التأمل في قسمات المكان، ثم تصويره بعد ذلك على الصورة التي ارتضاها ذوقـه، واطمأنت لها نفسه.

وقد اقترن الوصف منذ البداية بتناول الأشياء في أحوالها وهيئاتها كما هـي في العالم الخارجي، وتقديمها في صور أمينة، تعكس المشهد وتحرص كل الحرص

---

1 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص 98 .

2 - حسين، شعرية المكان في الرواية، ص 124 .

3 - قناوي، عبد العظيم علي، الوصف في الشعر العربي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي،مصر، ط1، 1949م، ج1 ص 42 .

على نقل المنظور الخارجي أدق نقل. وارتبط وصف الأشـياء بمفهـوم المحاكـاة الحرفي أي التصوير الفوتوغرافي [1].

ويمكن تقسيم الزمان في الرحلة إلى ثلاثة أقسام :

أولاً -زمن مسار الرحالة، وهـو زمـن خطـي غالبـاً يتخللـه بعـض الاسترجاعات، حيث يقوم الرحالة بسرد الرحلة منذ بداية انطلاقتهـا، ثـم يـصف تنقلاته في المكان، وتجوله في بقاع الأرض، ويعرض لذكر ملاقاة العلماء ويـصف علومهم .

ثانياً-الزمن التاريخي وذلك حينما تتحرك ذاكرة الرحالة إلى الماضي مـن خلال مروره بالمكان واستعادة ماضيه، أو سرد سيرة شخـصية مـن شخـصيات الرحلة المتحدث عنهم خلال الرحلة .

ثالثاً- زمن المستقبل وهو ما يتعلق بالتنبؤات المستقبلية، ويرد في الرحلات بشكل قليل جداً .

إن الزمان الحقيقي والمكان الواقعي هما ما يؤكدان واقعية أحداث الرحلـة، ولا يقوم المكان فقط بدور التأطير الذي يؤكد واقعية الأحداث في الرحلـة، فهـو يحظى بدور مهم في السرد؛ لأنه محور الحديث في أغلب الأحيـان، وقـد شُـدت الرحال بسببه، "فالمكان ليس مسطحا أملس، أو بمعنى آخر ليس محايداً أو عاريـاً من أية دلالة محددة ....إن المكان يساهم في خلق المعنى" [2]، فمقومـات الأمـاكن والروابط بينهما يمكن أن تكون ذات مغزى .

ويؤدي الفضاء في السرد إحدى وظيفتين أو كلتيهما، الأولى هـي تـأطير الأحداث بصنع مساحة الحركة الملائمة للشخصيات، وكذلك برسم الخلفية المكانيـة للسرد، بما يتلائم مع الحدث، مع التفاوت في رسم تفاصيل هذه الخلفية، بين رحالـة وآخر وتعد الوظيفة الثانية وظيفة تمثيلية، إذ يتحول الفضاء نفـسه إلـى موضـوع للسرد [3].

---

1 - قاسم، بناء الرواية، ص 80 .

2 - بكر، أيمن، السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص 56

3 - بكر، السرد في مقامات الهمذاني، ص 104 .

ويتداخل الزمن مع الوصف المكاني في مدونات الرحالـة بـشكل كبيـر، فالزمن لا يمكن تجاهله عند المرور بالأمكنة، فآثاره باقية على قسمات المكان، وقد عد حليفي النص الرحلي نصاً زمنياً بامتياز "سواء كانت هذه البنية من أجل التاريخ أم بقصد إبراز الحرص على إمداد القارئ بوقائع حقيقية ذات مرجعيات مضبوطة لا متخيلة"[1] بينما تخلق النصوص الرحلية المتخيلة أزمنة خارقة تستجيب للبناء العـام للرحلة، سواء بالإيهام في الواقع أم بتثبيت زمن الآخرة[2] .

1.4 أمكنة التسامح في مدونات الرحالة:

لقد أعطى الإسلام اليهود والمسيحيين الحق في العيش جنباً إلى جنب مـع المسلمين في جماعات خاصة، شريطة أن يؤدوا الجزية للمسلمين بصورة إجبارية، وقد أشار ابن جبير إلى تلك الجزية بقوله " وللنصارى علـى المـسلمين ضـريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الآمنة على غاية. وتجار النصارى أيضاً يؤدون فـي بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحـوال . وأهـل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غاب "[3] وبناء على ذلـك ونتيجة لتلك الشروط التي تقيد كل الأطراف وتلزم كل منها عند حدوده المعروفـة تعين تحديد مواقع لتعبد أصحاب الديانات الثلاث المعروفة تتم فيها العبادات، وتحترم من قبل أصحاب الديانات جميعها، ليتجنب أصحاب تلك الديانات ما يمكن أن يقعـوا فيه من مشاحنات سببها اختلاف الدين .

وأمكنة التسامح هي المساجد المعابد والكنائس والأماكن المقدسة لدى جميع الأطراف، وتعد القدس مكاناً مقدساً لدى جميع الديانات، فهي تحتل مكانةً كبيرة فـي الديانات الثلاث؛ لوجود أماكن مقدسة لأصحاب الديانات الثلاث فيها، وذلك ما أشار له البلوي عند حديثه عن المسجد الأقصى، مشيرا إلى مكانته الدينية واحترامه مـن قبل الديانات كلها:" ثم قصدت الحرم الشريف، والمسجد العظيم المنيف، الذي بارك

1 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 227 .

2 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 227

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص224 .

ا حوله وعرفت كل أمة فضله، المسجد الأقصى موضع المعراج والإسراء وكفى بهذا شرفاً و فخراً، فرأيت بقعة لها نور، وفضل مأثور، وشرف معلوم مذكور، ومسجد له حرمات ...."[1].

ومدينة القدس من أكثر الأماكن دلالة على تسامح الأديان، فهي معظمة في الإسلام وعند النصارى واليهود، ففيها المسجد الأقصى التي تعادل فيه الصلاة خمسمائة صلاة، وفيها قبة الصخرة المشرفة، وفيها معراج الرسول صلى ا عليه وسلم، وللنصارى بها كنيسة يحجونها كل عام. أما اليهود فإنهم يقولون بقدسية القدس في دينهم، ويشير إلى قدسيتها عند اليهود الرحالة اليهودي ابن يونة التطيلي بقوله " بقدس الأقداس أربعة أبواب باب إبراهيم وباب داوود وباب صهيون وباب يوشفاط ....وقبالة هذا البناء يوجد " الحائط الغربي "وهو من حيطان قدس الأقداس في الهيكل القديم، ويسميه اليهود باب الرحمة، يحجونه لإقامة الصلاة في باحته[2]، بينما يشير العبدري إلى مكانة القدس عند النصارى، حيث يقول في وصف مدينة القدس: "والبلد مدينة كبيرة محكمة كلها من صخر منحوت على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية وسورها مهدوم هدمة الملك الظاهر خوفا من استيلاء الروم عليها، وامتناعهم بها، والخراب فيه فاشٍ وليس لها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة عليها و بها كنيسة معظمة عند النصارى يحجونها في كل عام وهي التي يزعمون أن فيها قبر عيسى عليه السلام"[3] .

وغني عن البيان أن السبب الرئيسي الذي حدا بالمسلمين – وغير المسلمين كذلك – إلى زيارة المدينة المقدسة هو المكانة الدينية الفريدة التي اختصت بها المدينة في الأديان العالمية الثلاثة : الإسلام والمسيحية واليهودية، يضاف إلى هذا أن القدس كانت في بعض فترات التاريخ مركزاً علمياً ذا شأن كبير [4].، كان يؤمها علماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم . أما مكانة المدينة عند المسلمين فترجع إلى

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص246 .

2 - ابن يونة التطيلي، الرحلة، ص 101 .

3 - العبدري،الرحلة المغربية، ص 228 .

4 - انظر : سرحان، رحلة محيي الدين بن عربي "رموز المكان"، ص 115 .

كون القدس مدينة الأنبياء من قديم الزمان، والإسلام جاء مصدقا لرسالات هـؤلاء الأنبياء والرسل ولكتبهم، وكان يجلهم إجلالا لم يسبقه فيه دين آخر، ولهذا الـسبب الرئيس لحرمة بيت المقدس عند المسلمين جعلت المدينة قبلة المسلمين الأولى . وقد ظلت كذلك منذ بدء البعثة النبوية وفرض الصلاة إلى السنة الثانية للهجرة عندما أمر الرسول بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام [1].

كما شهدت أرض فلسطين عامة وبيت المقـدس خاصـة نـزول الـوحي السماوي على كثير من الأنبياء: كداود وسليمان وعيسى عليهم السلام الذين نـشأوا وترعرعوا في أرض فلسطين، وعلى إبراهيم ولوط وموسى عليهم الـسلام الـذين هاجروا إلى تلك الأرض المباركة [2].

وجاء في فضائل بيت المقدس لابن الجوزي أنه:"لم يبعث ا عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقد صلى إليهـا نبينـا صلى ا عليه وسلم [3]. ويرقد في أرض فلسطين كثير من الأنبياء مـنهم إبـراهيم الخليل وقبره معروف في مدينة الخليل، واسحق ويوسف ويعقوب علـيهم الـسلام، وسيدنا موسى عليه السلام [4] .

وقد كان اهتمام اليهود ببيت المقدس بسبب بناء سـيدنا سـليمان للهيكـل، والهيكل هو مكان لعبادة ا ، واليهود لم يطلقوا اسم الهيكل على كل مكان للعبـادة، بل على مكان واحد هو "هيكل القدس الذي بناه الملك سليمان " [5] .

---

1 - العسلي، كامل جميل، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العـرب والمـسلمين، عمـان، 1992م، ص 16 .

2 - شبير، محمد عثمان، بيت المقدس وما حوله (خصائصه العامة وأحكامه الفقهيـة)، دار النفائس، الأردن، ط1، 2004م، ص 19 .

3 - انظر : ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، فضائل القدس، حققه وقدم له جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1979م، ص 114 .

4 - شبير، بيت المقدس وما حوله، ص20 .

5 - انظر :حسين، محمد محمود، المسجد الأقصى في الكتب المقدسة،مطبعة نـور الأمـل، القاهرة،1985م، ص36 .

وأمكنة التسامح هي الأمكنة التي تجتمع فيها اعترافات الـديانات جميعهـا بأحقيتها لها في الزيارة، فقد اجتمع المسلمون واليهود على زيارة قبـر النبـي ذي الكفل، فكان المكان مقدساً عند أتباع كلتا الديانتين، وقد أشار ابن يونة التطيلي إلـى ذلك بقوله: "وفي مقام النبي حزقيال[1] طائفة من المجاورين، مهمتهم العناية بالزوار والقادمين من بلاد فارس ممن ينذرون حج قبر هـذا النبـي، فيكونـون لهـم أدلاء ومرشدين، ومن زوار هذا المرقد أيضا جماعة من أتقياء المسلمين، يؤمونه لإقامـة الصلاة فيه، له في قلوبهم حرمة كبيرة"[2]، فهذا القبر مقدس لدى اليهود، واحترامـه لا يقتصر على اليهود فقط، بل أن أتقياء المسلمين يزورونه لتأدية الصلاة عنده .

كما اجتمع اليهود والنصارى على تقديس كنيسة في الخليل، فقد كانت كنيسة لليهود وبعد احتلال الإفرنج لبيت المقدس تحول الكنيس لإدارة النصارى واهتمامهم، يقول ابن يونة التطيلي في حديثه عن الخليل: "وبها بيعة جسيمة للنـصارى تـدعى كنيسة القديس إبراهيم، كانت في أيام حكم المسلمين كنيسا لليهـود، حتـى اسـتولى الإفرنج عليها. وفي هذه الكنيسة ستة قبور، يحجها اليهود للتبرك لقاء إتاوة يؤدونها. فإذا جاء يهودي دفع المال إلى الحارس القيم على القبور، فيفتح له بابا مـن حديـد يرتقي عهده إلى أسلافنا طاب ذكرهم، فينحدر منه إلى مغارة خاوية وبيـده شـمعة يهتدي بها وسط الظلام، ومنها يلج مغارة ثانية وهي خاوية أيضا، ومنها إلى ثالثـة، حيث يجد ستة أضرحة متقابلة، فيقرأ على الأول :"هذا قبر سـيدنا إبـراهيم عليـه السلام "، وعلى الثاني :"هذا قبر سيدنا اسحق عليه السلام ". وهكذا..."[3].

والإنسان المتدين لا يستطيع العيش إلا في عالم مقدس، والديانات جميعهـا تجتمع على هاجس الرعب أمام الفضاء المجهول الذي يمتد ما وراء عالمه، وهـو فضاء مجرد، امتداد لا شكل له [4]؛ لهذا نجد الاهتمام في الأماكن المقدسة لأنها تعد

---

1 -هو النبي ذو الكفل يقصده اليهود من البلاد الشاسعة للزيارة، رحلـة ابـن يونـة، حاشـية ص144 .

2 - التطيلي، رحلة ابن يونة التطيلي،ص 144 .

3 - التطيلي، رحلة ابن يونة التطيلي، ص 105-106 .

4 - الياد، المقدس والمدنس، ص 52

الطريق إلى ذلك العالم المجهول، في هذا المكان حيث يكون الإنسان أكثر قربا مـن الآلهة، فالحنين "العميق للإنسان المتدين هو أن يسكن عالما إلهيا، وأن يحصل على مسكن مماثل "المسكن الآلهة ". ذلك ما جرى تصوره في المعبد والمزارات"[1].

وتسرد كتب التاريخ أيضاً كيف أقام العرب مقامات ومزارات لاحتفـالاتهم، وأضفوا عليها صفات التقديس، وأحاطوها بكثير من الأساطير والخرافات [2].

ولا بد من ملاحظة أثر الأمكنة الدينية على النفس، فهي تخلق لدى الإنسان مشاعر متضاربة بين الإعجاب والتقدير أو الكره والحقد أو الانحياز لأماكن عبـادة الرحالة المتحدث، وخير ما يمثل ذلك، وقوف بعض الرحالة المحايد لأماكن العبـادة عند الأديان الأخرى،فهذا ابن خلدون يقول:" ووصلت إلى القدس ودخلت المـسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعففت عن الدخول إلى القمامة، لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي ونكرت الدخول إليه، وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانـصرفت إلـى مدفن الخليل عليه السلام، ومررت في طريقي إليه ببيت لحم، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح"[3].

كما أن بعضهم لا يخفي إعجابه من بعض المراسم التي تقـام أمامـه، ولا يمنع أيضاً من دخولها ووصف أغرب معالمها من الداخل، فهذا ابن جبيـر يبـدي إعجابه بكنيسة الأنطاكي في لبنان يقول " أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالا ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة : جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيهـا من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رصعت كلهـا بفـصوص الـذهب، وكللت بأشجار الفصوص الخضر، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجـاج،

1 - الياد، المقدس والمدنس،، ص 53

2 - الياد، المقدس والمدنس، ص 7 .

3 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 350 .

فتخطف الأبصار بساطع شعاعها، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ با منها، وأعلمنـا بأن بانيها الذي تنسب إليه أنفق فيها قناطير من الذهب ..."[1].

ولم يخف أبو حامد الغرناطي انبهاره بما سمعه من الرواة حول كنيسة فـي رومية العظمى، فهي من أمكنة العبادة المقدسة عنـد النـصارى، فقـد وصـفها الغرناطي بأنها مبنية من الذهب الخالص، يقول :" وفيها فيما يقال كنيسة من ذهـب عظيمة طولها ألف ذراع في عرض خمسمائة، وفي الكنيسة أربعمائة منـارة مـن ذهب، علو كل منارة مائة ذراع، ويقال أن الكنيسة من الصفر الأصفر الذي يـشبه الذهب، وفيها من الكنائس العظام والبناء العجيب الذي لم يشاهد الناس قـط مثلـه، وفيها من الصوامع المعمولة من النحاس وأنواع الحجارة آلاف يسكنها الرهبان "[2].

وقد أعجب الرحالة أيضاً بحسن معاملة النصارى للمسلمين في جبال لبنان، فهذا ابن جبير يشير إلى حسن معاملتهم، بشيء من الاستغراب، يقول "ومن العجـب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى ا عـز وجـل فتجـب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكـه، وفيـه الميـاه المطردة،والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتـل والزهـادة. وإذا كانـت معاملـة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض "[3].

كما احتل بعض المسلمين مناصب مهمة لدى الإفرنج في عكة، وقـدموهم في بعض أمورهم، يقول ابن جبير في ذلك:" فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم مـن جهـة الإفرنج، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله، وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم "[4] .

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 261 .

2 - الغرناطي،الرحلة، ص 50 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 224 .

4- ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 236 .

ولا تقتصر حسن المعاملة بين الملتين في أيام السلم فقط، بـل يبقـى ذلـك مستمراً حتى في الحروب بين الديانتين، يقول ابن جبير في ذلك:" ومن أعجب مـا يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعـان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلـف بيـنهم دون اعتـراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، مـن ذلـك خـروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البـر"[1] ومع كل تلك الظروف القاسية بين الفئتين إلا أن " اختلاف القوافل من مـصر إلـى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض"[2] .

وهذه هي سيرة الأمن في هذه البلاد "في الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فـالأمن لا يفـارقهم فـي جميـع الأحوال سلماً أو حرباً "[3]، وهذا الأسلوب في التعامل يحمي قيم التـسامح الـديني، وذلك عندما يتخذ الشعب من العيش المشترك نهجاً في حياتهم اليومية، مـن خـلال الدفاع عن قيم التسامح الديني والفهم الديني العميق للمسيحية وللإسلام، ومع إعجاب ابن جبير الشديد بهذا السلوك فإنه أبدى بعض الخـشية علـى أصـحاب النفـوس الضعيفة، أو الذين لم يتعمق الدين في نفوسهم، مما يؤدي إلى تحولهم عن دينهم[4].

ثم يتحدث ابن جبير عن وفائهم لعهودهم فعلى الحـد الفاصـل بـين بـلاد المسلمين والإفرنج توجد شجرة بلوط كبيرة جداً تُعرف بشجرة الميزان، وهي الحـد المعترف به لدى قطاع الطرق من الإفرنج، "فمن أخذوه وراءها إلـى جهـة بـلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقـدر ذلـك

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار ص 224 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص224 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص224 -225 .

4 - انظر : ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 236

أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطـات الإفرنجيـة وأغربها"[1] .

أما بالنسبة للشعائر الدينية في الكنائس والمعابد، فلأهل الذمة الحرية فـي إظهار شعائرهم داخل معابدهم " فلا جناح عليهم، وليس للدولة الإسلامية أن تتدخل بذلك، ولهم أن يرمموا هذه المعابد في مواضعها "[2]، وكذلك لا يجبر المسلم علـى إخفاء دينه أو عدم إقامة عباداته في أماكن غير إسلامية، فقد طلب ابن بطوطة مـن الراهب دخول الكنيسة، لكنه رفض ذلك بحجة السجود للصليب، لأن دخول الكنيسة يتطلب من الداخل لها السجود للصليب، وهذا مما لا يرضاه المسلم، ويقبله الـذمي وغير المسلم، وهذا ما حدث مع ابن بطوطة فقـد وصـف كنيـسة للـروم فـي القسطنطينية ويذكر لقاءه بأحد الرهبان خارجها، يقول: فسألني عن بيـت المقـدس ومن فيه من النصارى، وأطال السؤال، ودخلت معه حرم الكنيسة التي وصفناه آنفا، ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهـو من كبارهم في الرهبانية، ولما رآهم أرسل يدي، فقلت :" أريد الدخول معـك إلـى الكنيسة ". فقال للترجمان :" قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الأعظم، فـإن هذا مما سنته الأوائل ولا يمكن خلافه "[3].

وبعد، فإن التـسامح الـديني يتـرك آثـاره علـى البـشرية بالاسـتقرار والهدوء،والبعد عن الحروب والدمار والنزاعات التي تؤدي بدورها إلـى زعزعـة الأمة وانتشار الفوضى، فالتسامح إذن هو قبول الآخر والتعامل معه دون الـشعور بالتعصب الديني أو التحيز لطائفة دون أخرى .

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 234.

2 - أبو خليل، شوقي، التسامح في الإسـلام " المبـدأ والتطبيـق "، دار الفكـر المعاصـر، بيروت،ط1، 1993م، ص22 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، 323 .

2.4 أمكنة حوار الأزمنة:

كل مكان يحمل تاريخاً، وتتجلى مظاهر هذا التاريخ في الأدب بصورة واضحة، ونظرة الإنسان لهذا المكان لا يمكن فصلها عن هذا التاريخ المتوارث في الحضارات المتتابعة .

ونظراً لأن كل مكان يحمل رمزاً محدداً، و هذه الرموز تأتي نتيجة لروابط وأحداث تربط ذلك المكان بحادثة دينية أو تاريخية وقعت فيه، فيجري في ذهن الرحالة كل تلك الأحداث أثناء عبور هذه الأمكنة، ويمكن لنا تقسيم هذه الأمكنة إلى أمكنة تاريخية وأمكنة دينية من حيث الاسترجاعات المستدعاة، وبهذا يتحول المكان من مساحة مادية ملموسة إلى فضاء روحي حامل لرموز معبرة"خاضعة لقوة الاختزان الاستذكاري "[(1)] المتفاوتة بين رحالة وآخر .

وتُعد مكة والمدينة من الأماكن التاريخية الدينية، فقد عاصرت أحداثاً تاريخية كثيرة في الجاهلية، وبعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الأحداث التي مرت بها في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والعباسي، هذا عدا الأهمية الدينية المعاصرة، فهي مكان ديني وتاريخي ومعاصر في آن واحد، ولها أيضا جماليات ودلالات دينية وروحية بعيدة الأثر، "لطول التاريخ الذي يقف وراءها "[(2)]، فابن بطوطة عند حديثه عن جبال مكة ذكر جبل ثور واستعاد من تاريخه قصة الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر، فذكر أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إلي يا محمد ! إلي إلي! فقد آويت قبلك سبعين نبياً "، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار واطمأن به، وصاحبه الصديق معه، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار، وصنعت الحمامة عشاً وفرخت فيه بإذن الله تعالى، فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار،

---

1 - باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1992م، ص63.

2 - المحادين، جدلية المكان، ص 150

فقالوا هاهنا انقطع الأثر، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار، والحمام مفرخة، فقالوا: ما دخل أحد هنا، وانصرفوا "[1].

والأمكنة الدينية لا تقتصر على المساجد والكنائس بل نجد الإشارة إلى قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضوان ا عليهم، ومزارات الصالحين وأصحاب الكرامات .يقول العبدري عند زيارته لمسجد الخليل :" وفي داخل المسجد قبر الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وتقابلها من ناحية يسار القبلة ثلاثة أخرى وهي قبور أزواجهم، وكان في غربي المسجد قبر يوسف عليه السلام دفن هنالك حين نقل من مصر بوصيته، والآن قد زيد في المسجد حتى رجع قبره في داخله "[2].

كما أشار أبو حامد الغرناطي إلى قبر يزوره الناس ويتبركون به ويتوسلون به إلى ا عز وجل يقول:" وفي المغرب الأعلى قريب من القيروان قبر رجل صالح يقال له محمد المعلّم، وكان من الزهاد مستجاب الدعوة وكل من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئا، فإذا ركبوا على البحر وهاج البحر وعصفت الرياح وكثر الموج، أخرجوا من تراب قبره شيئاً وألقوه في البحر، ودعوا ا تعالى، سكن البحر وزالت الرياح، وسهل ا عليهم السفر. وهذا معلوم في أرض المغرب"[3]، وهذا مع ما فيه من الخرافة يشير إلى اهتمام الرحالة بزيارة قبور الصالحين .

إن وقوف الرحالة على أطلال الأمكنة، هو ما يعيد به الذاكرة الكامنة، فيستدعي مخزونها ويستعيد مفرداتها لحظة وقوع نظره على المكان، وهنا قد يدون الرحالة هذه الأحداث المغيبة في الذاكرة، وأحياناً قد يوجز الإشارة إلى المكان، ويترك للقارئ استدعاء تلك الأحداث .

والأماكن لا تتساوى في إثارتها للذاكرة الإنسانية، وكل مكان لا بد أن يعد نواة لأحداث واقعية، حدثت بالفعل على أرض الواقع، ومن ثم أصبح المكان التاريخي يحمل كل ملامح تلك الواقعة وذلك الحدث، فنال من الإنسان تلك المنزلة،

---

1 ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص134 .

2 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 222 .

3 - الغرناطي، تحفة الألباب، ص 114 .

وتقسم الأمكنة من حيث الاسترجاعات المستدعاة والرموز الدالة إلى أماكن تاريخية مرتبطة بأحداث تاريخية، وأماكن دينية حاملة لرموز روحية، وأماكن جغرافية ليس لها دلالات أو رموز روحية ولا ترتبط بأحداث واضحة .

1-**الأمكنة التاريخية** التي تشير إلى نشوء الحضارات أو اندثارها، وبقاء معالمها بارزة تشير إلى الاعتبار والاتعاظ بحادثات الزمان. وقد لا يدل المكان التاريخي إلى نشوء حضارة أو معلم تاريخي بل قد يشير إلى وقوع معركة تاريخية معروفة، فيحمل المكان ملامحها، ويعيد الذاكرة لها فور رؤية المكان التي وقعت فيه، وهذه الأمكنة تثير لدى القارئ ما يتعلق بها من خلفيات من مجرد ذكر اسمها ولو لم يذكر الرحالة ذلك .

والأمكنة التاريخية تحفل بأزمنة تعد جزءاً من البناء العام وهي غير الأزمنة التي يحياها الرحالة في الواقع ويدونها بعد ذلك، وإنما أزمنة مستدعاة من الماضي القريب أو البعيد تخص تواريخ خاصة بالأمكنة أو بالشخصيات أو بالأحداث من جهة، وتصب في ما هو ديني وسياسي وثقافي واجتماعي من جهة ثانية.[1]

ويتناول الرحالة المكان التاريخي من خلال السرد لما مر عليه من أحداث، وما عاناه من حوادث، وما حمل دار على ترابه من أرزاء أو مسرات، والسرد التاريخي المستند إلى قص الأحداث التاريخية والتواريخ الزمنية والوقائع التاريخية، يوحي بالجمود المفضي بدوره إلى سأم المتلقي، ومن ثم فقدان الرحلة أهم هدف من أهداف كتابتها ألا وهو إمتاع المتلقي، ونقله إلى عوالم مختلفة في نفس الوقت، فضلاً عن أن امتداد السرد التاريخي للأحداث يفقد النص جماليته الأدبية .

وبمجرد المرور بالمكان تسرع إلى الذهن الحادثة التي ترتبط بهذا المكان، فالمكان التاريخي لا يذكر بمعزل عما مر به من حوادث، فابن بطوطة عند وصوله القادسية، تعيده الذاكرة إلى معركة القادسية التي حدثت في هذا المكان، حيث انتصر المسلمون فيها على الفرس، بقيادة سعد بن أبي وقاص، يقول ابن بطوطة :"ثم نزلنا القادسية حيث كانت الواقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام

1 - حليفي،الرحلة في الأدب العربي، ص 229 .

وأذل المجوس عبدة النار، فلم تقم لها بعدهم قائمة، واستأصل ا شأفتهم، وكان أمير المؤمنين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضـي ا عنـه، وكانـت القادسـية مدينـة عظيمة"[1].

وعند مرور ابن جبير في مكة يرى المكان الذي صلب فيه عبد ا بـن الزبير رضي ا عنه، فيذكر الحادثة، يقول "وفيه الموضع الذي صلب فيه الحجـاج بن يوسف، جازاه ا ، جثة عبد ا بن الزبير، رضي ا عنهما، وعلى الموضـع بقية علم ظاهر إلى اليوم، وكان عليه مبنى مرتفع، فهدمه أهل الطائف غيرة مـنهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور"[2].

أما لسان الدين بن الخطيب فعند زيارته لمدينة أغمـات المغربيـة،تعرض لذكر قبر المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، " وزرت بخارجها قبر المعتد على ا أبي القاسم بن عباد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة ......، ثم أنشد قائلا :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالي المدلهمات[3]

فقد استدعت رؤية المكان بما يحمله من دلالات تاريخية عميقة متجذرة في كوامنه، استدعاء الزمن وإحضاره من الماضي السحيق، وصنع صورة حديثة عـن ماضٍ منقضٍ .

2-**الأمكنة الدينية**: وهي الأمكنة التي تحمل ملامح الدين، وهي تحمل الكثير مـن المعاني الروحية لأصحاب الديانات. فهناك الكعبة والمساجد للمـسلمين، والكنـائس للنصارى، والمعابد لليهود.

ولم يغفل الرحالة أثناء حلولهم في الأمكنة وطوافه فيها، لم يغفلوا الأمكنـة الدينية بكل ما تحمله من معان روحية، فهذا ابن جبير عند زيارته لجبل لبنان فـي يلفت انتباهه بيت أقيم للعبادة، حيث يقول:" وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مـصلى، وفي قبلته حجر يقال: إن إبراهيم صلى ا عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التـي

---

1 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار،ج1 ص 157 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 82-83 .

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 126-127 .

كان يسوقها أبوه للبيع "[1]. وهذا الحديث يعيد بنا الذاكرة إلى قصة سيدنا إبراهيم مع والده الذي كان يعبد الأصنام ويتخذها آلهة.

كما يعيدنا البكري إلى قصة بلقيس ملكة سبأ حيث يقول:" ومـأرب مدينـة لسبأ، وبها عرش بلقيس، وكان العرش مبنيا على أساطين حجارة، وكـل اسـطوانة منها فوق الأرض ثمانية وعشرون ذراعا، فاحتمل العرش وبقيت الأسـاطين علـى حالها. ويقال إن تحت الأرض من تلك الأساطين مثل ما فوقها، وغلظ كل اسطوانة منها لا يحضنه أربعة نفر، وفيها سوق ومسجد" [2] .

ومن الأماكن التي حرص الرحالة على زيارتها، أمـاكن قبـور الأنبيـاء والصحابة،ومزارات الصالحين، وهي أماكن لها دلالات دينية ومقدسة دينيـاً عنـد أصحاب الديانات، كما تثير هذه الأمكنة لدى القارئ ما يتعلق بها من خلفيات عـن حياة النبي أو الصحابة أو غيرهم من ذوي الكرامات. واستدعاء هـذه المعلومـات يشير إلى مدى رسوخها في ذاكرة البشرية، وترى الباحثة أن استدعاء المعلومـات حول الأمكنة مسألة نسبية، فكلما كان المكان أكثر شهرة لـدى المجتمعـات، كـان استدعاء المعلومات حوله أيسر وأسرع، فابن ابن بطوطة يعيدنا إلى تاريخ بحيـرة طبرية وما مر عليها من تاريخ، حيث يقول:" وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء، فيه قبر شعيب –عليه السلام – وبنته زوج موسى الكليم –عليه الـسلام -، وقبـر سليمان – عليه السلام-، وقبر يهودا، وقبر روبيل، صلوات ا وسلامه على نبينـا وعليهم -. وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقي فيه يوسف –عليه السلام-، وهو في صحن مسجد صغير، وعليه زاوية، والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر، وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضاً"[3].

وهنا نشير إلى تعلق الرحالة بزيارة القبور للصلاة والتبرك، على الرغم من أن النبي صلى ا عليه وسلم قد نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ونهى عن الـصلاة فيها بقوله قبل وفاته :" إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبـور مـساجد، ألا فـلا

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 225 .

2 - البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ص 33 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص 64 .

تتخذوا مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك "[1]، وورد في صحيح مسلم أيضا أنه قال: "لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها "[2] .

يقول البلوي مؤكداً على اهتمامه بهذه المزارات : "ثم قصدت القرافة وهـي ما بين مصر والقاهرة بلدة كبيرة منفصلة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها وهـي إحدى العجائب بما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات ا عليهم وأهل البيـت رضوان ا عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد .....ومما رأيت فيها قبـر أبي النبي صالح عليه السلام وقبر يعقوب عليه السلام، وقبر آسية وقبور جماعـة من أهل البيت رضي ا عنهم على كل واحد منها بناء حفيل بديع الإتقان عجيـب البنيان عليها تواريخهم مكتوبة بأسمائهم"[3].

ويقول ابن جبير في وصف قلعة بالقرب من حمص :" وبقبلي هذه المدينـة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، قد انحازت وتميزت بموضـوعها عنهـا، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد، رضي ا عنه، هو سـيف ا المـسلول، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن "[4]، فالرحلة ستبقى ناقصة إذا لم يزر الرحالـة قبـور الأنبياء والصحابة والصالحين والأولياء.

وهنا نؤكد على هذا الاعتقاد الخاطئ، الذي سار عليه معظم الرحالة وهـو التبرك بزيارة قبور الأولياء والصالحين، فلم يسافر أحد من الصحابة في خلافة أبي

---

1 - النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري،(ت261هـ)، صحيح مسلم (المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسـول ا صـلى ا عليه وسلم)، حققه أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، دار طيبة، الريـاض، ط1، 2006م، كتـاب الصلاة – باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

2 - النيسابوري،صحيح مسلم، كتاب الجنائز – باب النهي عن الجلوس على القبـر والـصلاة إليه.

3 - البلوي، تاج المفرق، ج1ص223 .

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 201 .

بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي ومن بعدهم إلى انقراض عصرهم، ولم يـسافر أحد منهم إلى قبر نبي ولا رجل صالح .[1]

كما لم يسافر أحد من الصحابة إلى قبر الخليل عليه السلام بالشام، وكـانوا يأتون البيت المقدس يصلون فيه ولا يذهبون إلى قبر الخليل عليه السلام .[2]، ولـم يكن قبر يوسف الصديق يعرف ولكن أظهر ذلك بعد أكثر من ثلاثمائـة سـنة مـن الهجرة، ولهذا وقع فيه نزاع فكثير من أهل العلم ينكره، لأن الصحابة لـم يكونـوا يزورونه ليعرف[3].

ولم يكن أحد من الصحابة يسافر أيضاً إلى المدينة لأجل قبر النبي صلى ا عليه وسلم، بل كانوا يأتون فيصلون في مسجده ويسلمون عليه في الصلاة، ويـسلم من يسلم عند دخول المسجد والخروج منه، وهو صلى ا عليه وسلم مـدفون فـي حجرة عائشة رضي ا عنها فلا يدخلون الحجرة .[4]

3-**الأمكنة الجغرافية**: وهي لا تحمل أية ملامح دينية أو تاريخيـة، وذلـك لعـدم ارتباطها بأية حادثة تاريخية أو دينية، وإنما قد تشتهر بحسن مناخهـا أو رداءتـه، وهذا ما نجده في بعض أماكن العبور التي يمر بها الرحالة سريعاً دون أن تـؤثر فيه، أو تذكره برمز ما، ومن أكثر الأماكن دلالة على ذلـك الأمكنـة الـصحراوية الخالية من السكان، والقرى البعيدة عن المدن المأهولة .

والمكان حسب هذه النظرة يمكننا تقسيمه إلى مكانين: مكان قـديم ومكـان حديث، والمكان القديم هو نفسه المكان التاريخي؛ وذلك لارتباطه بأحداث تاريخيـة

---

1 - ابن تيمية، تقي الدين أحمد، الجواب الباهر في زوار المقابر، صحح أصله وحققه سـليمان بن عبد الرحمن الصنيع، شارك في تحقيقه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ط عام 1984م، ص18.

2 - ابن تيمية، ، الجواب الباهر في زوار المقابر،، ص18

3 - ابن تيمية، ، الجواب الباهر في زوار المقابر، ص18

4 -ابن تيمية، ، الجواب الباهر في زوار المقابر، ص18

شهدها [1]، أما المكان الحديث هو المكان الذي تم إنشاؤه حديثاً، ولم يرتبط بحادثة ما[2].

وحضور الوصف لا بد أن يلغي الزمن ويعطل تدفق الأحداث، فيلجأ الرحالة إلى وصف المكان ومحتوياته من أبنية وعمران وحدائق وبساتين وأنهار ومياه جارية وغيرها من أشياء محيطة، وهنا يتوقف الزمن عن الحركة تاركاً المجال أمام هيمنة المكان وسيطرته في ملء فراغ الرحلة، وبعد هذا الوقفة المكانية، يعود الزمن مجدداً مبرزاً أشهر الأحداث في سياق الرحلة،يقول البلوي في وصف عسقلان " وهي مدينة كبيرة مفروشة بالرخام عجيبة وكانت مدينة إبراهيم عليه السلام، وفيها آثار النمرود من كنعان، فسرحنا بمسرح آمال، جنتان عن يمين وشمال، روضات قد أينعت فيها الأزهار، وانبعثت الأعين وغنت الأطيار، فحللنا بلداً أقفر وخرب، وأكل الدهر على محاسنها وشرب،وترك ساحاته كدار مية بالعلياء، وغادر منقض الفناء، متقاص الأفياء، فأطلت الركوع والسجود في ذلك المسجد الحافل، وظلت أتبرك بما تضمنه من الآثار الجلائل، وجعلت أجول معتبراً بين تلك المنازل وأتمثل بقول القائل:

ما للمنازل لا يجبن حزينا أصممن أم بعد المدى فبلينا

دمن تقادم عهدهن على البلا فلبثن من بعد الشهور سنينا

من مدينة مأثورة الفضل قليلة النظير في الحسن عديمة المثل لم يبق منها إلا رسومها الواهية وأطلالها العالية البالية، وأزقتها الخاوية الخالية"[3] .

ورغم ما يلاحظه القارئ في هذا النص من سيطرة الوصف، إلا أن النص لا يخلو من بعض الحركة الدالة على وجود الزمن، فالرحالة خلال وصفه للمكان أطال السجود والركوع، ثم تجول بين الحين والأخر معتبراً بما تحمل تلك الآثار من عبر ومواعظ، وهذا ما يدعو الباحثة إلى القول إن الوصف المكاني لا يمكن أن يخلو من حركة الزمن في أغلب الأحوال، أو كما عبر عن ذلك مرتاض حيث يرتبط

1 - المحادين، جدلية المكان، ص 136 .

2 - انظر : المحادين، جدلية المكان، ص 136 .

3 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص 17 .

الزمان بالمكان " إلى الحد الذي يستحيل فيه تناول المكان بمعزل عن تضمين الزمان كما يستحيل تناول الزمان في دراسة تنصب على عمل سردي، دون أن لا ينشأ عن ذلك مفهوم المكان في أي مظهر من مظاهره "[1].

كما أن النص السابق لا يخلو من بعض الدلالات المعنوية الواضحة، مثـل تقدير الرحالة واحترامه للمكان الممتزج بالتاريخية والدينية، فالرحالة بما يحملـون من مشاعر دينية تجذبهم من التقرب ؛ لذلك نـراهم يتبركـون بقبـور الأنبيـاء والأولياء، ويطيلون المكوث حولها للتعبد وذكر ا عز وجل .

ومن الدلالات المعنوية التي يحملها النص السابق الإشارة إلى الاعتبار بمن مضى في القرون الخالية، التبصر والتأمل في صروف الزمن، فلا شيء يبقى على حاله، والزمن في حالة دوران وجود وزوال، فقد ذهب النمرود وبقيت آثاره شاهدة، كما ذهب الناس وبقيت المنازل شاهدة على مرورهم وسكنهم فيها .

وبما أن المكان أي مكان إنما هو ترجمة للزمن علـى أرض الواقـع وأن التفاعل القائم بين الإنسان والمكان بدوره آخذ مما فـي أصـحابه مـن خـصائص وسمات[2]، فالإنسان هو الصانع المكان بأعماله وبتغييره له، كـذلك فأنـه يـصنع الزمن بإحداثه نقاط تغيير فيه، والمكان محفور في الذات الإنـسانية، فبـه ارتـبط التاريخ، حيث ارتبط التاريخ الميلادي بزمن ميلاد المسيح، أما التاريخ الهجري فقد ارتبط بهجرة النبي صلى ا عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

وحين يندمج الزمان والمكان نحصل على المكان التاريخي وهو انصهار علاقات المكان والزمان في كلٍ واحدٍ مدرك ومـشخص، الزمـان هنـا "يتكـاثف ويتراص، بحيث يصبح شيئا مرئيا في المكان، يندمج في حركة الزمن والموضوع بوصفه حدثا أو جملة أحداث"[3]. فقد سميت القدس الأرض المقدسة " لأنها طُهـرت

---

1 - مرتاض، عبد الملك، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1995م،ص227 .

2 - زايد، المكان في الرواية العربية، ص112 .

3 - بختين، ميخائيل، أشكال الزمان والمكان الفني في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة –دمشق،1990م، ص6 .

من الشرك وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين "[1]، فارتبط اسمها بما دار فيهـا مـن أحداث، فجاء الزمان ممتزجاً بالمكان منصهراً فيه،، وهذا ابن بطوطة يـشير إلـى ارتبط الزمن بالمكان، حيث ارتبط اسم حلب بما دار فيها من أحداث ماضية " ويقال في مدينة حلب "حلب إبراهيم "لأن الخليل صلوات ا وسلامه على نبينا وعليـه – كان يسكنها، وكانت له الغنم الكثيرة، فكان يـسقي الفقـراء والمـساكين والـوارد والصادر من ألبانها، فكانوا يجتمعون ويسألون :"حلب إبراهيم"؟[2].

---

1 - ابن الجوزي ، فضائل القدس، ص 67 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص69 .

الفصل الخامس

أدبية وصف الأمكنة وشعريتها

اختلفت أساليب الرحالة في مدوناتهم بناء على تنوع اهتماماتهم، فقد شدت العجائب والغرائب بعض الرحالة، فصب جل اهتمامه على تتبعها وتدوينها، وجاء اهتمام بعضهم الآخر بتدوين السيرة الذاتية أكثر من اهتمامه بتدوين الرحلة نفسها، وهذا ما حدث مع ابن خلدون في رحلته، حتى إننا لم نجد وصفاً للأماكن المقدسة عند زيارته لها في رحلته[1] . كما خصص بعض الرحالة رحلاتهم لتدوين أسماء شيوخهم وأساتذتهم، ومن الرحالة من صب جل اهتمامه لتدوين السير والأنساب،[2] أما العدد الأكبر من الرحالة فقد كان اهتمامه بوصف المكان وسمات أهله .

وبناء على تنوع اهتمامات الرحالة، فقد تنوعت أساليب كتابتهم ومدوناتهم، وغني عن البيان أن وصف التجارب والمشاهدات والانطباعات الشخصية كان يطلق العنان للكاتب للسمو بأسلوبه إلى آفاق لا تتاح لمؤلفي الكتب العلمية، فتميز أسلوبهم الأدبي بالأداء الفني المميز، ونضارة الأسلوب. [3]

ومن القضايا المهمة التي برزت من خلال أساليب الرحالة، التعارضات بين ترتيب القصة وترتيب النص هي ما يعرف تقليدياً باستعارة الأحداث الماضية من جهة، والتوقع من جهة ثانية، أما استعارة الأحداث الماضية فيطلق عليه الاسترجاع .[4] ونعني بالاسترجاع هو : توقف السرد عند مرحلة معينة والرجوع للوراء، سواء كان ذلك الاسترجاع داخل إطار الرحلة أو خارجها [5].

---

1 - ابن خلدون،التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقاً، ص 350 .

2 -انظر : ابن عبد البر، القصد والأمم، على سبيل المثال ص،8، 9، 10، 11 . فالرحلة في مجملها تتحدث عن أنساب العرب والعجم والبربر .

3 - انظر : العسلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين،ص 27 .

4 - النعيمي، أحمد، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م، ص33 .

5 - انظر : يوسف، آمنة، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 1997م، ص 71 .

ومن قضايا الأسلوب المهمة أيضا التناص بأنواعه المختلفـة، والعجائبيـة والغرائبية، ومنها أيضاً قضية الإيقاع:

1.5 الاسترجاع :

الاسترجاع :هو "الرجوع بالذاكرة إلى الوراء البعيد أو القريب "[1] بعد نقطة انطلاق الرحالة الأولى وهو ما يمكن تسميته الاسترجاع الـداخلي، أو قبـل تلـك النقطة، أي خارج نطاق الرحلة ؛ كالحديث عن طفولة الرحالة، وهذا ما أُطلق عليه الاسترجاع الخارجي[2] .

إن تحطيم الترتيب الزمني هو النتيجة الأكثر وضـوحاً للانتقـاص مـن الحاضر والمستقبل لصالح الماضي،[3] وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الانتقاص يتم لأن تحطيم الترتيب الزمني غالباً ما يأخذ شكل العودة إلى الـوراء إلـى الـذكريات، أو الأحداث التي تركت أثراً في نفس الشخصية .[4]

ويلتقي الزمنان عند درجة الصفر في الكتابة [5]، بحيث يفتقر الـنص إلـى جماليات الاسترجاع أو الاستباق؛ لأن تكسير الزمن يحطم تقليدية القـصة وابتـداع بناءات جديدة وإطلاق المخيلة، واستثمار التـراث الـسردي الرسـمي والـشفوي والمكتوب، والكتابة بلغة شعرية وتهجين السرد بلغات شتى[6] .

وللإنسان رصيد كبير من الخبرة والتجريب والمعرفة، وليست هـذه هـي مكانة الماضي بالنسبة للفرد، بل أن للماضي عند المجتمعات أهمية أكبر، فماضـي

1- يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص71 .

2- يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص71 .

3- النعيمي ، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص32 .

4 -انظر : النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص32 .

5 - يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1998م، ص72 .

6 - سليمان، نبيل، الجمالي في المشهد القصصي في الأردن،مجلة أفكار،وزارة الثقافة، عمـان، عدد 135، تموز، 1999م، ص 27 .

المجتمع هو جماع خبراته وتجاربه، وهزائمه وانتصاراته، وهي جميعـاً فعاليـات مستمرة، متصلة، عاشها الأجداد ويرثها الأولاد، فالماضي هو تاريخ المجتمعات.[1]

إن استذكار الأحداث أو الوقائع الماضية، يأخذ أكثر من بعد، فقـد يكـون الماضي على شكل وخزات ضمير، وقد يكون على شكل اعتداد بالنفس لما حققتـه من انجازات بمعنى أنه قد يكون لذلك الماضي علاقته بمحاولة استشراف المستقبل، وقد يكون أحد الحوافز التي تدفع الشخصية لمحاولة تجاوز واقعها وصنع مـستقبل جديد[2].

وللاسترجاع وظائف منها:

أ- إعطاء معلومات عن ماضي عنصر من عناصر الحكاية [3]، وهذا نجده في الرحلة من خلال الإشارة إلى ماضي شخصية ورد ذكرها في ثنايا الرحلة، ومن ذلك ما نجده في حديث الرحالة عن شيوخهم الذين درسوا على أيديهم، أو عن تاريخ مدينة من المدن عند الحلول فيها، يقول التجاني:"ومن سوسة ركب أسد بن الفرات[4] البحر غازياً إلى صقلية سنة اثنتي عشرة ومائتين، فافتتح كثيراً من معاقلها، وتغلب على كثير من مدنها، ومات في العام الذي يليه وهو محاصر لها، قالوا ونزل الروم على سوسة في الزمن القديم في ثلاثين ألف مقاتل "[5]، ورحلة ابن عبد البر " القصد والأمم " جلها استرجاعات، حيث يؤكد على هدف كتابه بقوله :"أما بعد فإني أذكـر

1- انظر : محبك، أحمد زياد، دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة، منـشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط1، 2001م، ص 23 .

2 - النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص32 .

3 - النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص34 .

4 - أسد الدين بن الفرات بن سنان مولى بني سليم،ولد عام 142هـ،وهو أحد القادة الفـاتحين، أصله من خراسان، رحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة 172هـ، ثم ولي قضاء القيـروان سنة 204هـ، كان شجاعاً حازماً صاحب رأي، استعمله زيادة ا الأغلبي على جيشه وأسطوله ووجهه لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـ وهو أول من فتح صقلية، توفي من جراحات أصـابته وهو محاصر سرقوسة 213هـ .انظر : الزركلي، الأعلام، ج1، ص 298م، ابـن الخطيـب، الإحاطة، ج1، ص422 .

5 - التجاني، الرحلة، ص 26 .

في هذا الكتاب بعون الله إن شاء الله أصول أنساب الأمم من العرب والعجم، وما تداخل من بعضهم في بعض على تباعد البلدان على مر الدهور والأزمان "[1] .

ويأخذ هذا النوع من الاسترجاع صفة تذكيرية، وذلك للتذكير بمواقف أو أحداث سابقة لزمن الحكاية المسرودة، وهذا بدوره يحدث إيقاعاً في الزمن، حيث نجد الرحالة يعود إلى الماضي بهدف إضاءة تاريخ ما، مما يثري النص السردي، ويقطع التسلسل الزمني، من خلال العودة إلى الوراء البعيد، والتحدث من خلال الفعل الماضي. وليس غريباً أن يحرص الرحالة على تسجيل الماضي، لأنه بهذا يحفظه من الضياع، ويستفيد من خبراته .

والحكاية في الرحلة لا تسير وفق خط مستقيم فهناك فرق كبير بين الخط المتعرج والخط المستقيم، فالخط المتعرج "متعة بكينونته المتعرجة، وبمتابعته في تكويناته، وما يثيره فينا من حالات وهواجس ونوازع، والثاني هو موضوع مباشر، ينتهي بنا للغاية بأقصر الطرق، دون إضافة أية عناصر تثير فينا التأمل "[2].

ب- "التذكير بأحداث ماضية وقع إيرادها فيما سبق من السرد"[3]، بمعنى تكرار الأحداث، وهو إيراد الأحداث المهمة أكثر من مرة، " حيث يترك الرحالة مستوى القص الأول ليعود إلى بعض الأحداث الماضية، ويرويها في لحظة لاحقة لحدوثها، سواء أكانت هذه الأحداث ورد ذكرها فيما سبق أم لم يرد ذكرها [4]، " ولعله من المفيد الإشارة إلى أن التكرار يفيد أحياناً التوكيد وإبراز أهمية حدث دون غيره"[5]، والماضي في الرحلة يتميز بمستويات مختلفة متفاوتة من ماض بعيد وماض قريب[6] .

---

1 - ابن عبد البر، القصد والأمم، ص 8 .

2 - إسماعيل، يوسف، المقامات (مقاربة في التحولات والتبني والتجاوز)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007م، ص 166 .

3 - النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص34 .

4- انظر : يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص71 .

5 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص82 .

6- انظر : يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص71 .

وقد أكثر ابن خلدون من هذه الطريقة في السرد، فقد كرر أكثر من حادثة في ثنايا رحلته، فمن الحوادث المكررة لديه، حادثة غرق زوجته وبناته في البحر عند قدومهن من تونس، يقول :"ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، فذهب المولود والسكن والموجود [1]، ثم يقول ملخصاً في موطن لاحق :" فحضضت السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما ينتقيه من الجياد الرائعة، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي، فغرقت بمرسى الإسكندرية، ونفقت تلك الجياد، مع ما ضاع في ذلك السفين، وكل شيء بقدر "[2].

فقد جاءت رواية الحادثة أثناء الرحلة أكثر من مرة واحدة، ويؤكد ذلك على أهمية الحدث المذكور، إذ يعد نقطة فاصلة في حياة الرحالة.

ويتوسل الرحالة إلى الاسترجاع من خلال آلية التلخيص، حيث يكثف الرحالة" أحداثاً كثيرة بجمل أو عبارات قصيرة، وبهذا لا تقتصر وظيفة الاسترجاع على ملء الثغرات أو تغيير الرؤى، وإنما يقوم الاسترجاع بوظيفة بنائية حيث يعمل همزة وصل بين الوحدات السردية الصغرى، بحيث يبدو النص متماسكاً، والوقائع الصغيرة متجاورة مكانياً، كما يسعف المتلقي في إعادة ترتيب القص بطريقة تفضي إلى تقديم معنى أو مغزى، وبذلك يستحيل الاسترجاع بذاته معنى من المعاني، فضلا عن كونه تقنية فنية جمالية"[3].

ونتيجة لذلك نشأت أنواع مختلفة من الاسترجاع [4] :

1- **الاسترجاع الخارجي**: وهو ما يعود فيه الرحالة إلى حدث قبل بداية الرحلة، وهذا الحدث قد يستدعيه السياق، أو قد يأتي لتأكيد حقيقة معينة، أو لأن الرحالة تطرق لذكر حادثة مشابهة، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في سياق رحلة ابن

1 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 259 .

2 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 339 .

3 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص 73 .

4 - قاسم، بناء الرواية، ص 40 .

الخطيب، مدحه لرجل -يدعى ابن خدو- احتفل بضيافته، فمدحه في أبيات شـعرية منها:

وقابلنا بالبشر واحتفل القِرى   فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد

يحق علينا أن نقوم بحقه   ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وهذا ما استدعاه لتذكر نفس الموقف الذي حدث لبشار بن برد،عندما قيل له أنت تقول: [1]

إذا ما غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

ثم تقول: [2]

ربابة ربة البيت   تصب الخل في الزيت

لها سبع دجاجات   وديك حسن الصوت

فقال: قلت ذلك أخاطب امرأة من البادية في خيمة قرتني بدجاجة وبـيض، كانت لديها أحسن من :"قفا نبك من ذكرى حبيـب ومنـزل "[3] وقـد جـاء هـذا الاسترجاع ممتزجاً مع مضمون السرد حيث كان الحديث عن كرم الإنسان بكل مـا يملك، فالرجل المذكور في الحكاية قدم كل ما يملك، فنال تلك الأبيات مـن المـدح ونشْر الذكر، كما أن تلك المرأة أكرمت الشاعر بشار بن برد وقدمت لـه دجاجـة وبيضها، فكان جزاؤها نشر الشاعر لذكرها .

2- الاسترجاع الداخلي: يعود إلى ماض لاحق لبداية الرحلة قد تأخر تقديمـه فـي النص .يقول ابن بطوطة " وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم محمد بـن الحجر الذي تقدم ذكره"[4]، وهذا الاسترجاع في الحديث استدعاه السرد لأن صاحب الرحلة أراد الحديث عن قصة الميراث الذي تركه هذا الرجل .

---

1 - ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، راجعه وصححه محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، ج4، ص163 .

2 - ديوان بشار بن برد ،ج4ص 27-28.

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 142 - 143 .

4 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1ص 21 .

ومن الاسترجاع الداخلي قول ابن بطوطة:" ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام، وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة، وكنت تركت بها زوجة لي حاملاً، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنّها ولدت ولداً ذكراً فبعثت حينئذٍ إلى جده للأم، وكان من أهل مكناسة المغرب، أربعين ديناراً ذهباً هندياً "[1] .

وقد قسم أحمد النعيمي الاسترجاع إلى ثلاثة أشكال من الناحية العاطفية التي تمثل ركنا أساسيا من أركان العمل السردي:[2]

1-الاسترجاع المؤلم: وفيه تتذكر الشخصية أو –تعيد علينا ما هو مؤلم في حياتها الشخصية.

2-الاسترجاع السار: وفيه تتذكر الشخصية أو تعيد علينا ما هو سار في حياتها أو حياة غيرها .

3- الاسترجاع المحايد : وفيه تعيدنا الشخصية إلى أحداث ماضية، لا نستطيع الجزم بمدى تأثيرها إلا في مراحل لاحقة من السرد الروائي على أنه في الحالات كلها يظل للماضي بأشكاله وأصنافه كافة تأثيره البارز في حاضر الشخصية ومستقبلها كذلك .

فالاسترجاع يعمل على كسر الزمن السردي، وإحداث حركة في النص والقضاء جموده، حيث أن الإفراط في الواقعية يحول "النص إلى شهادات توثيقية تميل لأن تصير رسائل في التاريخ والجغرافيا والاجتماع وما يتفرع عنها، وذلك بالتركيز على الأوصاف والأمكنة وعلى استعادة الأحداث والواقع "[3] .

فهذا القلصادي يكسر خط سير الرحلة بالعودة إلى الوراء، على شكل استذكارات، حيث أن رؤية المكان هي إحدى الدوافع لحدوث تلك الاسترجاعات، حيث يقول عند زيارته لجبل ثور:" وفي أثناء تلك الأيام ذهبنا إلى زيارة جبل ثور، وفيه الغار الذي قال فيه المولى سبحانه وتعالى :"وثاني اثنين إذ هما في الغار ...".

---

1 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج2،ص 248 .

2 - النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ص34 .

3 - حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 255 .

ومن المعجزات الموضع الذي دخل فيه صلى ا عليه وسلم، وعليه نسج العنكبوت وعش الحمام "[1]

وكذلك قول ابن جبير في وصف مدينة نصيبين: " رحم ا أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول[2]:

طابت نصيبين لي يوماً فطبت لها يا ليت حظي من الدنيا نصيبين[3]

فرؤية هذه المدينة أعادت الذاكرة بالرحالة إلى الوراء، فاستدعت بيت أبـي نواس في ذكر هذه المدينة، فيصبح المكان هو المحرك لتلك الاستدعاءات.

2.5 العجائبية والغرائبية:

لا بد من الوقوف بداية عند مفهوم العجائبية والغرائبية في اللغـة، فأصـل العجب في اللغة عند ابن منظور:" أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال قـد عجبت من كذا"[4]، والتعجب هو أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله[5].

بينما يرى القزويني أن العجب:" حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه "[6]، ويرى الجرجاني أن العجب تغيـر النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله[7].

---

1 - القلصادي، الرحلة، ص136 .

2 - لم أعثر على هذا البيت في ديوان أبي نواس .

3 -ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 186 ..

4 - ابن منظور، لسان العرب، باب عجب.

5 - ابن منظور، لسان العرب، باب عجب .

6 - القزويني، أبو عبد ا زكريا بن محمد بن محمود الكوفي الأنصاري(682هـ)، عجائـب المخلوقات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمنشورات، بيروت، لبنان،ط1، 2000م، ص 10 .

7 - الجرجاني، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، كتاب التعريفات مع فهرست تعريفات ومصطلحات لغوية وفقهية وفلسفية، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص 158 .

والغربة عند ابن منظور:البعد والنوى [1]، أما الراغب الأصفهاني فيرى أن الغريب يقال لكل متباعد، وكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير فهو غريب.[2]

والغريب : كل أمرٍ عجيب، قليل الوقـوع، مخـالف للعـادات المعهـودة، والمشاهدات المألوفة، وذلك إما من تأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكية، أو أجرام، كل ذلك بقدرة ا وإرادته، وضمن ذلك معجزات الأنبياء صلوات ا وسلامه عليهم أجمعين، كانشقاق القمر وانفلاق البحر .[3]

ومن هنا يتبين لنا أن هاتين الكلمتين تنطلقان "من أرضية لغويـة دلاليـة مشتركة، وهي الغموض وغير المألوف "[4].ويؤكد تـودوروف أن العجـائبي هـو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما يواجه حـدثا فـوق- طبيعي حسب الظاهر[5] .

ولتحقيق العجائبي لا بد من توفر ثلاثة شروط (أولهما وثالثهما إلزاميـان، وثانيهما اختياري)[6].

الشرط الأول: لا بد أن يحمل النص القارئ على اعتبار عالم الشخصيات كما لـو أنهم أشخاص أحياء، وعلى التردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق طبيعي للأحـداث المروية .

---

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة غَرب .

2 - انظر : الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد،(ت 425هـ)، مفردات ألفاظ القرآن،تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بيروت، والدار الشامية بيروت،ط1، 1992م، ص604 .

3 - انظر : دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج7،ص 292

4 - شعلان،سناء، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة فـي الأردن (1970 -2002)، المكتبة الوطنية، عمان، 2004م، ص19 .

5 - تودوروف ، تزفتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، تقـديم محمـد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1،1993م، ص18 .

6 -انظر : تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 18 -19 .

الشرط الثاني : قد يكون هذا التردد محسوساً بالمثل، من طرف شخصية، فيكـون دور القارئ مفوضاً إليها، ويمكن بذلك أن يكون التردد واحـدة مـن موضـوعات الأكثر، مما يجعل القارئ -في حالة قراءة ساذجة –يتماهى مع الشخصية .

الشرط الثالث : ضرورة اختيار القارئ لطريقة خاصة في القراءة، من بـين عـدة أشكال ومستويات، تعبر –أي الطريقة –عن موقف نوعي يقصي التأويلين الأليغوري (المجازي) والشعري (الحرفي أي غير التمثيلي). ويستغرق العجائبي زمن التـردد، وحالما يختار المرء هذا الحل أو ذاك فإنه يغادر العجائبي ليدخل في أحد الجنـسين المتجاورين[1]:

جنس الغريب: إذا قرر القارئ أن قوانين الواقع تظل سليمة وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة.

جنس العجيب: إذا قرر أنه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن تفسير الظواهر بها.

فالعجائبي يرتبط بالحاضر ويقوم فيه زمن التردد والقراءة،والتردد هو الذي يمد العجائبي بالحياة[2]، وكثيراً ما يتداخل الغرائبي و العجائبي في النص الواحـد، ويصبح إيقاف كل منها عند تخوم واضحة أمراً صعباً يحتاج إلى مهارة ودقة، وقدرة على التأويل، وجمع شتات الظواهر والأحداث، وردها إلى الواقع واللاواقع .[3]

وقد أثارت القصص العجائبية الشكوك فيها منذ القدم، فقد قال الجاحظ :"ذكر بعض الحكماء أعاجيب وتزيد البحريين فقال :البحر كثير العجائب، وأهله أصـحاب الزوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد

1 -انظر : تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 19.

2- انظر : تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 19.

3 -انظر : شعلان، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القـصيرة فـي الأردن، ص 29 .

أن يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائـب الأحاديـث سـلما إلـى ادعـاء المحال"[1].

وقد وجدت العجائبية في الأنماط السردية العربية بكثرة مـن خـلال الأدب الشعبي وحكايات الشطار والعيارين، كما نجدها في أدب الرحلات، وقد وقف محمد أركون على ثلاث لحظات عجائبية يمكن من خلالها رصد مجمل الأدب العجائبي[2]:

التأكيد والإظهار: يعمد المحكي العجائبي انطلاقا من عملية المسخ إلى إبراز وتأكيد حضور الكائن، ومنحه معطى إيحائيا.

التعددية: يقوم المحكي العجائبي على تصوير الكائنات بشكل مفارق

التشارك: ينهض هذا المحكي على إضفاء صفات فوق طبيعية على كائنات طبيعية.

ويقول لويس فاكس " يحب القص العجائبي ....أن يقدم لنا بشرا مثلنا، فيما يقطنون العالم الذي نوجد فيه، إذ بهم فجأة يوضعون في حـضرة المـستغلق عـن التفسير "[3].

إن حكايات الرحالة وقصصهم المستحيلة التي يـذكرونها وطريقـة نقلهـم للخرافات تجعلهم أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية، بل ومن كبار معتقديها، إذ احتلت المسائل المتعلقة بالخرافات وحكايات الكرامات والغرائب والدراويش المنزلة الأولى بالنسبة لأبي حامد الغرناطي، وابن بطوطة .

وقد أثار اهتمام ابن بطوطة بالغرائب بعض النقاد، فقال : لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه إذ لم يلق بالاً لجوانب الحياة التي تهم عصرنا، ولكن هل كـان بـدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط الذي عاش فيهما وذلك على ضوء الظـروف الحضارية السائدة إذ ذاك ؟ ثم يضيف :لتكن حضارة العرب والإسلام، كما يقـول نقولا زياد " قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة، لعل أهمهـا التجميـد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه، فحصرت الجهد الفكري فيما مـن

1- الجاحظ،أبو عثمان عمر بن بحر، ت(255هـ)، البيان والتبيين4ج، تحقيق وشـرح عبـد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7، 1998م،ج2، ص112-113

2 - مويقن، بنية المتخيل، ص238 .

3 - تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص49 .

شأنه أن يقوي كيانها، ويظهر زيغ خصومها . وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها". [1]

ومن الأمور التي يمكننا عدها من الغرائب، ما أورده أبو عبيد البكري وغيره من الرحالة حول سلوك الحمام في مكة، وعدم محاذاته للكعبة أثناء الطيران، يقول البكري :" من عجائب مكة أن الحمام، وجميع الطير يهوى في طيرانه، فإذا قارب أن يحاذي الكعبة أخذ يميناً وشمالاً ولا يعلوها البتة ولا ينزل على جدرانها إلا أن يكون مريضا، والطير تنزل على سائر جدر المسجد وقبة زمزم " [2].

ومن الموضوعات العجائبية في رحلة ابن بطوطة، رغبة المنبر في الإقامة بمسجد مدينة منفلوط حيث يذكر ابن بطوطة توقف المركب الذي يحمل المنبر المخصص للكعبة في منفلوط بمحاذاة مسجدها الجامع. [3]

وهذا الحدث الغرائبي يفتقد إلى التفسيرات المنطقية، وذلك أن التعليل المنطقي العلمي لا يمكن أن يعطي له تفسيرا وجواباً مقنعاً ؛ وذلك لعدم انتمائه للواقع،"فالمنبر كأنه يحس ويختار المكان الذي يلائمه، وهذا حدث غير مبرر تاريخياً" [4] .

إن افتقار رحلة ابن بطوطة الشديد إلى التدقيق والنقد التحليلي يطبعها بطابع الرحلة الخرافية ؛ إذ هي في أجزاء كثيرة منها ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية . ولو أثبت ابن بطوطة أنه حاول استخدام التحقيق والتحليل والنقد محكاً للنظر في الأمور لصفّى كثيراً من أخباره، وارتفع بقيمتها وبالتالي أكسب رحلته أهمية أكبر، على غرار ما حاول ابن جبير في رحلته أحياناً [5] .

---

1 - حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص 40 .

2 - البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ص 80 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ص 49 .

4 - الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي، ص 49 .

5 - حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص 51 .

إن الاكتشافات والمفاجآت هي بعض الحوافز للسفر، فكلما واجـه الرحالـة المفاجآت حثت خطاه في السير قدماً نحو التوسع والاطلاع على المجهـول، وكلمـا تنقل الرحالة في المكان ظهر له من الحقائق والغرائب الـشيء الكثيـر، وحركـة الرحالة في المكان الرحلي يشي بالبحث عن الشيء الجديد أو الغريب، وهـذا مـا كشفت عنه رحلة كل من العذري و ابن بطوطة و الغرناطي، وقد جـاء اهتمـامهم بالغرائبية متفاوتاً، حيث احتلت العجائبية المرتبة الأولى من اهتمامات الغرناطي، أما ابن بطوطة والعذري فقد تنوعت اهتماماتهم بالإضافة إلى الغرائبية .

وقد جاءت العجائبية في حكايات الرحالة في صنفين مـن حيـث التحقـق والتثبت من صحة المرويات :

الصنف الأول وهو ما لم يتحقق من صحته، وقد أورد الرحالة فـي بدايـة الحكاية قولهم : أخبرت أو سمعت، ونمثل عليه بقول العـذري :" ومـن الغرائـب أخبرت أنه كان بناحية مدينة إلبيرة[1] صورة فرس مـن حجـر، وكـان الأطفـال يركبونه، فكُسر بعضه، فقيل إن في تلك السنة التي كسرت الصورة استولت الفتنـة على ألبيرة ودخلها البربر، وكان ذلك العام أول خرابها"[2].

أما **الصنف الثاني** من الغرائبي، وهو ما سجله الرحالة عن طريق التثبـت والمشاهدة : ونمثل عليه بقول العذري :" ومن الغرائب رأيت بمدينة المريـة سـنة أربع وخمسين وأربعمائة رجلاً أسمر يقول إنه من طرابلس يتعطف الناس، وقد خلقه ا عز وجل بلا يدين ...رأيته وقد قعد على الأرض ومسح وجهه ورأسه برجليـه وصرفهما في أكثر بدنه كما يتصرف الصحيح في يده، ...وسأل الناس أن يعطـوه إبرة، فأعطيها، فأخذها بأصبعي رجليه، بالإبهام والتي تليها وسواها بـين أصـبعي الرجل الأخرى، وأعطي خيطا من حرير غير مفتول فأخذه بأصبعي رجليه بالإبهام والتي تليها وسواها بين إصبعي الرجل الأخرى، وأعطي خيطاً مـن حريـر غيـر

---

1 - ألبيرة : همزتها همزة قطع وليست وصل، وهي كورة كبيرة مـن الأنـدلس بـين القبلـة والشرق من قرطبة بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، أرضها كثيرة الأنهار والأشـجار. انظـر، الحموي، ياقوت، م1، ص 244 .

2 -العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ص 88 .

مفتول، فأخذه بأصبعي رجله، وفتل الخيط، وأدخله في الإبـرة ..... وبـدأ يخـيط بإصبعي رجله اليمنى "[1].

3.5 التناص:

التناص في أبسط صوره، يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكـار مـع النص الأصلي وتندغم فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامـل[2]، ويـشترط حـدوث التفاعل بين حديث الكاتب والنصوص المقتبسة، وبهذا يكون التناص هـو " تعـالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"[3] .

وقد اختلفت رؤية النقاد للتناص فأضافوا كثيراً من الإضافات حـول هـذا المصطلح، فعرفه محمود عباس بأنه: "اعتماد نص من النصوص على غيـره مـن النصوص النثرية أو الشعرية القديمة أو المعاصرة الشفاهية أو الكتابية العربيـة أو الأجنبية ووجود صيغة من الـصيغ العلائقيـة والبنيويـة والتركيبيـة والتـشكيلية والأسلوبية بين النصين"[4]، فلا بد من حدوث بعض التحولات في الـنص الجديـد نتيجة تضمينه للنص الأصلي مع احتفاظ كل نص منهما بمزاياه .

وتعريفات التناص كما بينها النقاد المعاصرون كثيرة جداً ومتشعبة وكلهـا تدول حول جوهر التناص الذي يصب في النهاية في كونه تأثر نص بنص سابق. [5]

---

1 - العذري، ترصيع الأخبار، ص 89 .

2 - الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، ط1، 1995م، ص9 .

3- مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقـافي العربـي، الدار البيضاء، ط3، 1992م، ص 121 .

4- عباس، محمود جابر، إستراتيجية التناص في الخطاب الشعري العربي الحديث، علامات في النقد،ج 46، م 12، نادي جدة الأدبي، شوال 1423هـ،، ص266

5- انظر : عباس، إستراتيجية التناص في الخطاب الشعري العربي الحديث، ص266

" فأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي "[1]، " فالنص الجديد هو إعادة إنتاج لنصوص وأشلاء نصوص معروفة، سابقة أو معاصرة، قابعة في الوعي واللاوعي، الفردي والجماعي"[2]، وتؤكد نظريات التناص أن الكاتب أو الشاعر ليس إلا معيداً لإنتاج سابق في حدود من الحرية، سواء كان الإنتاج لنفس الأديب أو لغيره [3].

فتقنية التناص تعتمد على إلغاء الحدود بين النص والنصوص أو الوقائع أو الشخصيات التي يضمنها الكاتب نصه الجديد حيث تأتي هذه النصوص موظفة ومذابة في النص فتفتح آفاقاً أخرى دينية وأسطورية وأدبية وتاريخية عدة مما يجعل من النص ملتقى لأكثر من زمن وأكثر من حدث وأكثر من دلالة فيصبح النص غنياً حافلاً بالدلالات والمعاني[4]، وهذا ما يسميه أيضاً عبدا الغذامي بتناص النصوص فالنص ابن النص، [5]،على حد تعبيره، ذاك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري [6]،، فكل نص هو إناء يحوي بشكل أو بآخر نصوصاً أخرى، فالأديب بشكل عام يتأثر بتراثه وثقافته ويبني عليها أدبه، ولذلك يمكننا القول إن التناص أمر لا مفر منه وهو موجود في كل نص أدبي؛ إذ إنه "لافكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتها"[7] .

ويمكن أن يأخذ التناص أكثر من معنى فالاقتباس والتلميح والسرقة الأدبية والإرجاع مصطلحات معروفة في النقد الأدبي، وهي تشير جميعاً إلى حضور نص سابق في النص الحالي، و "ما من نص إلا ويشير إلى آخر بطريقة ما، وضمن هذا

---

1 - مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص123.

2 - عزام، محمد، النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص27 .

3 - مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص124-125.

4 - العلاق، علي، الدلالة المرئية، دار الشروق، عمان، ط1، 2002،ص 51.

5 - الغذامي، عبدا ، ثقافة الأسئلة " مقالات في النقد والنظرية"،دار سعاد الصباح،الكويت، ط2، 1993م ، ص 111 .

6 - انظر :الغذامي، ثقافة الأسئلة، ص 111 .

7 - مفتاح، تحليل الخطاب الشعري ،ص 123.

المعنى فإن الأعمال الأدبية اشتقاقية كلها، ولكن تبدو هذه الأعمال أكثر اشتقاقا " أو أكثر وضوحاً وصراحة من الأخرى"[1] بمعنى أن النصوص التي يبدو فيها التناص واضحاً هي أكثر اشتقاقاً من النصوص التي لا يبدو فيها التناص بوضوح .

وكل نص حديث لا ينشأ في فراغ، وإنما فـي لغـة، فـي عـالم ممتلـئ بالنصوص الأخرى والأبنية النصية والمعرفية ؛ التي تسهم في تكوين هذا النص من خلال علاقته بغيره من النصوص[2]، ويقوم التناص على تلك الفكرة الحوارية مـع الخطابات والنصوص الأخرى التي يتم استدعاؤها إلى مجال الـنص [3]، والـنص المقتبس لا يستحضر بطريقة عشوائية، إذ لا بد له أن يؤدي وظيفة فنية جماليـة أو فكرية موضوعية تخدم السياق السردي، كتعميق الفكرة[4]المطروحة وتوضيحها .

وتبقى معرفة التناص واستخراجه من النص الأم من الأمور النسبية ؛ لأنها تعتمد على معرفة المتلقي ومدى اتساع ثقافته "فالمعرفة ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي"[5]، فكل حضور ذهني لدلالة ما ونحن نقرأ نصاً فإن مرد ذلك إلى التناص، وعلينا حينئذٍ أن نبحث عن مصدر لذاك الصدى في مخزوننا الثقافي الخاص ومنـه نتعرف على كيفية استثمار الأديب له، والذائقة الشعرية تميل إلى الاستمتاع بتأويـل التناص في النص كلما كانت الصلة بين النصين أخفى وأبعد وأعمق [6] .

ويشير كراتشكوفسكي في وصفه لأسلوب ابن جبير إلى هذه القضية، فابن جبير يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحي مفهوماً لدى القارئ [7]، فالقارئ قليل الاطـلاع

---

1 - انظر: ساميول، تيفين، التناص ذاكرة الأديب، ترجمة نجيب غـزاوي، منـشورات اتحـاد الكتاب العرب، دمشق، 2007م، ص 31 .

2 - سامي، شعرية النص الصوفي ، ص 187.

3 - سامي، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية، ص 187.

4 - الزعبي ،التناص نظرياً وتطبيقياً، ص25 .

5 - مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري : ص 123 .

6 - عباس، إستراتيجية التناص في الخطاب الشعري العربي الحديث، ص 267 .

7 - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، ص 301 .

والمعرفة، لن يتمكن من سبر أغوار النص إذ لم تكن لديه القدرة على استخراج النصوص المستقاة من التراث وغيره، وربطها بالنص الأصلي، ومعرفة الهدف من استحضارها .

وتتعدد مصادر الأديب للتناص وتتباين وذلك حسب ثقافته، وقدرته على استثمار المعلومة وتوظيفها التوظيف الصحيح والمعبر في النص الأصلي، وقد أجمل داغر مصادر التناص فيما يلي(1):1

1- المصادر الضرورية: ويكون فيها التأثير طبيعياً وتلقائياً وهو ما يسمى بالذاكرة أو الموروث العام، مثل المقدمة الطللية في القصيدة الجاهلية.

2- المصادر اللازمة: داخلية تتعلق بالتناص الواقع في نتاج الأديب نفسه.

3- المصادر الطوعية: وهي اختيارية وتشير إلى ما يطلبه الأديب عمداً في نصوص متزامنة أو سابقة عليه وهي مطلوبة لذاتها.

وتتعدد أنواع التناص في مدونات الرحالة، فنجد التناص الديني مع القرآن أو الأحاديث النبوية الشريفة، والتناص التاريخي، والتناص الأدبي مع الشعر والأمثال العربية، والتناص الرحلي .

1.3.5 التناص الديني :

ويقسم التناص الديني إلى قسمين : التناص مع القرآن الكريم و التناص مع الأحاديث النبوية الشريفة .

ومن التناص مع القرآن الكريم قول ابن جبير في سفرهم من عكا وقد سكن البحر :" فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ....."، وهذا القول تناص مع قوله تعالى:" قِيلَ لَها ادخُلِي الصرح ۖ فَلَما رأَتْه حسِبتْه لُجةً وكَشَفَتْ عن ساقَيها ۚ قَالَ إِنه صرح ممرد مِن قَوارِير ۗ قَالَتْ رب إِني ظَلَمتُ نَفْسِي وَأَسلَمتُ مع سلَيمان لِلـهِ رب الْعالَمِين "(2) .

---

1 - داغر، شربل، التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد 16، العدد الأول، القاهرة، 1997، داغر، ص 132- ص 134

2- سورة النمل : آية 44 .

أمر سليمان عليه السلام بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً. ثم أرسل الماء تحته، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثـم قـال : ادخلي الصرح، ليريها ملكا هو أعز من ملكها، { فَلَما رَأَتْه حسِبتْه لُجةً وكَشَفَتْ عن ساقَيها }، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: { إِنه صرح ممرد مِـن قَـوارير }[1]، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه[2].

فجاء وصف ابن جبير للبحر في حالة السكون والهدوء وكأنه الزجاج الذي مشت عليه بلقيس فحسبته لجة، بحيث تناسب هذا التناص مع السياق في تجسيد حالة السكون والهدوء الذي يكتنف البحر .

ومن التناص مع القرآن قول ابن الخطيب في وصفه لأثر الأمطـار علـى الأرض: "أرحنا بها يوما صحا فيه الجو من سكرته، وأفاق من غمرته، فقيل للنفوس شأنك ودمائك، ويا أرض ابلعي مائك، وتجلت عقيلة الشمس معتذرة عـن مغيبهـا مغتنمة غفلة رقيبها "[3]، وهذا تناص مع قوله تعالى:" وقِيلَ يا أَرض ابلَعِـي مـاءكِ ويا سماء أَقْلِعي وغِيض الْماء وقُضِي الْأمر واستَوتْ علَى الْجودِي ۖ وقِيلَ بعدا لِلْقَومِ الظالِمِين "[4]. يخبر ا تعالى في قصة سيدنا نوح عليه السلام "أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أُمرت الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمـع عليها، وأمر السماء أن تُقلع عن المطر، { وغِيض الْماء } أي : شرع في النقص، { وقُضِي الأمر } أي: فُرِغَ من أهل الأرض ممن كفر با [5].

1- ابن كثير،عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (774 هـ ـ) تفسير القرآن العظيم، 8ج، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبـة للنـشر والتوزيـع، ط2، 1420هـ - 1999م، ج6 ص 195.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6 ص194.

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 44 .

4 - سورة هود، آية 44 .

5 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4 ص 323 .

وقد جاء ربط ابن الخطيب لهذه الآية مع مضمون النص ربطاً ذكيـاً، فـي تصوير الحالة التي كانت عليها الأرض بعد العاصـفة المطريـة، حيـث اسـتقت الأرض، وفاضت المياه من كل ناحية، ولكن بعد توقف الأمطـار عـن الهطـول، وهدوء الجو، انتشر الناس في الأرض، وخرجت الشمس معتذرة عن مغيبها .

وقد تناسب هذا التناص القرآني مع مضمون السياق الذي طرحه الكاتـب، وقد أبدع ابن الخطيب في ربط هذا النص بقصة الطوفان الذي حدث في قصة سيدنا نوح عليه السلام .

ومن التناص قول البلوي: والشمس قد خجلـت مـن فـراق الحاضـرين، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين "[1]، وهذا تناص مع الآية القرآنية :" قَالُوا ادع لَنَا ربك يبين لَنَا ما لَونُها ۚ قَالَ إِنه يقُولُ إِنها بقَرةٌ صفْراء فَاقِع لَونُها تَسر الناظِرِين "[2].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : إن ا عز وجل{ يقُولُ إِنهـا بقَـرةٌ صفْراء فَاقِع لَونُها } أي: صاف لونها { تَسر الناظِرِين } أي: تعجب الناظرين { قَالُوا ادع لَنَا ربك يبين لَنَا ما هِي إِن الْبقَر تَشَابه علَينَا وإِنا إِن شَاء الله لَمهتَدون * قَالَ إِنه يقُولُ إِنها بقَرةٌ لا ذَلُولٌ } أي: لم يذللها العمل، { تُثِير الأرض } يعني: وليست بذلول تثير الأرض { ولا تَسقِي الْحرثَ } يقول: ولا تعمل في الحرث، { مسلمةٌ } يعنـي: مسلمة من العيوب { لا شِيةَ فِيها } يقول: لا بياض فيها { قَالُوا الآن جِئْـتَ بِـالْحق فَذَبحوها وما كَادوا يفْعلُون } قال ابن كثير: ولو أن القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فـشُدد عليهم [3].

فكما أن البقرة التي أمر ا عز وجل بني إسـرائيل بـذبحها نـادرة فـي أوصافها، فكذلك الشمس، شديدة الصفرة، سليمة من العيوب، صـاف لونهـا تـسر الناظر إليها وتثير إعجابه .

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج2ص14 .

2 - سورة البقرة، آية 69 .

3 - انظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1 ص295 .

ولا ينكر هذا التناص على الرحالة، فهـم يحملـون الثقافـة الدينيـة بـين جوانحهم، فابن خلدون يضمن بعض القرآن بأسلوب يشعرك باندماج النص المقتبس، بحيث يصعب عندها فصله، حيث يقول " فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم ا إرغاماً لهم، فغدوا على حردٍ قادرين "[1]، فقد اقتبس مضمون القصة من آيات القرآن، إذ إن الموقف أوحـى لـه بقوله تعالى في سورة القلم :" فَطَافَ عليها طَائِفٌ مِن ربك وهم نَائِمون، فَأصبحتْ كالصريمِ، فَتَنَادوا مصبِحِين، أَن اغْدوا علَىٰ حرثِكم إِن كُنْتُم صارِمِين، فَانْطَلَقُوا وهم يتَخَافَتُون، أَن لَا يدخُلَنها الْيوم علَيكُم مِسكِين، وغَدوا علَىٰ حردٍ قَادِرِين، فَلَما رأَوهـا قَالُوا إِنا لَضالون، بلْ نَحن محرومون، قَالَ أَوسطُهم أَلَم أَقُلْ لَكُم لَولَا تُسبحون، قَـالُوا سبحان ربنَا إِنا كُنا ظَالِمِين، فَأَقْبلَ بعضهم علَىٰ بعضٍ يتَلَاومون "[2]، فقـد خلـص الدولة من تلك الحكومة الضالة، كما خلص ا تعالى الجنة من الكفـار، فأصـحاب الجنة التي ذكرها ا عز وجل غدوا على شدة وقوة وغيظ على المساكين والفقراء، وأقسموا أن لا يدخلها عليهم مسكين، لكن ا عز وجل خيب آمالهم، فاستحالت الجنة عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سـوداء مدلهمـة لا ينتفـع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم اخطأوا الطريق، ولهذا قالوا إنا لضالون، أي سلكنا لهـا غير الطريق فتهنا عنها، ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي، وعلمـوا أن لا حظ لهم ولا نصيب فيها،[3] كما أن هؤلاء الرجال الذي أشار إليهم ابـن خلـدون لا يستحقون المكانة التي احتلوها في الدولة، وقد جاء ربط ابن خلـدون بـين هـاتين القصتين موفقاً، فالإنسان يجب أن يعمل بمقتضى المكانة التي وضعه ا فيها، وإلا فإنها ستنعكس عليه خراباً ودماراً .

ويقول ابن خلدون أيضاً :"وآتاك من آيات العنايات، آية تضرب الـصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر بانبجاسها "[4]، وهو ينظر إلى قوله تعالى :"

1 - ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقاً، ص 259 .

2 -انظر : سورة القلم، الآيات من 19-30 .

3 - انظر : ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج8 ص195-196 .

4 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص160

ﭽ وَأَوحينَا إِلَىٰ موسىٰ إِذِ استَسقَاه قَومه أَنِ اضرِب بِعصاك الْحجر ﭼ فَانْبجستْ مِنْه اثْنَتَا عشْرةَ عينًا ﭼ قَد عِلِم كُلُ أُنَاسٍ مشْربهم ﭼ "(1)، وقد جاء التناسب في الاقتباس القرآني حيث ورد كلام ابن خلدون في باب الدعاء للخلافة أن يمنحها ا جلت قدرته، من القوة ما منح موسى عليه السلام من المعجزات، فتبادر المياه بالانفجار عندما يتقدم موسى عليه السلام بضربها بالعصا. (2)

كما يتناص ابن الخطيب مع القرآن الكريم حين يصف مالقة بقوله :" فأما المنعة فلمالقة حرسها ا ، فضل الارتفاع ومزية الامتناع، أما قصبتها فاقتعدت الجبل كرسيا، ورفعها ا مكاناً عليا"(3) وهذا فيه تناص مع قوله تعالى :" واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِدرِيس ﭽ إِنه كَان صِديقًا نَبِيا، ورفَعنَاه مكَانًا عِلِيا"(4) فجاء التناص في قول ابن الخطيب مناسبا لمضمون الكلام، فمالقة على حد تعبيره تمتاز بمكانة عالية عن سواها من المدن، وكذلك فإن إدريس، عليه السلام، كان صديقًا نبيا، وأن ا رفعه مكانًا عليا مختلفا عن جميع بني آدم(5) .

ومن التناص القرآني، قول لسان الدين بن الخطيب " والتوكؤ على النمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة "(6). وهو تناص مع قوله تعالى:" فِيها عين جارِيةٌ، فِيها سرر مرفُوعةٌ، وَأَكْواب موضوعةٌ، ونَمارِقُ مصفُوفَةٌ، وزرابِي مبثُوثَةٌ "(7). النمارق : الوسائد، وقوله : { وزرابِي مبثُوثَةٌ }، والزرابي: البسط.(8)

---

1 - سورة الأعراف، آية 160 .

2- للاستزادة : انظر : تفسير الآية : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج1، ص279 .

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 58

4 - سورة مريم، آية 56-57

5 انظر تفسير الآية : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5 ص 240 .

6 - ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب الأندلس، ص119 .

7 - سورة الغاشية، آية 12-16 .

8 - انظر تفسير الآية : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8ص386 .

وقد جاء هذا الاقتباس مناسباً لمضمون النص، حيث كان الحديث عن الجنة وما يلاقيه المؤمن بعد وفاته، وقد اقتبس الكاتب هاتين الآيتين لتناسبهما مع مضمون النص .

ومن التناص مع القرآن الكريم قول ابن خلدون :"قرطبة، ومـا أدراك مـا هية! ذات الأرجاء الحالية والكاسية، والأطوار الراسخة الراسية "[1]، وقد جاء هـذا الحديث في معرض حديثه حول امتداح جمالها، وقد استعان بالقرآن الكريم من خلال المخزون الثقافي الذي يمتلكه، وقدرته اللغوية والفنية حيث تم قلب معنى الآية مـن السلبية إلى الإيجابية، فالآيات "وَأَما من خَفتْ موازِينُه، فأُمه هاوِيةٌ، وما أَدراك مـا هِيه، نَار حامِيةٌ "[2]، فتحدثت الآية عن الإنسان الذي رجحت سيئاته على حـسناته،{فأُمه هاوِيةٌ } أي فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم [3]، الـذي لا يمكـن لأي إنسان أن يتخيلها، حارة شديدة الحر، قوية اللهيب والسعير، أما المعنى الـذي أراده ابن خلدون فهو تصوير قرطبة بصورة مقابلة لهذه الصورة، فالمتلقي لا يمكن له أن يتخيل منظرها الجميل ؛ لأن لسانه عاجز عن تفصيل ذلك فأوجز القول عنها بقلـب معنى الآية القرآنية الدالة على هذا المعنى" وما أَدراك ما هِيه ".

ومن التناص مع الصور القرآنية قول ابن خلدون :" حيث شمول الـشمال، تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى وما هي بـسكارى "[4]، وهو ينظر في هذه الصورة التي رسمها لأثر الرياح على الدوحة إلى قوله تعالى :" يوم تَرونَها تَذْهلُ كُل مرضِعةٍ عما أَرضعتْ وتَضع كُل ذَاتِ حملٍ حملَهـا وتَـرى الناس سكَارىٰ وما هم بِسكَارىٰ ولَٰكِن عذَاب اللهِ شَدِيد"[5]، فالآية تصور حال النـاس يوم الساعة، فهم في حالة ذعر وخوف، وحالهم كحال من تعاطى المسكرات فـلا

1 -ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقا، ص 195 .

2 - سورة القارعة، الآيات 8-11.

3 - انظر تفسير الآيات : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8ص468 .

4 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 197.

5 - سورة الحج، آية 2 .

يعلم ما يقوم به من أعمال، وقد استعان ابن خلدون بهذه الصورة في بيان تلك الحالة التي رأى فيها أشجار الغابة، حينما تحركها الرياح الشديدة .

ومن أمثلة التناص أيضاً قول ابن الخطيب في وصف بخل أهل فاس " يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح له ببقله ولا بزيته، فلا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم "[1].

ولعله من المفيد القول إن ظاهرة التناص مع القرآن الكريم واسعة جداً، إلى درجة يصعب على الباحث حصرها واستقصاؤها، ولو حاولنا استقصاء الأمثلة في هذا الباب لاحتاج هذا منا إلى دراسة خاصة، فقد تنوعت أشكال التناص مع القرآن الكريم في مدونات الرحالة، فجاءت على شكل تناص ظاهر وصريح، وآخر يتم التلميح إليه بكلمة واحدة، فيحتاج إلى بعض الجهد لاستخراجه من مثل قول ابن خلدون :"فليس منهم بضنين على السر"[2]، وهو ينظر إلى قوله تعالى " وما هو علَى الْغَيبِ بِضنِينٍ"[3].

أما التناص مع الأحاديث النبوية الشريفة فقد جاء على نمطين : أولهما تضمين بعض مفردات الحديث دون الإشارة أو التلميح إليه. ومن الأمثلة على هذا النمط قول ابن خلدون:"أما بعد حمد ا الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح أجناداً مجندة "[4] وهذا القول فيه إشارة واضحة إلى قوله صلى ا عليه وسلم :" الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[5].

---

1 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 109 .

2 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 145.

3 - سورة التكوير، آية 24 .

4 -ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص158 .

5 - النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم 2638 .

أما النمط الثاني وهو تضمين الحديث النبوي الشريف كـاملاً، أو تـضمين جزء منه، وهو ما ورد بكثرة في رحلة ابن الحاج الغرناطي، ومن الأمثلـة عليـه، قوله : قال صلى ا عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار "[1]، وهذا فيه تضمين لقوله صلى ا عليه وسلم:" لا ضرر ولا ضرار من ضار ضره ا ومن شاق شـق ا عليه"[2].

ومن الاقتباس للأحاديث النبوية الشريفة تضمين ابن الحاج الغرناطي قول النبي صلى ا عليه وسلم :" خيركم من علِم القرآن وعلمه "[3]، حيث جاء تـضمين الحديث بمثابة دليل وبرهان عن أهمية طلب العلم، ثم العمل بهـذا العلـم وتعليمـه للآخرين . وقد ورد الحديث مع قليل من الاختلاف : "أفضلكم مـن تعلـم القـرآن وعلمه"[4]، وورد في سنن أبـي داوود "خيـركم مـن تعلـم القـرآن وعلمـه"[5]. ومن الأمثلة أيضاً على تضمين الأحاديث النبوية الشريفة قول ابن الحاج : ويفـرج همهم الذي قال فيه صلى ا عليه وسلم " لا هم إلا هم الدين "[6].

ومن التناص الديني مع الأحاديث النبوية الشريفة أيضاً قول ابن خلـدون :" فأعملنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد ا في نواصيها الخيـر "[7]، وهذا مأخوذ من قول الرسول صلى ا عليه وسلم :" الخيل معقود في نواصيها الخير

---

1 - ابن الحاج النمري، فيض العباب، ص 167 .

2 - انظر : القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بني في حقه ما يـضر بجـاره 2340

3 -ابن الحاج النمري، فيض العباب، ص171 .

4 - القزويني، سنن ابن ماجه، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم 211

5 -السجستاني، أبو داوود سليمان، سنن أبـي داوود بـن الأشـعث، 4ج، الـدار المـصرية اللبنانية،القاهرة، 1988م، كتاب الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن، حديث رقم 1452

6 - النمري، ابن الحاج، فيض العباب، ص164 .

7 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 200 .

إلى يوم القيامة"[1]، وقد وظف الرحالة هذا التناص لخلع البركة والخير على خيـول الرحلة .

2.3.5 التناص التاريخي :

ويعني تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي لتأديـة دلالة فكرية [2]، وقد ظهر تأثر الرحالة بالتاريخ تأثراً واضحاً، فلا يمكن بحال مـن الأحوال فصل التاريخ عن وصف الأمكنة، مما يدل دلالة واضـحة علـى اهتمـام الرحالة بالروايات التاريخية والأنساب والسير والأحداث والوقائع .

وترتبط دلالة هذا التناص عموماً بالفكرة التي يطرحها السياق، وهو ينسجم فكرياً من خلال تجسيده للمعنى أو الموضوع المطروح، كما أن الرحالة لا يأتي بـه اعتباطاً، بل لطرح فكرة أو تأكيدها في أغلب الأحوال .

ومن التناصات التاريخية قول ابن خلدون في وصف رجل حمل إليه رسالة :"يبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وسئل عن حيه فانتمى إلى كنانة "[3]، وكنانة هو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، أبو القبيلة، وهو الجد الرابع للرسول صلى ا عيه وسلم[4].

---

1 - النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، (ت 303هـ)، سنن النسائي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه، محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1988م، كتاب الخيل،باب فتل ناصـية الفرس، حديث رقم 3574.ص556 .

2 - انظر : الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، ص 25 .

3 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 162.

4 - انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ت(310هـ)، تاريخ الطبري (تاريخ الرسـل والملوك)،11ج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر، ط2 ج2 ص239- 269 ، وابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري المعـافري، ت(213هـ أو 218هـ)، السيرة النبوية،4ج، علق عليها وخرج أحاديثها ووصنع فهارسها عمر عبد السلام تـدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1990م، ج1 ص110-135 .

ثم يصف نفس الرجل بقوله :" وأكرم به من حكـيم، كأنمـا خـدم الملكـة الساحرة "[1]، وهو يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية، من قبائل جراوة إحـدى قبائل زناتة[2]، كانت لها معرفة بالكهانة، ومعرفة بالغيب، فاستبدت بالرئاسة علـى البربر، وملكتهم خمسة وثلاثين عاماً، وكان لها ثلاثة من الأبناء رؤساء في قومهم، ولقد قاومت الفتح الإسلامي في المغرب مدة، وحين انهزمت وأيقنت بانتهاء أمرها، عندما أصيبت بجروح قاتلة في بعض المعارك، أوصت أولادها بالإسلام فأسـلموا، وكان لهم أثر طيب في استقرار الإسلام في المغرب، وقد جاء تشبيه الكاتب له بهذه الكاهنة للمبالغة في وصفه بالذكاء والحكمة والتدبير وسرعة البديهة[3].

ويقول أيضاً في وصف قرطبة :"حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العـذب المجاج [4]، فيزري بتاج كسرى ودارا، حيث قسي الجسور المديدة، كأنهـا عـوج المطي العديدة، تعبر النهر قطارا، حيث آثار العامري المجاهد "[5]، فهـذا الـنص يتضمن بعض الإشارات التاريخية التي تتطلب من المتلقي التسلح بها لمعالجة النص وفهم مقاصده، فكسرى هو كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى، كان من أشد ملوك الفرس بطشاً، وأنفذهم رأياً، وأبعدهم غوراً [6]، ودارا هو ملك فارس على بابل، كان ضابطاً لملكه، قاهراً لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج، ابتنى بفارس مدينة سماها (دارا بجرد)، كان معجباً بابنه دارا، وأنه من حبه إياه سـماه باسـم نفـسه،

---

1 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص163

2 - جيل من شعوب البربر، وأولية هذا الجيل بإفريقية والمغرب، ولهم شعوب أكثـر مـن أن تحصى، لما ملك الإفرنج بلاد المغرب دانوا لهم بدين النصرانية، حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه طوعا وكرها . انظر، ابن خلدون، العبر، ص1804 .

3 - انظر : ابن الأبار، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن أبي بكر القضاعي،(ت 658هـ ـ)، الحلة السيراء، 2ج، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، ط2، 1985م، ج2 ص 331-332 . وانظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ج7ص1804 .

4 - المجاج : العسل . انظر : ابن منظور :لسان العرب، مادة مجج .

5 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 196.

6 - انظر : الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)،ج2، ص 176-179.

وصير له الملك، كان ملك دارا الأكبر اثنتي عشرة سنة، أما دارا الأصغر فقد ملـك أربع عشرة سنة، مات بخيانة من رجاله في حرب بينـه وبـين الإسـكندر ملـك الروم[1]. فتاج قرطبة ومكانتها تضاهي مكانة مملكة فارس القوية بهـؤلاء الملـوك الأقوياء، المعروف عنهم شدة البأس.

كما أشار النص إلى آثار العامري المجاهد وهو المنصور بن أبـي عـامر محمد بن عبد ا بن أبي عامر، تلقب بالمنصور، كان محباً للجهاد، ومفرطـاً فـي ذلك، وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد، فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره غزا بنفسه-مدة ملكه-نيفاً وخمسين غزوة لم تنتكس لـه فيها راية، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، كانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة [2].فقرطبة التي تحتوي آثار هـذا البطـل المجاهـد، استمدت مكانتها وعظمتها من مكانة هذا البطل في التاريخ، ولوجود آثاره فيها، فمن آثاره المنية المعروفة بالعامرية، والمدينة الزاهرة التي اتخذها مقراً لحكمه، والزيادة التي أضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . [3]

ومن الاقتباس التاريخي قول ابن الخطيب في وصف فاس :" إلا أن حـر هذه المدينة مذيب، وساكنها ذيب، ومسالكها وعرة، وطينها هائل، وزحامها حـرب وائل "[4]،وهذا إشارة إلى الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل، وقد أطلق عليها حرب البسوس نسبة إلى البسوس خالة جساس التي كانت السبب في إشعال شرارتها، وقد استمرت هذه الحرب أربعين عاماً[5] .وقد هدف الرحالة من إيراد هـذا التنـاص التاريخي إلى الإشارة إلى كثرة سكان مدينة فاس وما تعانيه من الزحام .

---

1 - انظر : الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ج1 ص 572-574.

2 - انظر :المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 36-45 .

3 - انظر : المقري، نفح الطيب، ج1 ص

4 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 109 .

5 - انظر تفاصيل هذه الحرب : ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت328هـ)، العقـد الفريد، 9ج، تحقيق مفيد محمد قميحة، وعبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلميـة، -بيـروت، ط1، 1983م، ج6ص69-73 وما بعدها .

3.3.5 التناص الشعري :

ويعني هذا التناص تداخل نصوص شعرية مع النص الأصلي وامتزاجها مع الفكرة المراد طرحها، لتأدية وظيفة أرادها الكاتب، كجعل الفكرة المطروحة أكثـر أثراً، وأبعد عمقاً، أو التعبير عن مراد الكاتب ولكن بعبارات مستعارة مـن أقـوال الشعراء[1] ؛ وذلك لنقلها المعنى المراد للآخرين بتعبير موجز.

ومن الأمثلة الدالة على هذا النوع من التناص قول البلوي :" فأرحت الراحلة من الرحل، واستبشرت بالخصب بعد المحل، ولا بد دون الشهد من إبر النحل "[2]، وهذا القول يتناص شطر من مع قول أبي الطيب المتنبي[3]: (الطويل)

تُريدين لُقيان المعالي رخيصةً ولا بد دون الشَهدِ مِن إِبرِ النَحل

وقد جاء هذا التناص منسجماً وموافقاً لحديث الرحالة، فقـد أراد الإخبـار بوصوله للديار المقدسة، بعد معاناته قاسية وجهد مضنٍ في الطريق إليها، فكان بيت المتنبي يزيد السياق عمقاً .

وقد جاء التناص الشعري أحياناً بحيث لا يكون الهدف منه تعميق الفكـرة، وإنما طرح المعنى الذي أراده الشاعر نفسه، ومن هذا قول ابن خلدون :"وقِرطاسي حقه لا يجهل،" متى ما تَرقى العين تَسفل"[4] وهذا القول فيه تناص مع قول امـرئ القيس في وصف فرسه: [5](الطويل)

ورحنا وراح الطِرفُ ينفض رأسه متى ما ترقُ العين فيه تسهلُ

---

1 - انظر : الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، ص42 .

2- البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 166 .

3 -المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسن(ت354هـ)، ديوان أبي الطيب المتنبي، بـشرح عبـد الرحمن البرقوقي، حقق النصوص وهذبها وعلق عليها وقدم لها عمر فاروق الطبـاع،2م، دار الأرقم، بيروت، د.ت،م2 ص289 .

4- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 171 .

5 -السكري، أبو سعيد ت(275هـ)، ديوان امرئ القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري، دراسة وتحقيق أنور أبو سويلم ومحمد الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمـارات، ط1، 2000م، ص 274 .

فمن نظر إلى أعلى هذا الفرس نظر إلى أسفله ؛ وذلك ليستتم النظـر إلـى جميع جسده، وهذا هو المعنى نفسه الذي أراده ابن خلدون، فمن بدأ في قراءة الكتاب من عنوانه وبدايته رأى ما يعجبه فلا بد أ يتم القراءة، وكأن الموضوع لجماله هـو ما يرغم المتلقي على القراءة حاله كحال فرس امرئ القيس التي تعجب الناظر إليها فلا بد أن يسهل النظر إلى أسفله لإعجابه بما رآه في أعلاه .

ومن هذا النوع من التناص قول البلوي في وصف عاصفة مرت بهم أثنـاء سفرهم بالبحر : " فرجفت القلوب، وخرست الألسن، وجرت الرياح بما لا تـشتهيه السفن "[1]وهذا القول فيه تناص مع بيت أبي الطيب المتنبي[2] :(البسيط)

ما كُل ما يتَمنّى المرء يدركُه   تَجري الرياح بِما لا تَشتَهي السفُن

فالإنسان لا يمكن أن تتحقق جميع أمانيه، فقد يتمنى أموراً ولكنه لا يستطيع إدراكها، كما أن السفن تتمنى مجيء الريح موافقة لمسارها. وهذا المعنى هو نفسه ما أراد البلوي التعبير عنه، فقد جاءت الرياح معاكسة لمسار المركب، مما أدى إلى تغيير مسار الرحلة، واضطراب الأحول وتعسر السفر .

ومن التناص قول البلوي :"فحللنا بلداً أقفر وخرب، وأكـل الـدهر علـى محاسنها وشرب، وترك ساحته كدار مية بالعلياء"[3]، وهذا تناص مع قول النابغـة الذبياني:[4] (البسيط)

يا دار ميةَ بِالعلياءِ فَالسنَدِ   أَقوت وطالَ عليها سالِفُ الأبدِ

فديار مية كما جاء في قصيدة النابغة خلت من سـاكنيها، وطـال سـالف الزمن، كهذا المكان الذي يصفه البلوي، فقد أقفر من ساكنيه .

1- البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 194.

2-المتنبي، الديوان، م2 ص541 .

3 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص 17 .

4 - الذبياني، زياد بن معاوية بن ذبيان، (ت نحو18 ق.هـ)، ديوان النابغة الذبياني، شـرح وتعليق حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1،1991م، ص 47 .

يقول ابن خلدون :"ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول "(1)، وهذا تناص مع قول أبي تمام(2) :(الكامل)

نَقل فُؤادك حيثُ شِئتَ مِن الهوى ما الحب إلا لِلحبيبِ الأول
كَم منزلٍ في الأرض يألفُه الفَتى وحنينُه أبداً لأول منزل

4.3.5 التناص مع الأمثال العربية :

أسئلة كثيرة تدور في ذهن القارئ عند قراءة النص، لماذا يتم حشد كل تلك النصوص في النص الأصلي ؟ هل هي ثقافة الأديب هي ما يملي عليه ذلك ؟ أم أن تلك النصوص تأتي عفوا دون تأنق، أو محاولة لحشوها في النص الأصلي. قد يتبادر إلى الذهن أن السبب الرئيسي في أغلب التناصات هو إظهار الثقافة والتفاخر بالعلم والمعرفة الواسعة، ولكن الحكم الوحيد الذي يمكنه حسم هذه المسألة هو المتلقي المثقف، هو من يملك آليات النقد الأدبي .

وكثيراً ما ترد الأمثال العربية في الأدب، وهذا ما يمكننا اعتباره التناص الضروري، وتواجد هذه الأمثال في النصوص الأدبية تختلف من كاتب إلى آخر، والذي يتحكم في هذه المسألة هي ثقافة الكاتب وطبيعة بيئته، فكلما كان ورود الأمثال في بيئته أكثر، كان ورودها في أدبه أكثر .

والأمثال عادة ما تلخص خبرات الناس في الحياة، وهي بمثابة الحكم، فهي تختصر كثيراً من الحديث وتغني عن الشرح المطول ؛ لأن من أهم سماتها الإيجاز.

وقد جاء اقتباس الأمثال العربية في مدونات الرحالة على ثلاثة أوجه :

1- إيراد الأمثال كما هي،حيث استعان بعض الرحالة بعبارات العامة وأمثالهم من مثل قول ابن جبير في وصفه لحال أهل عيذاب": علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح "(3) وهذا مثل متعارف بينهم في معاملتهم للحجاج حيث أنهم يقومون

---

1 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 196 .

2 - انظر : الحاوي، شرح ديوان أبي تمام،ص764 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 51 .

بشحن المراكب بالحجاج بحمولة زائدة، ليتقاضوا أجر المركب مرتين مقابل رحلـة واحدة، ولا يبالون ما يفعل البحر بعد ذلك بالمسافرين من الحجاج[1] .

ومن الأمثلة على الاستعانة بالأمثال العربية للتعبير عن الفكرة المطروحة قول ابن جبير أيضاً في وصف أحد رجال المتصوفة وقد اتبع طريقـة والـده فـي التصوف، واتخذ موقعاً مقابلاً لزاوية أبيه في نفس المسجد : " وتتـصل بهـا فـي الجانب الآخر زاوية قد التزمها وأشبه طريقة أبيه فما ظلم "[2] وهذا القول مأخوذ من المثل المعروف " من شابه أباه فما ظلم "[3]. فمن أشبه أباه واتبع طريقته لم يظلـم :أي لم يضع الشبه في غير موضعه، لأنه ليس لأحد أولى به منـه بـأن يـشبهه. ويجوز أن يراد به "فما ظلم الأب، أي لم يظلم حين وضع زرعه حيـث أدى إليـه الشبه"[4].

ومن التناص مع الأمثال قول ابن الحاج النمري :" وعلموا أن المـؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين "[5]، للدلالة على الحرص، ومحاولة عدم الوقوع في الخطـأ أكثر من مرة واحده وهو تناص مع المثل:" لا يلسع المؤمن من جحر مرتين"[6]وهو مثل يضرب لمن نكب وأصيب مرة بعد أخرى[7] .

ومن التناص مع الأمثال العربية أيضاً قول العبدري في وصـف تلمـسان "وأما الفقه عندهم فطويل الاغتراب، يؤوب إذا ما القارظ العنزي آب "[8]، وقد جـاء

---

1 - انظر : ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 51 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص191 .

3 -الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، (ت518هـ)، مجمع الأمثال، 2ج،حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الـسنة المحمدية، 1955م، ج2 ص 300 .

4 - انظر : الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص300 .

5 -ابن الحاج النمري، فيض العباب، ص155 .

6 - الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص 215.

7 - الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص 215.

8 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 12 .

العبدري بهذا المثل للدلالة على سوء الحال التي وصل إليها الأدب، فمن الأمور المستحيلة عودته، كما أن القارظ العنزي[1] طالت غيبته، واستحالت عودته[2].

2- تحوير الأمثال من خلال التقديم والتأخير والزيادة في النص الأصلي، ومن الأمثلة على هذا التناص قول البلوي: "فحللنا بلاداً أقفر وخرب، وأكل الدهر على محاسنها وشرب "[3]، وهو تناص مع المثل العربي "أكل عليه الدهر وشرب"[4]، وهو مثل يضرب لمن طال عمره، حيث كان القصد بذلك أنه أكل وشرب دهراً طويلاً، فالزمان قد عمر كثيراً عليها، وأبلى محاسنها، وقد لجأ ابن خلدون إلى التحوير بزيادة مفردة في بناء المثل الأصلي

ومنه قول ابن خلدون في وصف قرطبة "والوطن الذي ليس من عمر ولا زيد، و الفرا الذي في جوفه كل الصيد "[5]، وهو تناص مع المثل المعروف " كل الصيد في جوف الفرا "[6]،و الفرا هو حمار الوحش، وهو يفضل على جميع الصيد، والمثل يضرب لمن يفضل على أقرانه[7]، كما أن قرطبة تُفضل على بقية المدن الأندلسية .

---

1 - وقصة هذا المثل قال بن الكلبي: هما قارظان كلاهما من عنزة، فالأكبر منهما هو يذكر ابن عنزة والأصغر هو رهم بن عامر بن عنزة. كان من حديث الأول أن خزيمة بن نهد، كان عشق فاطمة ابنة يذكر.قال: ثم أن يذكر و خزيمة خرجا يطلبان القرظ فمر بهوة من الأرض فيها نحل. فنزل يذكر ليشتار عسلاً، ودلاه خزيمة بحبل، فلما فرغ قال يذكر لخزيمة: أمددني لأصعد. فقال خزيمة:لا وا حتى تزوجني ابنتك فاطمة. فقال: أعلي هذه الحال لا يكون ذلك أبداً. فتركه خزيمة فيها حتى مات. وفيه وقع الشر بين قضاعة وربيعة.، وأما الأصغر منهما فإنه خرج لطلب القرظ أيضاً فلم يرجع ولا يدري ما كان من خبره. فصارا مثلان في امتداد الغيبة. انظر الميداني،مجمع الأمثال، ج1 ص 75 .

2 - انظر : الميداني، مجمع الأمثال ج1 ص75.

3 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص 17 .

4 - الميداني، مجمع الأمثال، ج1 ص42 .

5 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص200 .

6 - الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص136.

7 - انظر: الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص136.

وجاء التحوير هنا في المثل بالتقديم والتأخير ليتناسب مع الفاصلة التي استخدمها ابن خلدون .

3- عكس معنى المثل : ونمثل على ذلك بقول ابن خلدون "لم يقصر رجاء ولا أمل، ولي في شرح حمده ناقة وجمل "[1] وهو عكس لمعنى المثل " لا ناقتي في هذا ولا جملي "[2] و هو مثل يضرب عند التبري من الظلم والإساءة[3] .

5.3.5 التناص الرحلي :

ويقصد بالتناص الرحلي : تناص بعض نصوص الرحلة مع نصوص رحلية سابقة عليها، بمعنى آخر دخول نص رحلي في نص رحلي آخر .

ويمكن تقسيم هذا التناصات الرحلية إلى ثلاثة أنواع :

1- النوع الأول :وهو ما يشير الرحالة فيه إلى النص الأصلي، ويقتبس النص دون تغيير أو تحوير، ومن الأمثلة على هذا التناص قول ابن بطوطة في وصف مدينة حلب :" قال أبو الحسين بن جبير في وصفها : قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير"[4].

ومنه قول ابن بطوطة أيضاً في وصف دمشق :"مما قاله أبو الحسن بن جبير-رحمه ا تعالى في ذكرها، قال : "وأما دمشق، فهي جنة المشرق، ومطلع نورها المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام "[5]، وقد استعان ابن بطوطة بأقوال ابن جبير السابقة لأنه لم يجد وصفاً أجود ولا أبدع مما قاله ابن جبير[6] .

---

1 -ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص214 .

2 - وقصة المثل : أنه حين وقعت الحرب وتمايز الحيان بكر وتغلب، زعموا أن الحارث بن عباد بن ثعلبة، وكان رجلاً حليماً شجاعاً لما رأى ما وقع من الشر قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل فأرسلها مثلاً، واعتزل فلم يدخل في شيء من أمرهم.انظر: الميداني، مجمع الأمثال، ج2 ص 220،

3 - انظر : الميداني، مجمع الأمثال،ج2، ص 220.

4 - ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص69.

5 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1،ص82 .

6 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1،ص82 .

ومن هذا النوع من التناص قول ابن بطوطة أيضاً : وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد ا محمد بن جابر الوادي آشي نزيل تونس " لقيتُها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين "[1] . إن استحضار ابن بطوطة لهذه الأقوال يدل دلالة قاطعة على إعجابه بهؤلاء السابقين له، كما يدل على أمانتـه العلمية، وحرصه على نسبة الأقوال إلى أصحابها .

2-**النوع الثاني:** وهو الذي لا يشير فيه الرحالة إلى المصدر الذي اقتطـف منهـا النص، ومن الأمثلة على هذا النوع قول البلوي:" واهتاج البحر اهتياجـاً، واربـدت الآفاق سواداً، وانتشرت الرياح عصوفاً"[2]،وقد جاء هذا التنـاص مـع قـول ابـن جبير:"وزاد البحر اهتياجاً، واربدت الآفاق سواداً، واستشرت الريح والمطر عصوفاً"[3].

ومن الأمثلة أيضاً على هذا النوع قول البلوي أيضاً:" وجاءنا الموج من كل جانب أمثال الجبال السائرة "[4]، وهذا مأخوذ بنصه من رحلة ابن جبير[5] .

ونمثل على ذلك أيضاً بقول التجيبي السبتي في وصف عيذاب:"وكل شـيء فيها مجلوب إليها حتى الماء "[6]، وهذا الوصف ورد عند ابن جبير حيـث يقـول: "وحسبك من بلد، كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه"[7]

3-**أما النوع الثالث**: وهو الذي لم يتم اقتباس النص فيه بحرفيته مع الإشارة إلـى صاحب النص الأول، ومن الأمثلة على هذا النوع قول العبدري :"ورد الإسـكندرية في ركب عظيم من المغاربة برسم الحج، فأمر الناظر على البلد بمـد اليـد فـيهم

---

1 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1،ص82، انظر : ابن جابر ، برنـامج ابن جابر الوادي آشي، ج1ص 26 .

2 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص194 .

3 -ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 20.

4 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص194 .

5 - انظر : ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 20.

6 - التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 206 .

7 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 52.

للتفتيش، والبحث عما بأيديهم، ففتش الرجال والنساء "[1]. وهو تناص مع قول ابـن جبير:"فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما جل، واختلط بعضها بـبعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها "[2] .

ومن هذا النوع من التناص ورود قصة اختلاف الحجاج في وقوف الجمعة في عرفات مع إصرارهم على ذلك،وكأنهم قد صح عندهم أن الوقفة إذ لم تكن توافق يوم الجمعة لم تكن مقبولة، فاختلقوا من أجل ذلك شهادات زوريـة[3] . وقـد ذكـر العبدري أن "هذه القضية قديمة، وقد شكاها ابن جبير في رحلته، وحكاها على نحـو ما اتفق في هذه سواء"[4] .

ومن التناصات التي أوردها ابن جبير أنه قرأ عن أبي عبيد البكري : أن ا تعالى جعل النيل معادلاً لأنهار الدنيا، فحين يبتدئ بالزيادة تنقص، وحـين يبتـدئ بالنقصان تزيد كلها[5] .

يمكننا هنا التوصل إلى بعض أسباب التناصات الرحلية :

أولها: إحساس الرحالة بعدم وجود تعبير أدق وأبرع من تعبير مـن سـبقه القول إلى ذلك الشيء.

ثانيها: يأتي بعض الرحالة بأقوال رحالة آخر محاولة منـه لزيـادة إثبـات حديثه وتوكيده؛ وكأن هذا القول بمثابة الدليل الشرعي.

ثالثها: قد يكشف ذلك عن اهتمام الرحالة بقراءة مدونات شيوخهم الـسابقين عليهم، وهذا ما يؤكد بدوره تقديرهم لهم ومحاولة السير على نهجهم .

---

1 - العبدري، الرحلة، ص 94، وأشار البلوي إلى وقوع نفس الأحداث حين زار مصر، انظر البلوي، تاج المفرق، ص197 .

2 - انظر : ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 23.

3 - العبدري، الرحلة المغربية ، ص 186، وانظر ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص130 .

4 - العبدري، الرحلة، ص 186 .

5 - العبدري، الرحلة، ص 146 .

4.5 الإيقاع :

الإيقاع: "هو صوت أو جرس خافت أو رفيع "[1]، وجرس الحرف نغمته[2]، وكلمة الجرس يدخل فيها الوزن والقافية والجناس والطباق وتركيب الكلام وترتيـب الكلمات، وكل ما من شأنه أن يعين على تجويد البنية والرنين[3] .

والجرس الذي سيتم تناوله في هذا المقام هو جرس الكلمات، الـذي يهـتم بالجانب المعنوي، بينما يتعلق الجرس اللفظي"الصوتي "في طريقة تنـاول الكلمـات وترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغـم و موسـيقي فهـو مهـارة نظـم الكلمات[4].

وينتج الإيقاع في النصوص النثرية عن السجع، إذ يتم تقطيع الكـلام إلـى مقاطع، متوازنة في الطول، فيصبح بذلك النثر قريباً في الموسيقى من الشعر، وبذلك تكون صاحبة الدور في الإيقاع الموسيقي هي السجعة؛ لأنه عندما ينـتظم الإيقـاع الموسيقي من خلال السجعة؛ فإن السجعة تأخذ أبعادها من أواخـر الكلمـات، فـلا غرابة إذا اهتم العرب بخواتيم كلامهم [5]، فحيثما جاء النغم، وتناسق إلـى منتهـاه، حسن وقعه في الأذن، وانشرح له الصدر وطربت له النفس "[6].

ويمكن القول إن الإيقاع نوعان:

أولهما :الإيقاع النفسي: وهو إيقاع الحالة النفسية الذي يتناول حركة الرحالة النفسية أثناء حركته في المكان .

---

1 - الأبيض، محمد عمار، السجع في القرآن الكريم بين النفي والإثبات، دار الكتب الوطنيـة، بنغازي، ط1، 2004م، ص 42 .

2 -ابن منظور، لسان العرب، مادة جرس .

3 - انظر : الطيب،عبد ا ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، 2ج، الدار الـسودانية، ط2، 1970م، ج2ص458-459 .

4 - انظر : أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر،مكتبة الإنجلـو المـصرية،القاهرة، ط3، 1965م، ص44-45

5-الأبيض،السجع في القرآن بين النفي والإثبات،ص 45

6 - عبد الرؤوف، محمد عوني، القافية والأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي، مـصر، 1977م، ص93 .

ثانيهما: الإيقاع الموسيقي المحسوس، وهو إيقاع الكلمات .

والإيقاع النفسي يظهر بتغير مشاعر الرحالة من حالة إلى حالة أخرى، ومن مكان إلى آخر، وإيقاع حركة الرحالة المكانية هي التي تعكس الكامن من العاطفـة والمشاعر في أعماقه، "هذه المشاعر تظهر وتختفي تبعا لشكل الواقع الجديد الـذي يواجهه"[1] فتظهر مشاعر الأمل ثم تنتهي، ثم تظهر مشاعر الحقد وتنتهي .

ويبدو إيقاع الحالة النفسية في وصف البلوي على ساحل البحر:"فبقينا نكابد عظيم ذلك الأمر، ونسير ولا نفارق ساحل البحر، ونرقى العنق التـي تقربنـا مـن السماك وتدنينا من النسر، وقد اشتد البرد، وبلغ الجد، وفرع الجهد، ووقع الـثلج، وعمي النهج، وابتلى به الفج والمرج، فتصبح وصباحنا أبيض، وجناحنا لا ينهض، والعروق لا تنبض، والبروق لا تومض،...والوجوه في عبوس،و الوجود في بوس، وقد جمدنا كأننا بلا نفوس "[2]. إن الإيقاع بالسجع يعايش الشعور الـداخلي للـنفس البشرية بأسلوبه الخاص به[3]، لذلك فإن المتلقي يسترشد إلى الحالة النفـسية التـي تعتور الرحالة، من خلال إيقاع الكلمات .

ومن الأمثلة على الإيقاع النفسي الداخلي قول ابن جبير :" عـصفت علينـا ريح هال لها البحر، وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة، فعظـم الخطـب واشـتد الكرب، ...فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه، وارتجينا مـع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار ...بما هـو أشـد هـولاً، ..فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى ا عز وجل، وأقمنا على تلك الحال النهار كله . فلما جن الليل فترت الحال بعض الفتور ...وبتنا تلك الليلة، ..مترددين بين الرجاء واليأس، فلما أسفر الـصبح نـشر ا رحمتـه، وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس "[4]، فـالمتلقي يـشعر بـشعور

---

1 - الزعبي، أحمد، في الإيقاع الروائي "نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية، دار الأمـل للنشر والتوزيع، عمان، ط1 1986م، ص80.

2 - البلوي، تاج المفرق، ج1، ص152-153 .

3 - الأبيض ، السجع في القرآن بين النفي والإثبات، ص49.

4 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 20 .

الرحالة الداخلي، بتنقله من حالة الخوف والرعب ثم الكرب واشتداد الحـزن، إلـى اليأس ثم الرجاء، ثم الهدوء والفتور، ثم الاستبشار وتغير الحال، فتنقل الرحالة مـن شعور نفسي إلى آخر هو الذي يزيد من حدة الإيقاع النفسي .

فالكلمات أرواح تخزن في داخلها مشاعر وإحساسات، وهي بتفاعلهـا مـع غيرها في داخل سياق لغوي، قادرة على منح بعضها الـبعض دلالات وفعاليـات خاصة[1]، وكلها تشير إلى الشعور النفسي الذي ينتاب الرحالة حين وقوع الحدث .

أما الإيقاع الموسيقي، فيقسم إلى نوعين :

أولهما :الإيقاع الخارجي القائم على الفاصـلة، إن الموسـيقى الخارجيـة المتمثلة في السجع تنبعث من خلال النظم اللطيف وتـساعدها الموسـيقى الداخليـة المنبثقة عن الألفاظ، فكلما أتى السجع أوالفاصلة، أو النغم في موضعه حسن وقعـه، وتقبلته النفوس[2]، وقد أكثر الرحالة من استخدامها لما توفره الفاصلة مـن وجـوه التحسين والزخرفة.

وتعد الفاصلة بمثابة القافية في الشعر، فالتفاوت في أوزان السجع، واختلافها بين الطول والتوسط والقصر، أشبه باختلاف بحور الشعر في التفعـيلات، فالـشعر تختلف تفاعيله، لموافقته للحالة الانفعالية عند الشاعر، فيأتي على طرائق ووجهـات متعددة. وهي البحور الشعرية، وعروضها وأضربها، وما السجع إلا صورة من تلك الصور [3]. فليس من المعقول إلزامه التساوي في الصوت والمساحة.

وتقسم الفاصلة من حيث بساطة التركيب والتعقيد إلى أنـواع[4]، فهنـاك الفاصلة التي تتركب من حرف واحد مثل حرف الياء في قول البلوي :"فهو اليـوم

---

1 - انظر: العشماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القـديم والحـديث، دار النهـضة العربية، بيروت، لبنان، ص 222 .

2- الأبيض، السجع في القرآن بين النفي والإثبات، ص 47 .

3 - مخلوف، عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1978، ص 225 .

4 - القيسي، فايز، أدب الحكمة في درر الكلـم وغـرر الحكـم للـسيوطي، مؤتـة للبحـوث والدراسات، المجلد العشرون، العدد الثامن، 2005م، ص 27 .

عمدة الصقع الإسكندري، والمفتى على الإطلاق في مذهب الإمام الشافعي، ومقتدى الفرق في العلم العقلي "[1]،ومنه قول ابـن بطوطـة :" حـسنة المنظـر، عجيبـة المخبر"[2].

وهناك الفاصلة التي تتركب من حرفين اثنين، مثل قول ابن بطوطـة فـي وصف القاهرة :" أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد"[3]، فهذه الجملة مكونة مـن جزأين، يلتقيان في الفاصلة المكونة من حرفين هما الألف والدال .

ومن الأمثلة على هذا النوع قولـه أيـضاً : " كبيـرة المقـدار، مـشرقة الأنوار"[4]، فقد جاءت هذه الفاصلة على حرفين هما الألف والـراء، فـضلاً عـن التوازي في عدد الكلمات مما أضاف عليها مزيداً من الإيقاع .

أما النوع الثالث من أنواع الفاصلة وهو القائم على ثلاثة أحرف فأكثر، ومن الأمثلة على الفاصلة المكونة من ثلاثة أحرف قول ابن جبير :" بلدة قدرها خطيـر، وذكرها في كل زمان يطير"[5]، فجاءت الفاصلة من ثلاثة أحرف هي الطاء واليـاء والراء، ومن الأمثلة على هذا النوع أيضاً قول ابن جبير :" خطابهـا مـن الملـوك كثير، ومحلها من التقديس أثير"[6]، فانتهى شطرا العبارتين بثلاثة أحرف هي الثـاء والياء والراء، ومن الأمثلة على الفاصلة المكونة من أربعة أحرف قول ابن بطوطة : "ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة"[7]. فقد اتفقت أواخر الفاصلة في أربعـة أحرف هي الراء والياء والضاد والتاء المربوطة . ومنها أيضاً قول ابن الخطيب :" فقلت: ضريبة غريبة، ومؤونة قريبة "[8].

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج2 ص 69 .

2 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، ص 58 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، ص 58 .

4 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، ص 58 .

5 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 195 .

6 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 195 .

7 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1، ص 58 .

8 -ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 42 .

وتأتي الفاصلة من حيث عدد أجزائها على عدة أقسام :

أولها: الفاصلة المكونة من جزأين اثنين، مثل قول ابـن جبيـر:"أقطارهـا مضمومة، وديارها مركومة "[1]، وقول ابن الخطيب :"معقلها بادي الجهامة، تلـوح عليه سمة الشهامة "[2]

ثانيها : الفاصلة المكونة من ثلاثة أجزاء، مثل قول :ابن الخطيب:"تقـدمت مواكب الأشياخ الجلة، واتسقت الجموع التي لا تؤتي بحول ا من القلة، وتعـددت بمناكب البدور أشكال الأهلة "[3].

وقوله أيضاً في وصف المرية :"هنية مرية،بحرية برية، أصيلة سرية "[4]

ثالثها: الفاصلة المكونة من أربعة أجزاء من الجمل المترابطة، مثل قـول البلوي:" والركاب فاشلة، والنفوس ذاهلة، والتلاع سائلة، وجفون الـسحاب هاملـة هاطلة " [5] .

وقول ابن الخطيب :"حصن جديد، وخير مديد، وبحر ما على إفادته مزيـد، وخصب ثابت ومزيد "[6]

رابعها :الفاصلة المكونة من خمسة أجزاء من الجمل فأكثر، مثل قول ابـن خلدون :"أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فاسأل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنْعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشَقُ مـن روح ا الأرج " [7]، فقد جاء هذا النص في خمس جمل على نفس الفاصلة .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن جبير في وصف هواء بغداد :"أحسسنا مـن نفوسنا، على حال وحشة الغياب، دواعي من الإطراب، واستشعرنا بواعـث فـرح

---

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 199 .

2 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص35 .

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص47 .

4 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص80 .

5 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص 159-160 .

6 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 82 . .

7 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 105 .

كأنه فرحة الغياب بالإياب، وهبت بنا محركات مـن الإطـراب، أذكرتنـا معاهـد الأحباب، في ريعان الشباب "[1]، فقد جاء النص المكون من ست جمل على قافيـة واحدة هي حرف الباء، وهذا له دلالة واضحة على طول نفس الرحالة، وقـد دفـع طول الفاصلة إلى ورود التكرار في الفاصلة، حيث كرر الرحالة لفظة " الإطـرب "فجاءت هذه اللفظة مكررة في فاصلتين من نفس النص .

أما القسم الثاني من أقسام الإيقاع الخارجي فهـو الإيقـاع القـائم علـى التوازي، ويمكن أن نلتمس التوازي في القرائن ذوات الصيغة التركيبية الواحـدة،[2] فقد نجده في التضاد أو الترادف و التكرار والجناس التام والناقص، حيـث تتـضاد بدايات المقاطع، أو تتشابه.

فمن أشكال التوازي التكرار في بدايات القرائن،كقول الرحالة:" المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة "[3]، حيث ابتدأ المقطـع الأول بكلمـة المتناهية، وكذلك المقطع الثاني، فتكرار الكلمة بالإضافة إلى تكرار الوزن يـضفي عليها إيقاعاً مغايراً .

وقد لا تتفق بدايات الفواصل اتفاقاً كاملاً كقول البلـوي: " والوجـوه فـي عبوس، والوجود في بوس "[4]، فكلمتا "الوجوه والوجود "اتفقتا في نفس الأحرف عدا الحرف الأخير منهما، فضلاً عن اتفاق نهاية كل مقطع من الجزأين، وبهـذا اتفـق الشطر الأول والثاني في الوزن والقافية .

1 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 168-169 .

2 -انظر: الحسناوي ،محمد ،(1986م)،الفاصلة في القرآن ، دار الأصـيل، حلـب ص233 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1،ص 39 .

4 - البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 153 .

وقد أكد النقاد على الاهتمام بآخر السجعة والفاصلة، فآخر السجعة أشـرف من أولها، "والعناية بها أمس، والحشد عليها أوفى وأهم، وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به "[1] .

ومن الأمثلة على التكرار في اللفظ والمعنى أيضاً قول ابن الخطيب : "فرفع الجناح، وخفض الجناح "[2]، فقد كرر لفظة الجناح مرتين في نهاية كـل فاصـلة، وأوجد تضاداً بين " رفع وخفض"، فجاء تكرار المفردة نفسها ليفيد تأكيـد المعنـى، ويعطي ترنيماً موسيقياً للعبارة، فعلى قدر الأصوات المكررة تتم الموسيقى، وقد عد القدماء كثرة الأصوات المكررة براعة في القول[3].

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن جبير :" وما منها جامع من الجوامـع، ولا مسجد من المساجد، ولا روضة من الروضات، ولا محرس مـن المحـارس، ولا مدرسة من المدارس، إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها ويلزم السكن فيها "[4]، فقد أعطى التكرار في هذا النص معنى التوكيد ؛ لأن الرحالة كان يمكنه القول :"وما منها جامع، ولا مسجد ولا روضة ..." ولكنه كرر هذه المفـردات ليؤكـد أن فضل السلطان صلاح الدين يعم كل الأمكنة التي ذكرها دون استثناء .

ولا يقتصر التكرار على تكرار اللفظ نفسه بل قد يكرر الرحالة المعنى عن طريق الترادف، مثل قول ابن الخطيب :"، وألحوا في السؤال، وتشططوا في طلـب النوال "[5]، فجاء الترادف في لفظتي "ألحوا وتشططوا"، فقد اشتمل شطرا الفاصـلة على معنى المبالغة، مما يساعد على توكيد المعنى بـأكثر مـن وجـه، والتكـرار الموسيقي في الوزن.

---

1 - ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهلال - مـصر، ط2، 1952م، ج1، ص84 .

2 -ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص48 .

3 - أنيس، موسيقى الشعر، ص 246.

4 -ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص 34 .

5 -ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص42

ومن التوازي المبني على الترادف، قول ابن عربي: "من أسرار القـرآن، وجواهر الفرقان"[1]، فالفرقان من أسماء القرآن الكريم، فجاءت الكلمتـان لتؤكـدان المعنى نفسه .

ومن أشكال التوازي، التوازي القائم على التضاد، من خلال تكرار الكلمات المتضادة في المعنى المتشابهة في الصيغة والمتماثلة في الموقع[2]، ومن الأمثلة على هذا النوع قول ابن بطوطة في وصف القاهرة :"و بها ما شئت من عـالم وجاهـل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعـروف "[3]، فقد بنى ابن بطوطة على التضاد الداخلي في أجزاء العبارة الواحدة مثل "عـالم وجاهل "وجاد وهازل " و" منكر ومعروف " والتضاد بين كل زوجين اثنين في بداية ونهاية كل فاصلة مثل "حليم ووضيع " في بداية الفاصلة، و"سفيه ونبيه " في نهايـة الفاصلة .

وقد كان لهذا التوازي المتمثل في التساوي في عدد الكلمات، والتوازي فـي نهايات الفواصل وبداياتها، والتضاد الظاهر والمتوقع، دوره الكبير في إثارة التوقـع للكلمة التالية[4]، فضلاً عن التكرار التام للمعنى الذي أضفى علـى الـنص جمـالاً وتنغيماً واضحين .

ومن الأمثلة على هذا النوع من التوازي، قول ابن خلدون :"ما اختلف لـي فيه أول وآخر، ولا شاهد ولا غائب "[5]

1 -ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص 129

2 -ربابعة،موسى، هندسة القصيدة : قراءة في ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء، في قـراءة النص الشعري الجاهلي، مؤسسة حمادة، ودار الكندي،إربد، 1998م، ص136 .

3 - ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج1 ص 39 .

4 - انظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص229 .

5 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص140 .

ومن أنواع التوازي القائم على الجناس التام مثل قول ابن الخطيب :" تربة الولي، وحضرة الملك الأولي، وصرح الناصر الولي "[1]، وقول ابن عربي:"لأنها ريح الغَيرة، فليس تبقي على مالكها غَيره "[2]

والجناس الناقص مثل قول ابن الخطيب :" والحرث الذي له التمكين، والمكان المكين "[3]، ومن الأمثلة عليه قول ابن الخطيب أيضاً :"سحرت العيون شارتها، وتعبد الإباءة إشارتها "[4] .

والسجع في كل هذه النصوص كان زينة للقول وشرفاً للمعنى، ومن خلال موسيقيته التي يضفيها على الكلام "ندرك ما بين هذه الأساليب الإيقاعية المتنوعة من انسجام، بل كل نفس ذواقة تلحظ هذا الإيقاع، الذي يتكرر من خلال الموجات دفعاً للرتابة وتجديدا للنشاط "[5].

قد يظن القارئ أن جميع الرحالة يسير على هذا النهج، ونقصد بذلك الأسلوب المسجع الذي يعتمد على الفواصل، وهذا من الأمور التي تستدعي منا الإشارة إليها والتنبيه عليها، إذ إن السجع لا يدور إلا على ألسنة بعض الرحالة الذين أوردنا أمثله من أقوالهم، من مثل ابن بطوطة وابن جبير، وابن خلدون، والبلوي وابن الحاج النمري والقلصادي أحياناً، أما بعض الرحالة فلم يلق بالاً للسجع ومن هؤلاء من العذري والبكري والإدريسي وابن عبد البر والقاسم التجيبي في بعض الأحيان، وقد جاء هذا الاختلاف بين الرحالة في استخدام السجع أو عدمه نتيجة لاختلاف الملكات وتنوعها، بالإضافة إلى طول النفس الذي يتمتع به بعضهم فيأتي نتيجة لذلك بأكبر قدر من الفواصل المسجوعة .

---

1 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 104 .

2 - ابن عربي، الإسراء إلى مقام الأسرى، ص 149 .

3 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 77 .

4 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 104 .

5- الأبيض، السجع في القرآن بين النفي والإثبات،،ص 49

ونتيجة لذلك فقد جاءت نصوص بعض الرحالة معتمدةً على النثر المرسل قانون التغيير [1]في الفواصل، ويقوم التغيير في الفاصلة على إحداث الصدمة للتوقع عن طريق المفاجأة السارة، وتحدث الصدمة عن طريق ظهور شيء جديد يثير الاهتمام على نحو مؤكد، فإن الأثر الذي يتولد في نفس القارئ هو أثر الشيء الطريف، أما إذا لم يوجد ما يعوض هذه الصدمة، فحينئذ يشعر المتلقي بما في الموضوع من قبح ونقص [2] .يقول ابن جبير في وصف الأهرام :" الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة، قامت في جو السماء "[3]، بالرغم من أن هذه الفقرة تتميز بقصر الفواصل، فإن التغير هو ما يثير الانتباه فيها عن طريق الصدمة التي تحدثها تغير الفاصلة، ولكن الذي يعوض عن القافية الموحدة هو ما نجده من التناسق في عدد الكلمات في كل جملة من هذه الجمل .

ومن الأمثلة على التغير قول القلصادي في وصف أحد شيوخه :" مقبل على الآخرة، معرض عن الدنيا، عار عن زخرفها، إلا ما يتخذه من ثوب حسن، أو هيئة فيها جمال، أكرمه المولى بتلاوة القرآن، وشرفه بملازمة قراءة العلم والتصنيف والتدريس والتأليف "[4] .

ويلاحظ الدارس أن التفاوت في الجمل، واختلافها طولا وقصراً، وتغيير حرف الروي من حرف إلى آخر، يؤكد عنصر التغيير والاختلاف لما فيهما " من تصوير للأفكار والمواقف والحاجات وكسر للرتابة، وإبعاد للسأم والملل" [5]؛ ولأن دواعي المعنى هو ما يتطلب من الرحالة تقديم المعنى على السجع.

ومن الأمثلة على تفاوت الفاصلة وتغيرها قول ابن الخطيب :" قلت : فمدينة فاس، فقال: رعى ا قطراً تربه ينبت الغنى، وآفاقه ظل على الدين ممدود، نعم

1 - انظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص206 .

2 - انظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص206 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار، ص35 .

4 - القلصادي، الرحلة، ص 103 .

5- الأبيض، السجع في القرآن بين النفي والإثبات، ص 53 .

العرين لأسود بني مرين، ودار العبادة التي يـشهد بهـا مطـرح الجنـة ومـسجد الصابرين، وأم القرى، ومأم السرى، وموقد نار الوغى ونار القرى "[1] .

إن أسلوب هذه القطعة يتسم بسهولة الطبع، على الرغم من أن ابن الخطيب اعتمد على الأسلوب المسجع، كما نلحظ فيها تفاوت الفواصل في الوزن و الروي، واتفاق نهايات بعضها الآخر، مما أعطى هذا النص ثراء موسيقياً واضـحاً، وذلـك بالتنقل والمراوحة من فاصلة إلى أخرى، ومن وزن إلى آخر؛ " لأن التمسك بنهاية صوتية واحدة، يفقد الأسلوب عنصر المفاجأة التي توقظ النفس "[2].

والتغير في النثر يحمل دلالات مختلفة، أهمها الدلالة الجمالية، مـن حيـث "توخّي الصدمة السعيدة"[3]، وهو ظهور الشيء الجديد، غير المتوقع، مثل الفواصل المنفردة، واستخدام الحروف المتقاربة في الروي .

وهناك الدلالة الفكرية: ويقصد بها الحرية "أي أن التزام الفواصل المتماثلـة بقدر ما هو قيد للمنشئ، يوحي بالقيد للقارئ "[4] .

5.5 شعرية وصف الأمكنة

اللغة عبارة عن وسيلة جميلة للتوصيل، وهي بنية متكاملة وظل، فبمقدار ما هي متكاملة، فإن لها ظلالها، وإيحاءاتها، مما يجعلها أكثر غنى وجمـالاً[5]، فهـي ليست مجرد كلمات استعمالية، وإنما فيها نوع من الشيء الشعري[6]؛ إذ إنها تحمـل نبض وشعور الكاتب، فالشعرية هي التي تدعو إلى الإحساس بـالنص وتقبلـه؛ لأن القارئ لا يقوم بوظيفة سلبية في عملية التواصل مع النص باعتباره مجـرد متلـق

---

1 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص106-107

2 - الأبيض، السجع في القرآن بين النفي والإثبات،ص 46 .

3- انظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص222

4 - انظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص222

5 -منيف، عبد الرحمن، الكاتب والمنفى"هموم وآفاق الرواية العربيـة "،دار الفكـر الجديـد، 1992م،ط1، ص145 .

6 -منيف، الكاتب والمنفى،ص145 .

فيها، فمهمته خلق النص ابتداء من التصور الأول[1]، وهنا تأتي مهمة الكاتب بـأن يكتب النص " بشكل يدعو القارئ لتقبل ما ينشئ"[2] .

وتأتي شعرية وصف الأمكنة في النص الرحلي من أمور هي :

1- إحساس الرحالة بالمكان، وبالتالي نقل نفس المشاعر إلى المتلقـي : ويقـصد بذلك ظهور المشاعر الشخصية عند الحديث عن المكان أكثر من الحديث عن المكان نفسه، يقول العبدري:"دخلت إلى البلاد الأمين مقر المجد الصميم والشرف المكـين، فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين، فاقسم با العظيم أعظم يمـين، قـسماً لا يكذب ولا يمين ما حرم سكناه إلا ذو حظ غبين "[3] .

فلم يصل الرحالة إلى مرحلة القسم إلا عند وصول مشاعره ذروتها، فتحرك المشاعر، وارتفاع نبض الإحساس الديني هو من دواعي الشعور بقدسـية المكـان، والإنسان المتدين لا يقسم إلا في حالة اليقين التام بصدق قوله، فيلاحظ القارئ فـي هذا الوصف طغيان مشاعر الرحالة على الوصف، فيكمل قوله :"ياله مشهداً شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن أن يقرن بعديل أو مثيل، كم حوى من مآثر لا تحد، كم ضم من مفاخر لا تعد، كم به من أشعث دعوته لا ترد "[4].

فالرحالة ينسى الوصف الحسي للمكان، وينـدفع وراء وصـف مـشاعره الجياشة تجاه المكان؛ فهو" بلد يسبي عقول الخلق، ويستولي على قلوبهم"[5]، فنقـل المشاعر إلى المتلقي يشير إلى قدرة الكاتب على توصـل مـراده إلـى المتلقـي، واستجابة المتلقي لذلك مما يضفي على الوصف مزيداً من الشعرية .

2- إضفاء الحركة على المكان: وذلك من خلال امتزاج الوصف بالسرد عن طريق استخدام الأفعال الدالة على ذلك،[6] يقول ابن الخطيب في وصف بـسطة :" يتخلـل

---

1 - انظر : فضل، صلاح، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء، القاهرة، 1998م، ص 23 .

2 - فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، ص 23 .

3 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 169 .

4 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 170 .

5 - العبدري، الرحلة المغربية، ص 172 .

6 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص 164 .

مدينتها الجدول المتدافع، والناقل للعلل النافع، ثياب أهلها بالعبير تتـأرج، وحورهـا تتجلى وتتبرج، وولدانها في شط أنهارها المتعددة تتفرج "[1] .

فالجدول مياهه متحركة، والرائحة تشير إلى الانتشار والحركة، واسـتخدام المياه للعلاج فيها حركة التغيير من حال المرض إلى الشفاء، والفتيات الحور تتزين "تغير من حال إلى حال " من عدم الزينة إلى الزينة، كما يضفي منظـر الـصبيان حول هذا المكان مزيداً من الحركة بسبب ما يعرف عن الصغار من كثرة الحركـة وعدم الاستقرار .

كما أضفى استخدام الأفعال في النص مزيداً من الحركـة " تتخال،تتـأرج، تتحلى، تتبرج، تتفرج "وكلها أفعال مضارعة دالة على الحركة والاستمرار[2].

3- رسم لوحة فنية كاملة للمكان: يقول ابن جبير في وصـف نـصيبين:"شـهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بـين الكبـر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، فقد أجرى ا فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرد في نواحيه، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطـاف الـسوار، والحـدائق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه "[3].

إن الناظر لهذه اللوحة الفنية يرى المدينة، وقد أحدث فيها بعض التعـديلات في البناء، ولكن مع ذلك تتضمن بعض الآثار من داخلهـا، كمـا يـرى البـساتين والأشجار تحيط بها من مختلف الجهات، يتخلل هذه البساتين والحدائق مجموعة من الأنهار الصغيرة .

ومن ذلك قول البلوي في وصف قلعة:"مدينة عظيمة الجرم، سامية الرسـم، كأنها على مرقب النجم، يحصر دونها الناظر ويقصر عنها العقاب الكاسـر، يكـاد علاها يعرف حوض الغمام، ويقف على هام السحاب والقتام، متناهية في الحصانة، موصوفة بالوثاقة، ممتنعة على الطلب والطلاب، مختصة بكثـرة الحـراس وشـدة

---

1 - ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص 84 .

2 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص 164 .

3 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 186 .

الحجاب، منصوبة على أضيق المسالك و أوعر المناصب، صماء على الراقي، عالية على المرتقى، نائية للمراقب، لن تزدها الأيام إلا نبو أعطاف، واستصعاب جوانب، وأطراف، فهو حمى لا يراع ومعقل لا يستطاع، كأن الأيام صافحتها على الإعفاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع، ضخمة المأوى رحبة المثوى، معشوقة السكنى، رائقة المغنى"[1] .

إن الناظر في هذه اللوحة الفنية يكاد يتخيل مدينة كبيرة الحجم مرتفعة جداً، حتى كأنها تلمس السحاب، فلا يستطيع العقاب الارتفاع إلى مستواها لارتفاعها الشاهق، شديدة الحصانة، كثيرة الحراس، لها مسلك وطريق وعر جداً، ولا يمكن دخولها إلا من طريق واحد، صماء على كل من يحاول اقتحامها، وكأن الأيام والليالي قد بايعتها مصافحةً ونصبتها على عرشها، فاستسلم الدهر وأعلن إعفاءه لها من حوادثه .

4-تقديم الوصف عن طريق الأشكال البلاغية[2]، مثل ألوان البديع من طباق وجناس وتكرار :

من مثل قول ابن بطوطة حين يبني وصفه للمكان عن طريق الجناس والطباق، فيقول:" المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم، وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه"[3]، فالجمع بين المتضادات اللغوية يشير إلى اجتماع تلك المتناقضات في الواقع، وكأن الرحالة يصور الواقع بكل تناقضاته، فازدياد عدد السكان يفضي إلى اختلاف الثقافات واختلاف الآراء.

ومن ذلك قول البلوي:"ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مياهه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياضات تحي النفوس بنسيمها العليل، تتبرج لناظرها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، فنزلنا منها منزلاً بديعاً قد عذب ماؤه، وراق روضه، ورق صفاؤه وهواؤه، وتفسحت مساحاته، وتأرجت

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص276 .

2 - الشوابكة، السرد المؤطر، ص 164 .

3 - ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص39 .

أرجاؤه"[1]., فجاء استخدام الرحالة لكلمات من نفس الجذر "ظل وظليل "و "تنـساب وانسياب" و" رقّ وراق "،،مما يمنح النص إيقاعاً موسيقياً، فضلاً عما يضفيه علـى المعنى من قوة .

5- استخدام لغة بلاغية تتضمن صوراً وتشبيهات، مما يـضفي علـى الـصورة المكانية الأنسنة، يقول ابن جبير في وصف بغداد:"وهي بالإضافة ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها كالظل الدارس، والأثر الطـامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المـستوفز العقل والنظر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلـوة بـين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي تردها ولا تظمأ، وتتطلع منها في مـرآة صقيلة لا تصدأ "[2] .

فالمصائب تلتفت بعينيها كعيني حيوان مفترس، وتترك أثر هجومها علـى المكان فيبقى الأثر كأنه الظل، أو هو تمثال يشخص بعينيه، وبالرغم من هذا المنظر الوحشي الذي أضفاه تتابع المصائب والحوادث على المكان، فإن نهر دجلة يعطـي الوجه الآخر للمكان، الذي يعكس الإشراق والحياة، فهو كالمرآة المجلـوة التـي لا تصدأ، بنما تتطلع فيها بغداد لترى من خلالها وجهها الجميل .

ويقول البلوي مضمناً حديثه بعض التشبيهات :"ولم نزل نخوض أحشاء كل واد كالثعبان، تتلقف نفس الجريء فكيف الجبان، فكأن تلك الأوديـة سـيوف لقتـل الإنس مسلولة، ولولا زرقة ألوانها لقات دماء مطلولة "[3] .

وكقول ابن الحاج النمري:" وما أطلت ليلة يوم تاريخه حتى استولينا علـى قسنطينة أحسن استيلاء، وارتقى ثقاتنا ذروتها السامية العلاء، وظفرنا منها بالعـدة التي كانت في ضمان الأيام والليالي، والعقيلة الحصان الرزان التي خطبناها ببيض السيوف وسمر العوالي "[4] .

---

1 - البلوي، تاج المفرق، ج1 ص245 .

2 - ابن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 169 .

3 - البلوي، تاج المفرق، ج1، ص165 .

4- ابن الحاج النمري، فيض العباب، ص 319 .

الخاتمة

لقد سعت هذه الدراسة إلى البحث في جماليات المكان في مدونات الرحالة الأندلسيين والمغاربة حتى نهاية القرن التاسع الهجري، فكشفت عن أهم أسباب الرحلات المغربية والأندلسية ودوافعها، وتبين من خلال ذلك أن الدافع الديني والعلمي هما أهم الدوافع التي حفّزت الرحالة على الرحيل إلى المشرق، وكشفت الدراسة عن جمع بعض الرحالة بين أكثر من هدف أثناء طوافهم في أرجاء البلاد، من مثل الحج وطلب العلم .

ووجدت الدراسة أن الرحلات المغربية والأندلسية جاءت في شكلين من حيث الامتداد المكاني، فجاءت بعض الرحلات داخل الأندلس والمغرب، وامتد بعضها الأخر خارج بلاد المغرب إلى المشرق العربي وبلاد الصين والهند وغيرها.

وسلطت الدراسة الضوء على جماليات الأمكنة المتضادة، البر والبحر، المقدس والمدنس، وأمكنة الأنا والآخر، والمكان الواقعي والمتخيل، فوجدت تضاداً كبيراً في نظرة الرحالة إلى هذه الأمكنة . كما كشفت عن تباين مشاعر الرحالة تجاه الأمكنة، فقد حمل الرحالة أجمل المشاعر لأمكنة انطلاقهم، ويلخص مشاعرهم بعد الرحيل قول أبي تمام :

كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفَتى وحنينُه أبداً لأول منزل

أما أمكنة العبور فقد تنوعت مشاعرهم تجاهها، فوجدنا أماكن لها قوة جاذبة للرحالة فيقيم الرحالة فيها أياماً أو شهوراً وسنوات، ونجد في الجهة المقابلة أماكن أخرى لها قوة طاردة يرفضها الرحالة ويعبرها بسرعة متمنياً عدم العودة إليها أو العبور منها ؛ لأسباب قد تتعلق بالمناخ أو بعدها عن العمران مما يؤدي إلى نفاذ الماء والعجز عن الحصول عليه، وأحياناً قد تكون الأسباب تتعلق بسوء معاملة أهل هذه الأمكنة .

ولكن مكان الوصول يختلف تماماً عن هذين المكانين السابقين، فلولاه ما كانت الرحلة أصلاً، فلهفة الشوق لمكان الوصول تنسي الرحالة كل متاعب الرحلة ومشاقها .

وقد تعددت أماكن الوصول، فوجدنا أماكن وصول للرحلات الدينية الحجية، وأماكن وصول للرحلات السياسية والسفارية، وأماكن وصول للرحلات العلمية هي الحواضر العلمية في المشرق مثل الإسكندرية والقاهرة ومكـة المكرمـة ودمـشق والقدس وغيرها، فهدف الرحلة هو الذي يحدد مكان الوصول .

وقد سلطت الدراسة الضوء على أصداء الأمكنة والأزمنة، فتناولت أمكنـة التسامح الديني للديانات الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية، وأمكنة حوار الأزمنـة التي تحمل دلالة تاريخية في طياتها، وتدل على من سكن هذه الأمكنة .

وألقت الدراسة الضوء على أدبية وصف الأمكنة، فكشفت عن وجود نوعين للاسترجاع في مدونات الرحالة هما الاسترجاع الداخلي والاسـترجاع الخـارجي، ودرستْ مظاهر العجائبية والغرائبية في الرحلات، فلاحظت تحقق بعض الرحالـة من مروياتهم أثناء تدوينها، وسرد بعضهم كل ما يسمعه دون تحقق من ذلك .

ووجدت الدراسة بروز الموروث الثقافي بشكل كبير لـدى الرحالـة فـي مدوناتهم، من تناص مع القرآن والـسنة والأمثـال العربيـة والـشعر العربـي، والقصص التاريخية، والنصوص الرحلية.

وتفاوت اهتمام الرحالة بقضية السجع في مدوناتهم، فقد طغى على بعـض مقدمات الرحالة أثناء الوصف مما أضفى عليها إيقاعاً موسيقياً، ومال بعضهم الآخر إلى النثر المرسل .

كما برزت الشعرية في وصف الرحالة الأمكنة، ووجدت أن الشعرية فـي مدونات الرحالة تتأتى من نواحٍ متعددة، مثل تصوير الأشياء بصورة متحركـة، أو رسم صورة فنية بارعة للمكان، أو استخدام اللغة البلاغية بما تحمله من تـشبيهات واستعارات .

المراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي،(ت 658هـ)، (1985م)، **الحلة السيراء**، 2ج، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، ط2.

إبراهيم، عبد الله ،(1992م)، السردية العربية، **بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي**، المركز الثقافي العربي، ط1 .

الأبيض، محمد عمار،(2004م)، **السجع في القرآن الكريم بين النفي والإثبات**، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1.

أحمد، أحمد رمضان، **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع.

أحمد، علي،(2000م)، القدس في نظر الأندلسيين والمغاربة خلال العصور الوسطى، **دراسات أندلسية**، العدد الرابع والعشرون، ربيع الثاني، ص72.

الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي ت(560هـ)،(1989م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، 2مج، عالم الكتب، بيروت، ط1.

إسماعيل، يوسف،(2007م)، **المقامات " مقاربة في التحولات والتبني والتجاوز"**،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

الياد، مرسيا،(1988م)، **المقدس والمدنس**، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1 .

أنيس، إبراهيم،(1965م)، **موسيقى الشعر**، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ط3.

باشلار، غاستون،(1992م)، **جدلية الزمن**، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3.

باشلار، غاستون،(1984م)، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2 .

البجائي، أحمد أبو عصيدة، ت (865هـ)،(1993م)، **رسالة الغريب إلى الحبيب**، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي، ط1.

بحراوي، حسن، (1990م)، **بنية الشكل الروائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.

بختين، ميخائيل،(1990م) **أشكال الزمان والمكان الفني في الرواية**، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

ابن بطوطة، أبو عبد ا محمد بن عبد ا بن محمد الطنجي (ت 779هـ)، (2007م)، **تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**،2ج، اعتنى به درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت.

بكر، أيمن،(1998م)، **السرد في مقامات الهمذاني**،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .

البكر، خالد بن عبد الكريم بن حمود (، 1993م)، **النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة**، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ط1.

البكري، عبد ا بن عبد العزيز،أبو عبيد البكري الأندلسي(ت487هـ)، (د.ت)، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

البكري، عبد ا بن عبد العزيز، **أبو عبيد** البكري الأندلسي (ت487هـ)، (1945م)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، 4 أجزاء، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه مصطفى السقا، عالم الكتب – بيروت.

البكري،عبد ا بن عبد العزيز أبو عبيد البكري الأندلسي(ت487هـ)، (1977م)، **جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق ودراسة عبدا يوسف الغنيم، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط1.

البلوي، خالد بن عيسى،(ت765هـ)، (د.ت) ، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**،(2ج)، تحقيق الحسن السائح ،مطبعة فضالة،المحمدية، المغرب .

التجاني، أبو محمد عبد ا بن محمد بن أحمد التجاني(670هـ أو 675هـ)، (1981م)، **رحلة التجاني(تونس طرابلس)،** قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس .

التجيبي، القاسم بن يوسف السبتي، (ت730هـ)، (1975م)، **مستفاد الرحلة والاغتراب،** تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب،ليبيا تونس.

تودوروف،تزفتان،(1993م)، **مدخل إلى الأدب العجائبي،** ترجمة الصديق بوعلام، تقديم محمد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد،(ت728هـ)،(1984م)، **الجواب الباهر في زوار المقابر،** صحح أصله وحققه سليمان بن عبد الرحمن الصنيع، شارك في تحقيقه وخرج

أحاديثه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، طبع ونشر الرئاسة العامـة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

ابن جابر الوادي آشي،شمس الدين محمد بن جابر التونـسي، (ت749هـ ـ)، (1981م) **برنامج ابن جابر الوادي آشي(2ج)،** تقديم تحقيق محمد الحبيب، الهيئـة البحـث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة.

الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت 255هـ)، (1998م)، **البيان والتبيين 4ج**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7.

ابن جبير، محمد بن جبير الأندلسي، (ت 614هـ ـ)،(2001م) **تـذكرة بالإخبـار عـن اتفاقات الأسفار**، حررها وقدم لها علي أحمـد كنعـان، دار الـسويدي للنـشر، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.

الجحمة، نواف عبد العزيز،(2008م)، **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربـي من القرن السادس إلى الثامن الهجري**، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1.

الجرجاني، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816هـ)،(1985م) **كتاب التعريفات مع فهرست تعريفات ومصطلحات لغوية وفقهية وفلسفية**، مكتبة لبنان، بيروت.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (ت 392هـ)،(1952م)، **الخصائص**، تحقيق محمـد علـي النجار، دار الهلال، مصر، ط2 .

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (1979م)، **فضائل القدس**، حققه وقدم لـه جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1 .

ابن الحاج النمري، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد ا بن إبراهيم (ت774هـ)، (1990م)، **رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة الـسعيدة إلـى قـسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1.

الحاوي، إيليا، (1981م)، **شرح ديوان أبي تمام**، دار الكتاب اللبناني، ط1.

الحريري ، محمد مرسي ،(1985م)، **الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

حسن، زكي محمد،(1945م)، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار المعـارف، القاهرة.

الحسناوي ،محمد ،(1986م)، **الفاصلة في القرآن**، دار الأصيل، حلب.

حسين، خالد حسين،(1421هـ)، **شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجا)،** مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض.

حسين، محمد محمود،(1985م)، **المسجد الأقصى في الكتب المقدسة**، مطبعة نور الأمل،القاهرة .

حسين،حسني محمود،(1983م)، **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3 .

حليفي، شعيب، (2003م)، **الرحلة في الأدب العربي"التجنيس،آليات الكتابة،خطاب المتخيل**"دار القرويين، المغرب، ط2.

حليفي، شعيب، (1994م) تيمة السفر في النص السردي القديم، **مجلة فصول،** مج13، ع3 ، ص252.

حمودة، حنان محمد،(2006م)، **الزمكانية وبنية الشعر،** عالم الكتب، اربد.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد ا ياقوت بن عبد ا الحموي الرومي البغدادي (ت 626هـ)، (1977م) **معجم البلدان،** 5م، دار صادر، بيروت.

الحميدي،أبو عبد ا محمد بن أبي نصر الأزدي، (ت488هـ)،(1966م) **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،** الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

الحميري،محمد عبد المنعم، ت(727هـ تقريباً)**،**(1984م)**، الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد ا بن خاقان القيسي الإشبيلي، (ت529هـ)،(1983م)، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس،** دراسة وتحقيق محمد علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1.

ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، (2003م)، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تقديم عبادة كحيلة،الشركة الدولية للطباعة.

ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، (2001م)، **المقدمة**، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي التونسي المالكي، (808هـ)،(د.ت)، **تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام**

العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مـصححة بعناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض

ابن الخطيب، لسان الدين (ت776هـ)،(1975م)، **الإحاطة فـي أخبـار غرناطـة**، 4م، تحقيق محمد عبد ا عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.

ابن الخطيب، لسان الدين (ت776هـ)،(2003م)، **خطرة الطيف في رحلات في الأندلس والمغرب،** تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر والتوزيع،أبو ظبـي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 .

أبو خليل، شوقي، (1993م) ، **التسامح في الإسلام " المبـدأ والتطبيـق "،** دار الفكـر المعاصر، بيروت، ط1.

داغر، شربل، (1997م)، التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري، **مجلة فصول،** الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد 16، العدد الأول، ص 132-134، القاهرة.

الدميري، كمال الدين محمد بـن موسـى ت(808هـ ـ)، (1978م)، **حيـاة الحيـوان الكبرى**،2ج، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط5.

دوزي، رينهارت،(1980م)، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد سـليم النعيمـي، دار الرشيد للنشر.

ديوان بشار بن برد،(1966م)، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، راجعه وصححه محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.

الذبياني، زياد بن معاوية بن ذبيان، (ت نحو18 ق.هـ)،(1991م)، **ديـوان النابغـة الذبياني**، شرح وتعليق حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد،(ت 425هـ)،(1992م) ، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بيروت، والدار الشامية بيروت،ط1.

ربابعة، موسى،(1998م)، **هندسة القصيدة : قراءة في ظاهرة التـوازي فـي قـصيدة الخنساء، قراءة في النص الشعري الجاهلي**، مؤسسة حمادة، ودار الكندي،إربد .

ابن رشيد، أبو عبد ا محمد بن عمر بـن رشـيد الفهـري الـسبتي، (ت 721هـ ـ)، (1982م)**، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الجهة الوجيهة إلى الحـرمين مكة وطيبة،** الجزء الثاني، تقديم وتحقيق محمد الحبيـب ابـن الخوجـة، الـدار التونسية للنشر –تونس.

الرومي، أبو الحسن علي بن العباس،(ت283هـ)،(1991م) ، **ديوان ابـن الرومـي،** 6ج، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1.

زايد، عبد الصمد،(2003)، **المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة)**، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1 .

الزركلي، خير الدين بـن محمـود بـن محمـد بـن علـي بـن فـارس، الزركلـي الدمشقي،(1984م)، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء مـن العـرب والمستعربين و المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان .

الزعبي، أحمد،(1986م)، **في الإيقاع الروائي "نحو منهج جديـد فـي دراسـة البنيـة الروائية،** دار الأمل للنشر والتوزيع،عمان، ط1.

زيادة، نقولا،(1982م)، **الجغرافية والرحلات عند العـرب**، الأهليـة للنـشر والتوزيـع، بيروت، ط3.

سامي، سحر، (2005م)، **شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحيي الدين بـن عربي،** الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ساميول، تيفين،(2007م)، **التناص ذاكرة الأديب،** ترجمة نجيب غزاوي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

السجستاني، أبو داوود سليمان،(1988م)، سنن أبـي داوود بـن الأشـعث، 4ج، الـدار المصرية اللبنانية،القاهرة .

سرحان، هيثم، (2005م) **رحلة محيي الدين ابن عربي "رموز المكان وتمثلات السرد "،** مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد67، صيف –خريف، ص117.

ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى ،ت(685هـ)،(1955م)، **المغرب فـي حلـى المغرب،** تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، الجزء الأول ط3، والجزء الثـاني ط4.

السكري، أبو سعيد ت(275هـ)، (2000م)، **ديوان امرئ القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري،** دراسة وتحقيق أنور أبو سويلم ومحمد الـشوابكة، مركـز زايـد للتراث والتاريخ، الإمارات، ط1 .

سليمان، نبيل،(تموز1999م)، **الجمالي في المشهد القصصي في الأردن،** مجلـة أفكـار، وزارة الثقافة، عمان، عدد 135، ص193.

شعلان، سناء، (2004م)، **السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن** (1970 - 2002)، المكتبة الوطنية، عمان.

الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس رضي الله عنه،(ت204هـ)، (1990م) ، **ديوان الشافعي،** تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، عالم الكتب، بيروت ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1.

شبير، محمد عثمان،(2004م)، **بيت المقدس وما حوله" خصائصه العامة وأحكامه الفقهية"**، دار النفائس، الأردن، ط1 .

الشوابكة، محمد علي،(2006م)،**السرد المؤطر في رواية النهايات (البنية والدلالة)،** منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان .

الشوابكة، محمد علي،(1991م)، دلالة المكان في مدن الملح، **مجلة أبحاث اليرموك**، (مج9)، (ع2)، ص 10.

الشوابكة، نوال عبد الرحمن،(2008م)، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري،** دار المأمون للنشر، ط1 .

صالح، صلاح،(1997م) ، **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر،** دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1 .

الصفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت764هـ)، (2000م) الوافي بالوفيات،29 ج، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1.

ضيف، شوقي،(1956م)، **الرحلات،** دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي،(د.ت)، **تاريخ الأدب العربي، تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات الأندلس"**، دار المعارف، القاهرة،ط3.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ)،(د.ت)، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)،**11ج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2.

الطيب،عبد الله ،(1970م)، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، 2ج، الدار السودانية، ط2 .

عباس، إحسان، (2007م)، **مقدمات في التعريف بنماذج من التراث،** تقديم نهاد الموسى ومحمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

عباس، محمود جابر،شوال(1423هـ) **إستراتيجية التناص في الخطاب الشعري العربي الحديث**، علامات في النقد،ج 46، م 12، نادي جدة الأدبي،

ابن عبد البر،أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (463هـ)، (1350هـ) **القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ومن أول من تكلم العربية من الأمم**، ويليه من تأليفه الإنباه على قبائل الرواة، عنيت بنشرها مكتبة القدسي لصاحبها حسام الدين القدسي، مطبعة السعادة – القاهرة.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت328هـ)، (1983م) **العقد الفريد**، 9ج، تحقيق مفيد محمد قميحة، وعبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 .

عبد الرؤوف، محمد عوني،(1977م)، **القافية والأصوات اللغوية**، مكتبة الخانجي، مصر .

العبدري،أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي ،(ت700هـ)، (1986م)، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم، الرباط .

العذري، أحمد بن عمر بن أنس المعروف بـابن الدلائي (ت 478هـ)، (1965م)، **نصوص عن الأندلس (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك)**، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد .

ابن عربي،أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي (ت 638هـ)،(1988م)، **الإسراء إلى مقام الأسرى**، تحقيق سعاد الحكيم، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1.

عزام، محمد،(2001م)، **النص الغائب "تجليات التناص في الشعر العربي** " اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

العسلي، كامل جميل،(1992م)، **بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين**، عمان.

العشماوي، محمد زكي،(1984م)، **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

العطار، سليمان،(1991م) , **الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجـالات)**، دار الثقافـة للنشر والتوزيع، القاهرة.

عقاق، قادة،(2001م)، **دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر**" دراسة فـي إشكالية التلقي الجمالي للمكان"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

العلاق، علي،(2002م)، **الدلالة المرئية**، دار الشروق، عمان، ط1.

العمد، هاني صبحي،(1993م)، **كتب البرامج والفهارس الأندلسية** " دراسـة وتحليـل"، الجامعة الأردنية، عمان، ط1.

عوض، محمد مؤنس أحمد،(1995م)، **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الـشام في عصر الحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1.

الغذامي، عبدا ،(1993م) ثقافة الأسئلة " مقـالات فـي النقـد والنظريـة"، دار سـعاد الصباح،الكويت، ط2.

الغرناطي، أبو حامد محمد، ت(565هـ)،(2003م)، **تحفة الألبـاب ونخبـة الإعجـاب ورحلة إلى أرويا وآسيا**، حررها وقدم لها قاسم وهـب، دار الـسويدي للنـشر والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1.

فضل، صلاح،(1998م) **أساليب الشعرية المعاصرة**، دار قباء، القاهرة.

ابن الفرضي،أبو الوليد عبد ا بن محمد بن يوسف الأزدي، (ت403هـ)، (1988م)، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** 2ج،عني بنشره وصـححه ووقـف علـى طبعه، عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2.

فهيم، حسين محمد،(1989م)، **أدب الرحلات(دراسة تحليلية من منظـور اثنـوجرافي)**، عالم المعرفة،الكويت.

قاسم، سيزا أحمد،(1984م)، **بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

القاسم، نبيه،(2005م)، **الفن الروائي عند عبـد الـرحمن منيـف" المكـان، الزمـان، الشخصية**"، دار الهدى للطباعة والنشر، ط1.

القزوينـي، أبـو عبـد ا زكريـا بـن محمـد بـن محمـود الكـوفي الأنـصاري (682هـ)،(2000م)،**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، مؤسسة الأعلمـي للمنشورات، بيروت، لبنان،ط1.

القزويني، أبو عبد ا محمد يزيد، ت(275هـ)،(2003م) ، **سنن ابن ماجـه**، طبعـة مخرجة الأحاديث على باقي الكتب الستة، تخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1.

القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي (ت891هـ)،(1978م)، **رحلة القلصادي**، دراسـة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

قناوي، عبد العظيم علي،(1949م)، **الوصف في الشعر العربـي**، مكتبة مصطفى البـابي الحلبي ،مصر، ط1.

القيسي، فايز،(2005م)، أدب الحكمة في درر الكلام وغـرر الحكـم للـسيوطي، **مؤتـة للبحوث والدراسات**، (مج20)، ع8، ص 72.

ابن كثير،عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثيـر القرشـي الدمـشقي (774 هـ)،(1999م) ،**تفسير القرآن العظيم**، 8ج، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2.

كراتشكوفسكي، اغناطيوس،(1987م)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط2.

الكيلاني، شمس الدين،(2005م)،**رمزية القدس الروحية (قداسة المكـان)**، منـشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى الداني (ت507هـ)،(1977م) **شعر ابـن اللبانـة الداني**، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة.

لحمداني، حميد،(1993م)،**بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، المركز الثقـافي العربي، بيروت، ط3.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسن(ت354هـ)،(د.ت)، **ديوان أبي الطيـب المتنبـي**، 2م، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، حقق النصوص وهذبها وعلق عليها وقدم لهـا عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

المحادين، عبد الحميد،(2001م)، **جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الثقافة والتراث الوطني، ط1.

محبك، أحمد زياد،(2001م)،**دراسات نقدية من الأسـطورة إلـى القـصة القـصيرة**، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط1.

مخلوف، عبد الرؤوف،(1978م)، **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن،** دراسة تحليلية نقديـة، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن التجيبي ت(647هـ ـ)، (1994م) **المعجـب فـي تلخيص أخبار المغرب،** تقديم وتحقيق وتعليق محمد زيـنهم محمـد عـزب، دار الفرجاني، القاهرة.

مرتاض،عبد الملك،(1995م)، **تحليل الخطاب السردي،** ديوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائر.

المظفر، محسن عبد الصاحب،(2005م)**، فلـسفة علـم المكـان،** دار الـصفاء للنـشر والتوزيع، عمان، ط1.

مفتاح، محمد،(1992م)، **تحليل الخطاب الشعري:** إستراتيجية التناص، المركـز الثقـافي العربي، الدار البيضاء، ط3.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ)،(1968م)، **نفح الطيـب مـن غـصن الأندلس الرطيب،** تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1.

المناصرة، عز الدين،(2000م)، **شاعرية التاريخ والأمكنة "حوارات مع الـشاعر عـز الدين المناصرة "،** المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت630هـ)، (د.ت)، لسان العرب، تحقيق عبد ا علي الكبير ونخبة من المحققين، دار المعارف، بيروت .

منيف، عبد الرحمن،(1992م)، **الكاتب والمنفى"هموم وآفاق الروايـة العربيـة "،** ،دار الفكر الجديد، ط1.

موبيك، دي ،سي، (1983م)، **موسوعة المصطلح النقدي،** ترجمها عن الإنجليزية عبـد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.

مؤنس، حسين،(د ت)، **ابن بطوطة ورحلاته** (تحقيق ودراسة وتحليل)، دار المعارف.

مونسي، حبيب،(2001م)، **فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية)،** منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

مويقن، المصطفى،(2005م)، **بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة،** دار الحوار للنـشر والتوزيع، سوريا،ط1.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، (ت518هـ)، (1955م)، **مجمع الأمثال،** 2ج،حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية،(د.ط).

النابلسي، شاكر،(1991م)، **مدار الصحراء،** المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، (ت303هـ)، (1988م)، **سنن النسائي،** حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه، محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1.

نصار، حسين،(1991م)،**أدب الرحلة،** مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر،لبنان ط1.

النعيمي، أحمد،(2004م)، **إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة،** المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

نمر، إبراهيم موسى،(1993م)، جماليات التشكيل الزماني والمكاني (لرواية الحواف)، **مجلة فصول**، مج12، ع2، ص303.

نواب، عواطف محمد يوسف،(1996م)، **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز** في القرنين السابع والثامن الهجريين (دراسة تحليلية مقارنة)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت261هـ)، (2006م)، **صحيح مسلم (المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول ا صلى ا عليه وسلم)،** حققه أبو قتيبه نظر محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط1.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري، ت(213هـ أو 218هـ)،(1990م)، **السيرة النبوية** ،4ج، علق عليها وخرج أحاديثها وصنع فهارسها عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3.

الهروط، بلال،(2008م)، **صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية،** رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة.

الوكيل، سعيد،(1998م)، **تحليل النص السردي (معارج ابن عربـي نموذجـا)** الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

يقطين، سعيد،(1998م) **تحليل الخطاب الروائي،** المركز الثقافي العربي للطباعة والنـشر والتوزيع، بيروت، ط2.

يوسف، آمنة،(1997م)، **تقنيات السرد في النظريـة والتطبيـق،** دار الحـوار للنـشر والتوزيع، اللاذقية، ط1 .

ابن يونة التطيلي، ت(569هـ)،(1996م)، **رحلة ابن يونة الأندلسي إلى بلاد الـشرق الإسلامي،** ترجمها وعلق حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد، تـصدير عبـاس العزاوي، دار ابن زيدون، للطباعة والنشر، ط1.